إبراهيم عبد المجيد

ما وراء الكتابة

تجربتي مع الإبداع



الدار المصرية اللبنانية

إبراهيم عبد المجيد

ما وراء الكتابة

تجربتي مع الإبداع

الدار المصرية اللبنانية

المعنى الذي أريده

الكتابة وطقوسها عملية معقدة، فيها ما هو عام وقد تجده عند كل الفنانين، وفيها ما هو خاص بكل فنان على حدة. وكلما زادت مساحة الخصوصية كلما سما الفن المكتوب، والفن عمومًا، واقترب من المعاني الإنسانية العميقة. قد يشترك الكُتَّاب جميعًا في تصوير جو ما، ساد في إحدى الفترات. وعادة قبل الثورات الكبرى، يشترك الكُتَّاب في إدانة الواقع والإرهاص بالثورة، وكذلك في الهزائم تجد الكُتاب جميعًا قد سقطوا في هاوية الإحباط. لكن في النهاية تجد كل كاتب حالة على حدة. روسو وفولتير وديديرو وبومارشية كتبوا جميعًا عن الأوضاع المتردية في فرنسا قبل الثورة الفرنسية، لكن كل منهم كتب كتابته هو الخاصة، قصة، أو فلسفة، أو شعرًا أو مسرحًا... إلخ. وقبل ثورة 1952 في مصر كانت جل الكتابات عن الأوضاع المتردية في المجتمع، المعذبون في الأرض لطه حسين، القاهرة الجديدة وغيرها لنجيب محفوظ، مليم الأكبر لعادل كامل، أرض النفاق ليوسف السباعي، ومسرحيات توفيق الحكيم ورواياته

عودة الروح، ويوميات نائب في الأرياف، وقنديل أم هاشم ليحيى حقي وغيرها وغيرها. وبعد هزيمة 1967 ساد العالم العربي كله مزاج سوداوي واحد، لكن في النهاية يظل كل كاتب على حدة.

والكُتَّاب في بلادنا، على وجه العموم، لم يكتبوا كثيرًا، وربما ولا قليلًا عما جعلته عنوانًا ثانويًا لكتابي، أي ما وراء الكتابة، قد تجد ذلك متناثرًا في الأحاديث الصحفية، وقد تجده في السير الذاتية لبعض الكُتَّاب، وهي بالمناسبة فن نادر، ولا تزال باستثناءات قليلة، أقرب إلى الكتابة التعليمية، لكن هذا موضوع آخر..

وما أقصده من «ما وراء الكتابة» هو الأسباب التي أدت أودعت إلى كتابة هذه القصة، أو هذه القصيدة، وكيف يكتبها الكاتب، وما هو المجهود العقلي، والعملي، الذي بذله ليصل إلينا في النهاية بهذه القصة أو تلك على النحو الذي وصلت به إلينا. قليل جدا من الكُتَّاب من قدم لنا شيئًا في هذا الموضوع، ربما لأن ذلك من الأسرار التي يصعب الكشف عنها لما تحمله من معانٍ صوفية أو سحرية، وربما لأن الكُتَّاب بعد أن يكتبوا أعمالهم تنقطع صلتهم بها تمامًا، وقد تصل المسألة بالكاتب أحيانًا إلى أنه لا يريد أن يعود إلى عمل انتهى منه. وهذا حقيقي.. لكن يظل للموضوع، ما وراء الكتابة، قيمته وأهميته. وهو موجود في الأدب العالمي. وأنا شخصيا أحببت أن أكتب في هذا الموضوع. يلح عليّ هذا المطلب منذ وقت طويل، رغم أن من رواياتي ما مضى على كتابته الآن أكثر من ثلاثين سنة. ربما أردت

أن أستعيد حالات الحوار الروحي الخاص جدا بي ككاتب، وكيف استطعت أن أتغلب على مشكلات الكتابة. والقضايا الجمالية التي شغلتني. كذلك أجواء الحياة ذلك الوقت أو وقت الكتابة. على أي حال يبدو أنني سأفعل ذلك ما دمت بدأت بالكتابة فيه الآن. وأبدأ بالكتابة عما وراء كتابة رواية (المسافات)، التي صدرت عام 1982 في مصر لأول مرة. وأرجوأن تتاح لي الظروف للوصول إلى روايتي الأخيرة (الإسكندرية في غيمة) التي انتهيت منها عام 2012 والتي شعرت بعد فراغي منها أنني انتهيت من حلم قديم راودني كثيرا وعطلته الحياة حولي. وهو إنجاز ثلاثية الإسكندرية. كنت كتبت هذا الكتاب أول مرة بعد أن صدرت روايتي (طيور العنبر) عام 2000، وكنت أشعر أنه بروفة لكتاب أكثر تفصيلا، ولم أكن أيضا أصدرت الروايات التالية لطيور العنبر. كما لم أكتب أيضا عن كل الروايات الصادرة قبلها. فقط عن خمس روايات وبإيجاز أردت فقط وقتها أن أقدم للحياة الأدبية فكرة جديدة، ليست هي بالمذكرات ولا السيرة الشخصية للكاتب، أكثر مما هي سيرة للكتابة نفسها وللكاتب معها. وربما أيضا نوعا من النقد الأدبي يتسلل بين ثنايا سيرة الكتابة ليقدم جماليات الكتابة نفسها وكيف توصل الكاتب إليها وفيما رآها الكاتب تختلف عن غيرها. أردت أن أقدم نموذجا على نوع من الكتابة غير موجود في حياتنا الأدبية. والآن أتوسع فيما كتبت وأحاول لأن للروايات الأخرى ما وراءها. وسأحاول

إن استطعت أن أفرد فصلا للقصص القصيرة وإن كانت الذاكرة هنا لن تسعفني كثيرا لكثرة القصص وطول الزمن الذي يباعد الآن بيني وبينها. لكن دون شك بعضها ترك علامات لاتنمحي في روحي.

القسم الأول

-1-

«المسافات» انتماء أم ولاء؟

رواية (المسافات) إحدى العلامات الفارقة في حياتي الأدبية، وفي حياة الكاتب عمومًا علامات فارقة مختلفة بعضها محسوس وملموس، وبعضها خفي يحتاج إلى دراسة وتدقيق. لقد بدأت في كتابة هذه الرواية بالضبط في مايو عام 1977. هل لذلك التاريخ دلالة ما؟ أجل. دلالة خاصة وأخرى عامة. لكن دعنا نتحدث عما قبل هذا التاريخ قليلًا.

قبل هذا التاريخ كنت انتهيت من رواية (في الصيف السابع والستين) ولم أنشرها بعد. انتهيت منها عام 1974 وأنا في الإسكندرية لم أنتقل بعد إلى القاهرة. كانت حرب أكتوبر قد جرت وعلي غير ما هو متوقع بدأت أكتب عن حرب 1967. ليس لأن الهزيمة لا تزال تمشي في روحي أكثر من النصر. ربما كي لا ننسى. وجدت في طريقة الكتابة التسجيلية شكلا يمكن به أن أحكي كيف ولماذا انهزمنا. استعنت بالأخبار والأحداث التي جرت أيام الحرب. وأقمت بناءً

على الكولاج بينها وبين الأحداث. بناء يفسر ويوضح ما انتهت إليه الأمور بالهزيمة. ولم أكن محايدا. بدا واضحا أني أفتح باب الإدانة لما سبق الحرب. ليس إدانة النظام الناصري فقط، لكن الاتجاهات السياسية القائمة والممثلة في شخصيات الرواية، رغم ما غلب على الرواية في النهاية من إصرار على النصر والاحتفاء بالمستقبل فيما تركه أحد شخصيات الرواية – الفلسطيني «صايغ» – من أشعار. وكان سبب تأخرها في النشر هوالرقابة على الكتب. رفضها الرقيب لأن بها انتقادا للاتحاد السوفييتي. ثم بعد عام رفضها أيضا لأن بها انتقادا لأميركا التي تصالح معها السادات. وهكذا بدا واضحا أني لن أستطيع أن أنشرها. صرفت النظر عن نشرها يائسا حتى عام 1978 حين ألغى السادات الرقابة على الكتب. لكن أيضا لم أنشرها لانشغالي في القاهرة بالحياة الثقافية والسياسية. نشرتها بعد ذلك عام 1979 في دار الثقافة الجديدة بالقاهرة. كنت نشرت عددًا قليلًا جدًّا من القصص القصيرة في المجلات المصرية والعربية، وكان الهم السياسي واضحا في أكثرها أيضا بدرجة أو بأخرى. إنها قصص المجموعة التي حملت فيما بعد عنوان (مشاهد صغيرة حول سور كبير) ونشرت أول مرة في سوريا ضمن منشورات اتحاد الكتاب السوري عام 1982. كان اختلاف هذه القصص عن رواية «في الصيف السابع والستين» هو تيمة الاغتراب وعدم التوافق أو عدم

القدرة على التوافق مع المجتمع والحياة. كل الشخصيات تقريبا مفعول بها وليست فاعلة. وكان حرصي على البناء الفني المقتصد يحمل القصص بعيدا عن المباشرة. وكانت حفاوتي بالتجريب في اللغة تساعد على ذلك أيضا. كانت القصص في معظمها عن بشر في عالم هامشي ضائع. حتى لو كانوا في قلب الحياة فهم مهمشون بالقوة بحكم ما يحدث حولهم. قصة قصيرة واحدة أحسست بعد كتابتها ونشرها في مجلة «الطليعة» أني مشيت وراء اللغة أكثر مما ينبغي حتى استغلقت القصة على القارئ. إنها قصة «شمس الظهيرة». كان هذا اتجاها رائجا في بعض الكتابات الستينية – أعني بعض كتابات جيل الستينيات – لكني لم أحب ذلك ولم أستمر فيه. سألت نفسي أسئلة: ما معنى الكتابة دون قارئ عادي؟ ما معنى كتابة قصة لن يقرأها غير النقاد؟ وما معنى قصة تفرض عليها لغة قد يتطلب مكانها وزمانها وشخوصها لغات أخرى؟ وطبعا لا يعني هذا تقليلا من شأن ذلك النوع من الكتابة، لكن الكتاب حتى لو عاشوا في عصر واحد ومكان واحد لا بد أن يختلفوا في التجربة والتعبير عنها. اللغة أداة الأدب حقا لكني أحببت أن لا آخذ الشخصيات إلى لغتي، بل أذهب إلى أرواحهم ولغاتها. وهذا بالتأكيد سيقربني من القارئ أكثر، حتى لو جاءت اللغة محملة بالصور غير العادية. ستكون درجة الصدق الفني فيها أعلى؛ لأن

اللغة هكذا ستصير بنت مكان الرواية وزمانها ومشاعر شخصياتها. المهم أن لا أسقط في الاستطراد. وأن يكون الإيجاز أو الحذف أهم من الإضافة. وما أستطيع أن أعبر عنه في كلمة أفضل من أن أعبر عنه في جملة. وما أستطيع أن أعبر عنه في جملة، أفضل مما أعبر عنه في فقرة. وهكذا.

كنت قبل كتابة رواية (المسافات) غارقًا «لشوشتي» - كما يقال- في العمل مع إحدى الجماعات الماركسية المصرية. لقد تعرفت على بعض أعضائها من خلال الدراسة الجامعية التي انتهيت منها عام 1973، وظل اتصالي بهذه الجماعة حتى عام 1977، عام كتابة رواية (المسافات). كانت قراءاتي منوعة، وعميقة جدًّا، ولم تكن في الماركسية فقط ولا في السياسة ولا في الاقتصاد ولا في الاجتماع فقط كما هي عادة المشتغلين في السياسة، لكن كنت تقريبا قرأت أمهات الكتب الفلسفية بدءًا من محاورات أفلاطون حتى الوجود والعدم لجان بول سارتر، مرورًا بكتب صعبة مثل تأملات في الميتافيزيقا لديكارت، والطبيعة وما بعد الطبيعة لأرسطو، ونقد العقل المحض لكانط، وغيرها وغيرها، فضلًا عن أمهات الكتب الفلسفية العربية أو على الأقل أشهرها، وكنت قد انتهيت من برنامج عنيف صنعته لنفسي لقراءة تاريخ مصر الفرعونية والفلكلور المصري، فضلًا طبعًا عن القراءات العادية للروايات العالمية التي كنت مفتونًا جدًّا فيها بأعمال دستويفسكي وكافكا

وألبير كامي أكثر من أي كاتب آخر. رغم ذلك كله، ورغم هذا التنوع الكبير في القراءات، إلا أن أثر الماركسية كان هو الأوضح في كتاباتي، قبل رواية (المسافات)، ولا أقصد هنا الماركسية كفلسفة، لكن كبرنامج عمل ثوري، لذلك قرأت أعمال مكسيم جوركي على أنها أعمال مباشرة وهي ليست كذلك، وقرأت أعمال شتاينبك وأرسكين كالدويل على هذا النحو وهي أعمق بكثير. والحقيقة أن الماركسية كما قلت لم تكن هي السبب، لكن الحلقات النقاشية للرفاق هي التي كانت تسد الطريق على الذات وصبوات الذات من أجل الجماعة ومشروعها؛ لذلك مزقت كثيرًا من القصص قبل رواية المسافات، ولم أنشر إلا القليل، ففي داخلي كنت على يقين من أن الفن أفضل من ذلك. كنت محتاجًا إلى شرر يشتعل في روحي ويحملني بعيدًا عن الولاء الأعمى للفكر الثوري، ويضعني على شاطئ الانتماء للعدالة والإنسانية بأوسع معانيها. ولقد حدث ذلك الشرر في مظاهرات عام 1977، أو الانتفاضة الشهيرة في مصر في عهد السادات.

حدثت الانتفاضة، وشاركت فيها، واكتشفت مع عدد من الأصدقاء، أن حزبنا غائب، وأن كل الأحزاب تقريبًا غائبة، وأن الشعب هو الذي قام بالانتفاضة دون ترتيب أو تدبير، وانضم له الجميع بعد خروجه. ولعل ذلك كان أيضًا من أسباب انتهاء الانتفاضة بسرعة واكتفائها بتراجع السادات عن القرارات

الاقتصادية لكنه ظل حاكما وظل نظامه بالحكم. لقد سعدنا جدا بتراجعه، لكن في النهاية تظل الحقيقة أن الأحزاب السرية اليسارية كانت غائبة كعمل منظم. صحيح أن أعضاءها شاركوا، لكن بلا تنسيق، صحيح أنه تم القبض على الكثيرين من أعضائها لكن بلا أدلة. وهكذا فكرت فوجدت أن مشروعنا خائب! ربما لأننا في معظمنا مثقفون، والأهم أننا في معظمنا أدباء وفنانون على التحديد. هذه هي الشرارة العامة التي كانت بحاجة إليها، هذا على الإجمال. لكن ما فعلته أنا في المظاهرات ظل أمامي يقول لي: أنت مجنون يا إبراهيم، لم تخلق للعمل السياسي المنظم. وكان ما فعلته يراودني كثيرا وأنا أجلس وحدي أو بين الأصدقاء فأبتسم. وما فعلته يستحق أن يروى.

يناير 1977وشتاء القاهرة القارس. ذلك الوقت، وأنا بعد لم يمض على وجودي هنا في القاهرة غير ثلاثة أعوام، أحن فيها إلى شتاء الإسكندرية الدافئ. ورغم ذلك أمضي الليل كله في شوارع القاهرة القديمة. ماذا يفعل شاب أعزب يعيش في شقة مفروشة مع عدد من الطلبة الأصغر سنا والمنكبين على دروسهم ليحققوا آمال أهلهم في الريف؟

كانت الشقة بدير الملاك، وعملي في قصر ثقافة الريحاني بحدائق القبة، واخترت العمل ليلا لتبدأ بعده رحلتي مع أسرار القاهرة!

يناير 1977 والحكومة قد أقدمت فجأة على رفع أسعار السلع الاستهلاكية. والمعارضة المصرية لسياسة الرئيس السادات تملأ الجامعات، من الطلبة اليساريين على اختلاف انتماءاتهم، بينما الإسلاميون على قلتهم جدا ذلك الوقت كانت الدولة تشجعهم على ضرب اليسار، ولا تدري أنهم سيكبرون ويضربون الدولة ويقتلون السادات نفسه للأسف.

يناير 1977 وأنا أعود من رحلتي الليلية كل صباح لأنام. لم أحب القاهرة أبدا بالنهار، وصحوت ظهرا كالعادة، ونزلت من الشقة لأتناول إفطاري في محل ألبان «أبو حشيش» الشهير بدير الملاك، وأنتهي لأجد الهرج في شارع الملك، ملك مصر والسودان، قادما ناحيتنا. شباب يطاردهم البوليس. ما الذي يحدث؟ المظاهرات اندلعت في كل البلاد من الإسكندرية إلى أسوان ولا تزال جامعة عين شمس تقذف بطلابها من العباسية إلى شارع رمسيس في اتجاه «نص البلد». لم أعد إلى البيت إلا في اليوم التالي بعد حظر التجوال. مشيت مع المتظاهرين. معارك في غمرة ومعارك في ميدان رمسيس. هتافات وحشود من كل الأزقة وقنابل مسيلة للدموع. في غمرة لم يستطع البوليس إيقاف المسيرة. في رمسيس كانت المعركة أكبر. تفرقنا في الأزقة بين شارعي كلوت بك والجمهورية والبوليس خلفنا. سكان الأزقة اشتركوا في الهجوم على البوليس من النوافذ بكل ما يستطيعون قذفه خاصة جرادل الماء، الجو بارد

والأرض موحلة والشمس طالعة تتفرج حانية! وبالليل كانت المعركة كبيرة تعب فيها البوليس عند باب الخلق والمحكمة الشهيرة. بتنا في ميدان التحرير بعد ذلك ليبدأ يوم جديد. كانت قنبلة معي في يدي لا تفارقني. قنبلة غاز مسيل للدموع. جاءت ناحيتي أمس ونحن قرب غمرة، تفاديتها وتابعتها وهي تسقط على الأرض وتتدحرج ولم تنفجر. جريت إليها، أمسكتها ولا أعرف أي شيطان وسوس لي أن أحتفظ بها. كانت في حجم علبة السفن أب التي لم تظهر بعد. كانت زرقاء جميلة عليها بلد الصنع، الولايات المتحدة الأمريكية، وظلت معي حتى اليوم الثاني ونحن نقطع منطقة الظاهر إلى ميدان باب الشعرية حيث كانت المعركة أكبر، احترق فيها أكثر من أوتوبيس وأصيب أكثر من شخص بالرصاص الحي للبوليس وأعلن حظر التجوال من الساعة الرابعة عصرًا فتفرق المتظاهرون. مشيت وحدي في الأزقة ممنيا نفسي بالوصول إلى شارع رمسيس لكنني كنت أنحرف كثيرا مع الأزقة فوجدت نفسي في شارع رمسيس حقا ولكن من شارع الفجالة! عليّ أن أعبر ميدان رمسيس الذي صار خاليا من المتظاهرين والبوليس وبدأت تظهر فيه بعض العربات العسكرية وبعض الدبابات. عبرت الميدان بسرعة إلى محطة كوبري الليمون. سأذهب إلى دير الملاك حيث أسكن ماشيا على شريط قطار المرج. هنا لن يتواجد لا جيش ولا بوليس. وكانت القنبلة معي!! لقد قررت أن أحتفظ بها وأفرغها

في الصحراء وأنا في طريقي إلى الإسكندرية وأستخدمها بعد ذلك «مقلمة» تصور!! أضع فيها الأقلام وتذكرني دائما بما جرى. جنون غريب كان سببه المباشر جمال القنبلة!! التي كان حجمها أكبر من حجم قنابل هذه الأيام وغازها أقل تأثيرا. وصلت ماشيا إلى محطة الدمرداش ونزلت بسرعة قاطعا شارع الملك داخلا في الأزقة إلى بيتي قبل أن يفطن لي أحد.

لا يوجد في البيت خبز، ليس أكثر من علبة سلمون وبرتقال وبيض. الطلاب الذين يسكنون الشقة أيضا سافروا إلى بلادهم حيث تعطلت الدراسة. هناك فرن في الزقاق القريب لا يمكن أن يصل إليه البوليس أو الجيش. نزلت. زحام شديد حول الفرن. خرج شخص من تحت الزحام يحمل عشرة أرغفة فهجم عليه الجميع. أي والله، لم يبق في يده غير لقمة! عدت مندهشا وقررت أن آكل بلا خبز، حاف، وفعلتها. أكلت سلمون وبعده البرتقال وجلست أفكر ماذا أفعل. سيتم القبض على جميع اليساريين الليلة. وأنا أنتمي للحزب الشيوعي المصري السري، ذلك الوقت، وفي غرفتي أعداد كثيرة من مجلة «الانتصار»، مجلة الحزب السرية، وأعداد أقل من مجلة «كتابات مصرية»، مجلة الحزب أيضا التي تصدر في بيروت وتهرب إلى مصر. كان عضو اللجنة المركزية مبارك عبده فضل يحتفظ بها عندي وكنت بدوري أوصل بعضها لأعضاء الحزب في الإسكندرية في زياراتي العادية لأهلي فلا أكون

موضع شك من الأمن. أين أخفيها الآن؟ لا يمكن الانتقال بها إلى مكان آخر. أحرقها. وفعلا أحرقتها بالليل وقررت عدم المبيت في الشقة. قررت أن أبيت عند صديقي المرحوم الشاعر أحمد الحوتي الذي كان مديرا لقصر الثقافة الذي أعمل فيه. كان يسكن في محطة التعاون قريبا من القصر ومني. قررت أن يحدث ذلك في منتصف الليل. وبالليل جعت فسلقت ثلاث بيضات ولا أعرف ما الذي جعلني أكنس الشقة. خرجت بالزبالة إلى السلم وبحركة لا شعورية أخذت الباب في يدي فأغلق وأنا على السلم. نزلت إلى الساكن تحتنا وأنا أرتدي البيجامة. رجل في أسرته فتاتان جميلتان لا يحب التعامل معنا بل يعاملنا بجفاء ربما حتى لا يفتح الطريق بيننا نحن السكان الشباب وبنتيه. كان التلفزيون يذيع مسرحية مدرسة المشاغبين وكنت أسمعه من خلف الباب وأنا أدق الجرس. سمعت صوت الرجل يصرخ: «مين». طبعا من يمكن أن يطرق الباب في حظر التجوال؟ طمأنته أنني الساكن فوقهم وأنني أحتاج إلى شيء أكسر به شراعة الباب الزجاجية لأفتح الباب من الداخل لأني نسيت وأغلقت الباب خلفي وأنا أضع الزبالة على السلم. نظر لي من الشراعة ورآني بالبيجامة فاطمأن قليلا. بعد قليل أرسل معي ابنه الصغير ومعه مفك وجاكوش صغير. طرقة واحدة على الزجاج وانكسر ومددت يدي وفتحت الباب من الداخل ودخلت لأجد البيض المسلوق على النار يصطدم ببعضه وبجدران الإناء الصغير بصوت عالٍ بعد أن تبخرت كل المياه. أطفأت البوتاجاز ولمّا شم

الولد الصغير رائحة شياط كبيرة من أثر الأوراق التي حرقتها سألني عنها فقلت له البيض اتحرق! نزل الولد وأكلت البيض وأخذت القنبلة وتوكلت على الله في طريقي إلى أحمد الحوتي من بين الأزقة التي لايمكن أن يكون بها جيش ولا بوليس!!

في منتصف زقاق طويل وجدت عددا من الشباب يأتون مسرعين. لقد ناوشوا رجال الجيش في شارع الملك الذين بدورهم أتوا وراءهم في سرعة وأغلقوا الزقاق من الناحيتين. اختفى الشباب في البيوت ووقفت أنا مندهشا من نفسي والقنبلة في يدي. ماذا تفعل يامجنون؟ قلت لنفسي ودخلت بيتا مهجورا قديما صغيرا شبه مهدم وتركت القنبلة تحت السلم وخرجت أمشي بثبات ناحية آخر الزقاق لأقابل قوات الجيش. عرّفتهم بنفسي وقلت لهم إنني مضطر للخروج ليلا والذهاب إلى صديق غريب مثلي عن القاهرة لكنه مريض ويسكن في محطة التعاون القريبة ويحتاجني. الجو بارد حولنا وبدا لهم أني صادق فتركوني أمر على أن لا أترك الأزقة أو أدخل شارع الملك. وصلت إلى أحمد الحوتي الشاعر الجميل والصديق الأجمل - رحمه الله - وما أن رآني حتى راح يرقص في الشقة الصغيرة فرحا بانتصار الشعب على السادات، وظللنا طوال الليل نضحك. في الصباح ذهبت إلى السيدة زينب أطمئن على صديقي الكاتب عبده جبير فوجدته قد قبض عليه فأخذت طريقي إلى جزيرة بدران لأطمئن على الشاعر الصديق سمير عبد الباقي

فوجدته قد قبض عليه أيضا. وفي عودتي وأثناء عبوري الشارع في ميدان أحمد حلمي أمسك بذراعي ضابط شاب فتأكد لي القبض عليّ، لكني رأيته يرتدي البدلة الميري وبرتبة ملازم أول فتشككت وقبل أن أتكلم طلب مني دفع غرامة عبور الشارع دون انتظار فتح إشارة عبور المشاة، وكانت 25 قرشا ذلك الوقت، فتنفست الصعداء وأخرجت من جيبي جنيها قدمته له، ولم أنتظر الباقي وهو يناديني وأنا أبتعد وأهتف له أن يعطي الباقي للعسكري. كانت هذه الغرامة مقررة ذلك الوقت ولم تطبق عليّ أبدا إلا ذلك اليوم. ابتعدت وأنا أضحك وأخذت المترو إلى حدائق القبة لأطمئن على صديقي صلاح زكي الناصري الجميل الموجود بالخليج الآن فوجدته أيضا قد قبض عليه، فأخذت طريقي إلى البيت قبل موعد حظر التجوال منتظرا أن يتم القبض عليَّ في أي لحظة، ولكن لحسن الحظ لم يحدث. تذكرت في البيت أن لديّ حوارا كنت أجريته مع الأديب الراحل العظيم نجيب سرور ملأ كراسة كاملة ولم أنشره أبدا لأنه مليء بالشتائم لكل الأنظمة العربية وطبعا نظام الرئيس السادات على رأسها. بالليل أخذت طريقي من الزقاق نفسه الذي مشيت فيه بالأمس ومعي الحوار لأخبئه عند صديق آخر، غير أحمد الحوتي، أضاع الحوار فيما بعد لكن هذه حكاية أخرى. وأمام البيت المهجور وقفت أفكر في القنبلة. دخلت لآخذها مرة أخرى فلم أجدها. هل كنت حقا سآخذها؟ لا أعرف. وكل عام، في يناير أفكر في البيت

المهجور ومن يا ترى أخذ القنبلة وماذا فعل بها؟ أفكر في نفسي، شاب في وسط المظاهرات الصاخبة يفكر في أن يحتفظ بقنبلة ليصنع منها مقلمة يضعها على مكتبه. أقول هذا جنون فنان وليس رجل سياسة. لذلك لم تمض شهور إلا وتركت الحزب الشيوعي المصري وكل عمل منظم.

لكن هذا القرار لم يكن سهلا أن آخذه بسرعة. ترددت كثيرا حتى جاءت ليلة التقيت فيها مع الكاتب والروائي عبد الوهاب الأسواني الذي عرفته من قبل في الإسكندرية. وكان قد سبقني إلى النشر في القاهرة وإلى الرحيل إليها، وحين جئت أنا إلى القاهرة كان طبيعيا أن نلتقي كثيرا. كان يختلف عن بقية الأدباء في القاهرة ببعده عن المهاترات. والتماسه الأعذار لكل من يخطئ. ولم يكن يذكر أحدا بسوء على غير عادة الأدباء بالمقاهي. لذلك كان مروره عليّ يبعث فيَّ نوعا من الراحة. وكثيرا ما كنت أنصت إليه حين يتحدث وأسأل نفسي كيف استطاع هذا الرجل أن يعيش في سلام مع نفسه ومن حوله إلى هذا الحد. ربما لطبيعته الأسوانية فهو فيما أذكر من قرية دراو قرب أسوان. وربما لعمله الثابت في مجلة الإذاعة والتلفزيون الذي لا يعرضه للحاجة. كنا نتناقش كثيرا في كل شيء. وفي تلك الليلة كنا نجلس في حديقة صغيرة جدا جوار مكتب بريد صغير في شارع الملك - مصر والسودان - كنا عائدين من سهرة بالخارج. وجلسنا قليلا من الوقت قبل أن يفارقني

وآخذ طريقي للشقة لأنام. كنا نقترب من الفجر تقريبا. في تلك الليلة كشفت لعبد الوهاب عن سري الذي مشى معي منذ أربعة أعوام من قبل حتى أن آتي إلى القاهرة، وهو أني عضو في الحزب الشيوعي المصري السري. وأخبرته كيف أشعر بضغط السياسة والأيديولوجيا على روحي وكيف أشعر بأنها تفسد ما أريد أن أكتبه أو تفسده بالفعل. وحكيت له حكاية القنبلة كاملة وكل ما جرى معي تلك الليلة وبعدها. ضحكنا كثيرا وهو ينظر لي بدهشة. لم تخلق للعمل الحزبي يا إبراهيم. الفن أبقى. هكذا قال وتحدثنا تلك الليلة عن الأدباء الذين أرهقتهم الأيديولوجيا وضغوطها في العالم وكيف انعتقوا من ذلك بالخروج من العمل الحزبي المنظم. ثم قال لي جملة لا أنساها أبدا. هناك عشرات يستطيعون حمل المنشورات وتوزيعها لكن هناك دائما أديبًا واحدًا أو فنانًا واحدًا. التقى الذاتي بالموضوعي في روحي وحدثت الثورة أو التحرر، لكنها الثورة على العمل السياسي المنظم، سريا بالذات. ترددت قليلا حتى كانت ليلة عدت فيها وحدي من الخارج عند الفجر ودخلت غرفتي التي كان لها بلكونة صغيرة تطل على الشارع الخلفي للبيت ورأيت خيوط الفجر تشق الظلام ووجدت نفسي أسأل نفسي: هل حقا ستستطيع أن تغير العالم؟ أليس الأجدى أن تغير هذه الغرفة بشقة لك وحدك لا يشاركك فيها أحد ولا يأتي إليك أحد إلا بميعاد؟ أن تغير هذه الغرفة ببيت نظيف حسن الإضاءة كما يقول هيمنجواي؟ فكان شهر مايو عام 1977 هو الشهر الذي أبلغت فيه الرفاق أن ينسوني. والذي

حدث أن زملائي في الخلية الشيوعية وكانوا ثلاثة هم الكاتب عبده جبير الذي كانت اجتماعاتنا كلها في بيته بالسيدة زينب بشارع جريدة السياسة المتفرع من شارع المبتديان. والكاتب محمد ناجي والفنان عدلي فخري كانوا مثلي قد ضاقوا بالعمل السري فخرجنا جميعا من الحزب. وشعرت بالطرق مفتوحة لكتابة جديدة.

سحر الخصوصية الخفي:

في الليلة ذاتها تقريبًا التي قررنا فيها الخروج من الحزب أمسكت بالقلم وشرعت في كتابة روايتي، اندفعت أكتب بعض ذكريات الطفولة. في أي كهف مسحور كانت هذه الذكريات مدفونة. تركت نفسي أكتب على سجيتي، بلا قيود، ولا أفكار مسبقة ولا مشروع في ذهني ولا نهايات محددة. شرعت أكتب واندفعت في الكتابة عن الروح، روح المكان. كنت قد تخرجت في الجامعة منذ أربعة أعوام، من قسم الفلسفة، وكنت درست الأنثروبولوجيا على يد العالم الكبير الدكتور أحمد أبوزيد، الذي لفت نظرنا إلى أهمية أن نقرأ الكتب الأصلية ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، كتب فريزر وتايلور وإيفانز بريتشارد ومارجريت ميد وغيرهم. وكانت من ضمن الأفكار البدائية التي لمست قلبي فكرة الأنيمزيم Animism، أي حيوية الطبيعة، أو إضفاء الروح على النبات والظواهر الطبيعية، هذه الفكرة التي جعلت البدائي يعبد الرياح والأنهار والشمس

وغيرها من ظواهر الطبيعة، وجعلته يؤمن بتناسخ الأرواح إذ يعود الموتى أحياء في حياته في الأحلام.

تركت وأنا أكتب هذه الفكرة تتلبس الأشياء في المكان الذي أكتبه، والذي كان من حسن الطالع أنه شبه مسحور، فهوغرب مدينة الإسكندرية، حدود البحيرة الغامضة، والصحراء الواسعة، وتمر عليه في اليوم قطارات قليلة تبدوقادمة من مكان مجهول قاصدة مكانًا مجهولًا أيضًا، أو هكذا خيل لي رغم أني أعرف أن القطار ذاهب إلى الصحراء الغربية أو قادم منها. فرحت. نعم شملتني فرحة كبيرة، وأنا أرى الروح تدب في الجماد والطبيعة واكتشفت إمكان الخروج من أسر الكتابة الساذجة التي تستهدف دفع الجماهير إلى العمل والثورة، أو ارتفاع الأصوات بالإدانة بوضوح. ياسلام!!

أدركت أنني الآن على صواب، إنه من الصعب على الفنان أن ينتظم في السياسة. لقد انتهيت من الرواية بعد ثلاث سنوات انقطعت فيها سنة عنها بسبب سفري إلى المملكة العربية السعودية، هي التي ستكون موضوع روايتي (البلدة الأخرى) فيما بعد، لقد اكتسبت الحرية بكتابة هذه الرواية، أن أكتب ما أريد أنا وحدي، وللآن أنا مدين لهذه الرواية التي علمتني أن الحرية الحقة للمبدع هي حرية الإبداع والابتداع. وتزداد قيمة الحرية أكثر حين يكون القمع هوالسائد حوله في المجتمع. لا أعرف في اللغة كلمة يمكن

أن تحيط بحالة الفرح التي تتلبس الكاتب وهو يكتب. سماها يحيى حقي بالجزل. ما أعرفه أنني صرت حين أكتب لا أرى عالما حقيقيا غير عالمي الروائي أو القصصي. وبالذات أثناء وبعد كتابة هذه الرواية، وحيث إنني اخترت دائما الليل بعد أن ينتصف للكتابة حتى أول خيوط الصباح، وفقط في فصل الشتاء، ترافقني الموسيقى تنساب من الراديوجواري من البرنامج الموسيقي، أستطيع أن أقرر أنني بحق حين أكتب لا أدرك أن حولي عالما حقيقيا غير ما أكتب. ساعدتني دراستي ومكان الرواية في خلق أساطير كنت أسعد بها جدا حين أقرأ ما كتبت في اليوم التالي قبل أن أشرع في الكتابة من جديد. وساعدتني معرفتي بالمكان. البحيرة والصحراء والسكك الحديدية التي كان أبي أحد العاملين فيها وكان كثيرا ما يصحبني معه في صباي في سفراته عبر الصحراء. ساعدتني مفردات هذا العالم ومعرفتي الأنثروبولوجية والأهم دراساتي للفلسفة واستغراقي الروحي في معنى الاغتراب الإنساني الذي بلا شك سأعود إليه ربما أكثر من مرة وأنا أكتب هذا الكتاب والموسيقى التي تنساب حولي من الراديو وتملأ فضاء الغرفة طول الليل. كل ذلك ساعدني في التحليق بعيدا عن الأرض رغم كل ما يحدث في الرواية. المهم كانت هذه الرواية علامة فارقة مبكرة جدا والحمد لله بين الانتماء الحزبي بما يفرضه من قيود فكرية وبين حرية الفنان التي لا يكفيها

العالم كله. أذكر وأنا أكتب فيها أن كان هناك مشهد للصبي «علي» يقف فيه بين قضبان السكك الحديدية في الخلاء فيرى هدهدا على الأرض. كصبي يمسك حجرا يقذف به الهدهد فيطير الهدهد ليس بعيدا فيقذفه بحجر جديد فيطير ليس بعيدا أيضا. يتمنى علي فجأة أن يقذف حجرا لا ينزل. وبالفعل يقذف الحجر ولا ينزل ويظل يدور في البلاد وتخرج الناس لاستقباله من بلد إلى بلد، وتمر السنون فيعود الحجر لينزل أمام علي الذي صار رجلا مسنا وإن لم يبرح مكانه بين القضبان. ينحني يمسك بالحجر الساقط من جديد فيعود صبيا صغيرا كما كان. هذه الحكاية الأسطورية ومثلها كثير هي بنت المكان يوحي لي بها اتساعه وخلاؤه. والمهم هنا أنني وأنا أكتب هذا المشهد نسيت ألوان الهدهد. تركت مكانا خاليا أصفه فيه بعد أن أرجع لكتاب عن الطيور. انتهيت من الكتابة مع بداية الصباح. في هذه الحالة كثيرا ما أفتح البلكونة وأقف أتنفس هواء نقيا من الفضاء قبل أن يملأه البشر والسيارات. فتحت باب البلكونة. وكنا في بداية الربيع. ولدهشتي وجدت على سور البلكونة هدهدا يقف كأنما ينتظرني. وجدت نفسي أحدثه مندهشا غير مصدق. «أقف الله يخليك!» كان الهدهد يمشي على سورها يتلفت. عدت على أطراف أصابعي إلى الغرفة وأمسكت بكراس وقلم وعدت إلى البلكونة ووقفت أرسمه وأحدد ألوان ريشه. ثم ضحكت وصفقت

فطار الهدهد. أعرف أنني أسكن في منطقة كانت في الأصل أراضي زراعية ولا يزال بينها بعض الحقول، وربما كان الهدهد يأتي من قبل، لكنني دائما كنت أخرج إلى البلكونة مع أول أنوار الصباح ولا أراه. وبعد ذلك أيضا لم أره أبدا على البلكونة!

هذه الحكاية الصغيرة عن الطفل علي والهدهد مثلها كثير من الحكايات الأسطورية التي ألقى بها المكان إلى روحي. لكن لم يكن المكان فقط. كانت دراستي للفلسفة الوجودية وولعي بفكرتي الاغتراب والاستلاب. فمثلا العامل الذي يعمل في استكشاف الأعطال في القضبان. يسميه العاملون «خفير جاكوش». فتتنني مهنته التي لا تزيد على المشي في الصباح والنظر إلى القضبان بحثا عن شيء سيئ وقع لها من إثر مرور القطارات. عادة يحمل «غلق» به عتلة ومفتاح لربط المسامير وجاكوش لدقها. وإذا كان العطل كبيرا يضع عليه علامة بالطباشير ويعود بعد الظهر إلى مركز العمل يخبرهم فيخرج العمال لإصلاح ما عجز هو عن إصلاحه. هذا عمل عادي يحدث كل يوم. لكن العامل هنا يمضي عمره كله يخرج في الصباح من الشرق إلى الغرب فتكون الشمس الصاعدة من الشرق في ظهره. ويعود بعد الظهر من الغرب إلى الشرق إلى مركز العمل فتكون الشمس الغاربة في ظهره. لا يدرك ذلك ولا يهتم به لكنه في يوم يقرر العودة مبكرا فلا تطاوعه قدماه على الالتفات والعودة. استلبته العادة فصار جسده سجينها وهكذا حكم عليه أن يقضي

بقيـة عمره لا يرى الشـمس. وهكذا كل المهن والعـادات والمكان كانوا مصدرا لأساطير يعيشها الناس المنسيون هنا. «علي» هو الذي يسـبقهم في الرغبة في المعرفة وتجاوز المكان والزمان لذلك يكبر فجأة فيصير شـابا ويترك المكان إلى المدينة القريبة ليعرف سـر هذا العذا ب المحكوم به على الناس هناك. يجد في المدينة عذابًا أكبر. لقد هزم سـكانها أمام العدو الخارجي. يعـود من المدينة إلى مكانه الأصلي فيعود إلى طفولته ولا يجد أحدا غير أجمل النسـاء «سعاد» التـي لم يطالها أحد، وقد صارت مسـخا صغيرا يحتفظ له بها عامل بلـوك السـكة الحديد الذي لا يعمل لأن القطـارات لا تأتي! ينحني يقبلها داخل السلة فتختفي هي الأخرى إلى الأبد.

قـد يجهـد الباحـث نفسـه بحثـا عـن الأصـول الأسـطورية أو حتـى الفولكلورية لأسـاطير وحكايـات هذه الرواية لكنـي أقول له لا تجهـد نفسـك. ربما مـرة أو مرتين قد تجد أثـرا لقراءاتي القديمة فـي الفولكلور والأسـاطير، لكنـي هنا في الحقيقة صـرت صانعها، أو بمعنى أدق المكان ونوع الأعمال فيه ورؤيتي الفلسـفية للإنسـان الصغيـر في هـذا العالم هي التـي صنعتها. صار المـكان هو الفاعل في الشـخصية وليس الأفكار السياسـية رغم وجودها. لقد فزت مع (المسافات) بالحرية.

-2-
الصياد واليمام

كان طبيعيا وأنا أكتب رواية المسـافات أن أتذكر رحلتي كل يوم إلـى المدرسـة وأنا طالب في مدرسـة القبـاري الابتدائيـة، وكذلك وأنـا طالـب في مدرسـة طاهر بك الإعدادية. والسـبب بسـيط جدا وهو أن أبطال الرواية عمال في السكة الحديد أو يسكنون في «سكن العامليـن» فيها رغم أن «السـكن» في رواية المسـافات لم أعش فيه يوما ولا كان لي فيه أصدقاء. لقد عشت طفولتي وصباي في «سكن» عمـال السـكة الحديد القائم على ترعـة المحمودية بين حي كرموز وكفر عشري. كانت مدرستي الابتدائية هي مدرسة القباري التي تقع في زقاق صغير في آخر شـارع المكـس وهو ينحني ليدخل في حي مينـا البصل. ما يسـد الزقـاق كان بوابة خلفها تقـع أرصفة البضائع. بوابة لا تنفتح. قبلها أمضيت عاما واحدا في مدرسة عبد الله النديم الابتدائية في شـارع التجارة بكفر عشـري - كانت بيت النديم نفسه فـي الأصل وأظنهـا هدمت بعد ذلـك - ثم ثلاثة أعوام في مدرسـة الغنـدور الابتدائية بالقباري وكانت مدرسـة خاصة لا أعرف مكانها اليوم من كثرة المباني التي قامت هناك والعشـوائيات. ثم انتقلت أو

نقلتني أمي إلى مدرسة القباري بدءا من السنة الرابعة – كانت أمي هي التي تهتم بالتعليم أكثر من أبي الطيب الذي كان يرمي حموله على الله ويعرف أن الله سييسر أمري دائما ومن ثم فأي مدرسة مثل الأخرى، لكن أمي كانت تبحث دائما عن الأفضل – في طريقي إلى مدرسة الغندور كنت أخرج من المساكن إلى السكة الحديد التي تقع خلفنا وأمشي بين قضبان السكك الحديدية وأحيانا القطارات حتى أصل إليها. في طريقي إلى مدرسة القباري كنت أفعل ذلك أيضا لكن الطريق هنا يمر بأرصفة كبيرة كانت تأتي إليها القطارات محملة بالبضائع وتفرغها عليها لتنقلها السيارات إلى المدينة. وكانت هناك بوابة أخرى مفتوحة لدخول السيارات والعمال كنا نخرج منها إلى فضاء المدينة. كان يشاركني في الرحلة الأولى والثانية زميل يسبقني في العمر بعامين اسمه مصطفى. وكان مصطفى من الأولاد الأشقياء جدا. دائما معه «نبل» يصطاد به العصافير ويهوى القفز إلى عربات القطارات المسرعة ومنها. كنت أنا لا أصطاد العصافير إلا في الإجازات المدرسية حيث نخرج إلى خلاء من الأرض جنوبي السكة الحديد نفعل ذلك ولكن بالفخاخ. أو نعلق على الأشجار حيث كانت الأرض الزراعية تمتد أمامنا وكانت تسمى بأرض الموز، نعلق على الأشجار أعوادا من الخشب عليها مادة لاصقة كنا نسميها المخيط – ولا أعرف مصدر الاسم ولا يمكن أن يكون من المخاط مثلا لأنها لم تكن بذات رائحة سيئة وإذا كان من المخاط فسيكون لكثافة اللصق فقط – وكانت تباع في المحلات الصغيرة. تأتي العصافير المهاجرة فتقع في الفخاخ إذا نزلت على الأرض

وتلصق بأعواد الخشب المصبوغة بالمخيط إذا وقفت عليها فوق الشجر. كنا نفعل ذلك في الصيف أكثر منه في الشتاء. وكانت هجرة الطيور إلى مصر في الصيف أكثر منها في الشتاء. كنا لا نعرف ولا زلت لا أعرف مصدر هجرتها غير الصحراء الغربية. وكنا نسمي بعضها بلونها. خضّير إذا كانت خضراء وصفّير إذا كانت صفراء. وغير ذلك نعرفه ونسميه دقنوش لأن له ريشا يبزغ أسفل ذقنه وكان هذا أكبرها وأفضلها طعاما. كانت هذه مناطق خلاء كبير وزراعات أيضا بين بحيرة مريوط والسكك الحديدية راحت كلها وتحولت إلى مبانٍ عشوائية ومصانع كيميائية. الأراضي الخالية والمزروعة والبحيرة نفسها، بحيرة مريوط. ستظهر هذه الأماكن في رواية أخرى كتبتها فيما بعد هي رواية (طيور العنبر) كما تظهر في كثير من قصصي القصيرة. لكن هذا حديث آخر. المهم كنت أيضا لا أصطاد السمك إلا في الإجازات في بحيرة مريوط. والإجازات هنا تشمل أيضا أيام الجمع. كنت أمشي مع مصطفى سعيدا بما يفعله ضاحكا مسرورا لكن لا أفعل مثله. وكان هناك دائما صياد شاب يصطاد العصافير واليمام ببندقية لا بالنبل. كانوا أكثر من شخص يظهرون في أيام متفاوتة ونقف مع من يظهر منهم معجبين بما يفعل ونجري أحيانا نساعده في التقاط العصفور أو اليمامة بعد أن تقع بعيدا على أرض الرصيف. الأرصفة كبيرة عريضة عالية عن الأرض بحيث إذا وقف القطار جوارها وفتحت أبواب عربات البضاعة أنزل العمال ما فيها بسهولة على الرصيف وكذلك مع العربات المكشوفة. ارتفاع الرصيف تقريبا بارتفاع العربة فوق العجلات.

هذه الأرصفة مهجورة الآن للأسف بعد أن أنهت الدولة تقريبا النقل بالسكة الحديد كما أنهت النقل النهري لصالح أصحاب السيارات والمقطورات فارتكبت أكبر جريمة في حق البلاد والناس. وهذه الأرصفة منذ عصر إسماعيل باشا وربما قبله أيضا وأحدها يسمى رصيف الباشا. كنا في طريقنا إلى مدرسة القباري لا نتورع عن أخذ بعض من الفول السوداني الذي تحمله العربات داخل أجولة نوزعه على زملائنا ونتسلى به في الفصل، وأحيانا الدوم. أو نجذب من بين حزم القصب عودا أو اثنين نكسره قطعا ونمصه في الطريق. ولا أحد يعترض فالخير كثير بالبلاد وما نأخذه لامعنى له. شرطي السكة الحديد الذي يرانا يضحك ويجلس هو أيضا يمص عودا من القصب. كانت القطارات التي تفرغ حمولتها للمدينة هنا تحمل ما يأتي إلى مصر من الميناء لتوزعه على البلاد في رحلتها العكسية. وكثيرا ما كنا نرى أسلحة - دبابات ومدافع - تحملها القطارات من الميناء وتبتعد بها عن المدينة. مكان عجيب مدهش. متسع من الأرض وقضبان متشابكة بينها أرصفة عريضة مغطاة بجمالونات من الصاج تحتها أعشاش الطيور وعمّال يظهرون ويختفون لتحميل عربات القطارات أو إفراغها، وفضاء متسع وحكايات تجري حولك ولا تتوقف. وما تراه هذا اليوم لا تراه غدا. هو فقط شرطي السكة الحديد الذي لا يتغير وعمال الشاي في كشك لعمل الشاي وبيعهَ. عالم من الخيال وجدت نفسي وأنا أكتب رواية المسافات أراه أمامي كله يطلب مني أن يدخل في نسيج الرواية ويلح على روحي. وما كاد يتسلل إلى الرواية ذات المكان الأسطوري البعيد

حتى وجدته سيغيرها إلى مكان وزمان آخرين. يالعذاب الكتّاب. هداني الله إلى أن أكتب بسرعة قصة قصيرة بعنوان (صياد اليمام) فأبتعد عن هذا العالم كله. عن المسافات. والغريب أني وأنا أوشك على الانتهاء من رواية المسافات داهمتني رواية قصيرة أخرى هي (ليلة العشق والدم) فبدأت فيها لكن لم تتعجلني أو أتعجلها. سأوضح ذلك فيما بعد. ما كدت أنتهي أيضا من المسافات حتى عدت إلى القصة القصيرة (صياد اليمام) لأكتبها من جديد رواية قصيرة (الصياد واليمام)! لم أقصد ذلك عند كتابة القصة القصيرة لكني وقتها استجبت لنداء الروح أن أكتب عن صياد اليمام فأبتعد به عن الدخول في المسافات، وهكذا ما أن أنهيتها حتى عاد يلح على أن أعود إليه على مهل! وأيقظ ذلك بقوة أني وقد أصبحت في القاهرة، كثيرا حين أزور الإسكندرية أذهب إلى أصدقائي في العجمي والدخيلة فأمر على كوبري التاريخ الذي تحته تجري القضبان الحديدية والذي من فوقه دائما يلتفت رأسي إلى الأرصفة القديمة تبعث كوامن الأسى والشجن.

صياد اليمام يرى كل شيء موجودا غير موجود. ليوم كامل يبحث عن اليمام والحقيقة أنه يبحث عن الزمن القديم الذي يستيقظ في الرواية بالفعل المضارع كأنه الحاضر الذي لا يفارق روحه بينما الحاضر بالفعل الماضي كأنه مغترب عنه لا يريده. وأصل أزمته هي نكسة 1967 التي فقد فيها ابنه بين القطارات ولم يعد يذكر. في المسافات الزمن ممتد والمكان متسع ولأنه غير مأهول إلا من

سكانه القليلين ومحاصر بالبحيرة والصحراء ومحطة القطار التي لا تأتيها القطارات تمتد الأساطير في أفعالهم. هم الذين يبدون لا يعلم بوجودهم أحد. أساطير منذ عشرات السنين وأساطير معاصرة تصنعهم أكثر مما يصنعونها لأنهم في مكان طارد. وهنا المكان يتسع بريح الشتاء واختفاء سكانه ولا تملأه إلا ذكريات وحقائق صارت خيالات لا يجدها رغم أنها كانت موجودة كل يوم. حتى عندما يترك مكانه ويذهب إلى أحد بارات الإسكندرية ويتعرف على بعض الرواد من العاملين في السفن التجارية، يختفون بعد ذلك واحدا بعد الآخر تاركين خلفهم حكايات خرافية. هذه رواية عن الهزيمة فيما يبدوكنت أودع بها ما تركته الفترة الناصرية في روحي من قناعات. والحقيقة أنه كان من الصعب على من عاش منذ طفولته الفترة الناصرية بعد ثورة يوليو1952 أن يخرج من أسرها بسهولة. كانت هزيمة 1967 أكبر ما ساهم في الخروج من أسر هذه الفترة. ثم انتمائي للحزب الشيوعي. لكن الإنسان ليس إناء تغرف ما فيه وتضع غيره. ظل في الروح حنين. لم تفلح إذن رواية (في الصيف السابع والستين) في توديع الناصرية. ورغم أن ملاذي الآن صار روح المكان وليس السياسة والفكر، فهنا المكان يغري بذلك، لكنه أيضا يعيد على الصياد ذكرى الهزيمة التي مات ابنه فيها تحت عجلات القطار. والفترة الناصرية في حياتي يمكن أن أختزلها في المقال القادم الذي نشر بعد ذلك بسنوات، عشر سنوات أو أكثر،

لكنه يمكن أن يفسر إلى حد كبير ما قبله من روايات، وخاصة الصياد واليمام. وستعرف أنه كان من الصعب أن أنزع الفترة الناصرية من روحي بسرعة.

ضيعني صغيرًا وحمّلني دمه كبيرًا

كيف يمكن أن أكتب عن عبد الناصر. إنها رغبة قديمة تصعد إلى روحي من عام إلى عام لكني لم أفعلها حتى الآن. لا بد أنه قد استقر في شعوري العميق أن أية كتابة عن عبد الناصر قد لا تزيد على كونها كمًّا يضاف إلى ملايين المقالات التي كُتِبت عنه، وفي أغلب الأحيان لن تضيف جديدًا إلا إذا تصورنا أن مهمتنا هي مقاومة النسيان. لكن حتى هذه المهمة ليست صحيحة إزاء الزعيم الخالد. فهو بإيجاز مستعصٍ على النسيان، ليس هذا من باب المدح، فقط مجرد حقيقة. ربما لذلك تأخرت كتاباتي، ولا أدري ما الذي جعلني أفعلها هذه المرة. ربما لأني تنبهت إلى أيلول (سبتمبر)، هذا الشهر الذي طالما أصابني بالحزن في الإسكندرية أيام كنت أعيش هناك، ولعله كان أحد أسباب تشبثي الذي هوبلا معنى بالحياة في القاهرة. أجل، في القاهرة لم أشعر بأيلول (سبتمبر) قط. بذلك الإيقاع الهادئ بمدنية الإسكندرية، وتلك السحب الرمادية التي تندفع راقدة فوق المدينة، وقوافل السمان السابح بحثًا عن دفء إفريقيا بعد رحلة مضنية في أوربا الباردة.. لكني هذا العام أحسست بأيلول (سبتمبر) وحزنه المتسلل إلى الروح وأنا في القاهرة، لماذا

حقًّا حدث ذلك؟ لقد نظرت إلى نتيجة الحائط، وأنا نادرًا ما أفعل ذلك. من زمان لديَّ يقين بأن ما يمضي من حياتنا، يمضي سُدى. ولم أعد أنظر إلى تواريخ الأيام. أخطأت إذن وفعلتها. استيقظ الحزن في روحي وارتفع إلى وجهي و.. عيني أيضًا، حزن نبيل يجلعني أشعر بالزوال الرابض في سقف العالم.. لكن هذا كله لا يكفي، لابد من وجود أسباب أخرى أكثر حضورًا. لابد كان انتهائي من رواية قصيرة بعنوان (قناديل البحر)، هي مرثية هادئة لأحلامنا الكبيرة، نشيد وداع للعروبة والوحدة والاشتراكية، لكني انتهيت منها في أيار(مايو) قبل أيلول (سبتمبر) بثلاثة أشهر. كما أن حرب الخليج حدثت منذ ما يقرب من عامين الآن – وقتها – لا بد أن ذلك كله وراء رغبتي في الكتابة عن عبد الناصر. ورغم أن الناصرية لم تتصالح يومًا مع الماركسية إلا أن المشكلة الآن هي اختفاء الحديث عن العدل في العالم. أصبحت كلمات العدالة والمساواة قديمة رغم أنهما أيضًا من صميم شعارات البرجوازية القديمة. هذا هوالأثر السيئ الكبير لانهيار الاتحاد السوفيتي – كما أحس – بصرف النظر عن الماركسية اللينينية نفسها وعن الذين كانوا يطبقونها أو يفسدونها أو ما تشاء.. لكن لا بد أن نضيف إلى ما سبق تراجع فكرة الوحدة والإحساس بالعروبة، كانت حرب الخليج بيانًا ختاميًّا في المسألة يكرس الانفصال النهائي. رغم أني أعرف أنه لم تحدث وحدة حقيقية في يوم من الأيام. وأن الكلام عن الوحدة كان أكثر من العمل، وكذلك الكلام عن العروبة، لكني

هنا لا أكلمك عن كلام لحكومات ولا بد أنك لا تختلف معي في أن الشعوب العربية كانت تأمل في الوحدة وتعلي من شأن العروبة، وهذا هو الإنجاز الكبير لعبد الناصر، رغم أن تجربة الوحدة في عهده لم تنجح. لقد كان الإنجاز الحقيقي هو ذلك التقارب النفسي العميق بين الشعوب العربية رغم الحواجز ورغم الحكومات. والأزمة الآن ليست في تراجع أفكار الوحدة والعروبة عن الحكام فهم لم يكونوا مهيئين لغير ذلك، لكنها في انكسار هذا التقارب النفسي عند الشعوب العربية. لذلك من السهل جدا أن تتحد الحكومات العربية الآن على الحد الأدنى في كل شيء مع إسرائيل. ولا يبدو أن هناك شعوبًا تقاوم – في المقاومة الفلسطينية في الأرض المحتلة الآن تجسيد بدرجة ما لهذا المعنى.. أي إن من أسباب الكفاح الفلسطيني الكبير الآن إحساس المواطن الفلسطيني بابتعاد الشعوب العربية عنه – وقد يقول أحد إن العرب حين اتحدوا على السلام حققوا شيئًا في صراعهم مع إسرائيل. والإجابة نعم ولكن عفوًا، فهذه وحدة مغشوشة بالمعنى المصري الدارج.. لكني ما زلت حائرًا عن سبب رغبتي هذه المرة في الكتابة عن عبد الناصر. لا بد أنه كل ما مضى، ولابد أنها قصتي معه التي جرت كل وقائعها في الإسكندرية وفي سنوات التكوين وأول الحلم ويبقى لي أن أعرف ماذا يمكن أن أكتب. سأبتعد بقدر الإمكان عما هوعام. وأمسك بقدر الإمكان بما هوشخصي وذاتي وخاص، سأمسك بالأحاسيس الأولى أو سأحاول.

1955

في الإسكندرية في مدرسة القباري الابتدائية بحي القباري المشهور بمسجده الذي حمل الحي اسمه. في الثالثة الابتدائية وعندي من العمر تسع سنوات كنا نجتمع في الحصص الدراسية الخالية حول واحد منا لديه قدرة بارعة على نقل الحكايات التي يسمعها من جده ووالديه إلينا مجسمة طازجة بالانفعالات، والأفلام التي يراها كان اسمه حسن هلال، ولا زلت أذكر.

لم ينجح في التعليم، عمل فيما بعد عاملًا خلف ماكينة إحدى السينمات، سينما الهلال بالقباري القريبة من بيته، ثم التحق جنديًا بالبحرية يجوب العالم ولم أعد أسمع عنه شيئًا منذ سنوات بعيدة.. كان بحق قادرًا على منحنا عالمًا من الفتنة والسحر.

وفي إحدى المرات، ونحن نتجمع حوله، قال تلميذ آخر بشكل مفاجئ إن لديهم في بيتهم صورة لجمال عبد الناصر أرسلها جمال عبد الناصر إلى أخيه الأكبر.. انقطعنا عن الاستماع للحكايات الساحرة لحسن هلال وسألنا هذا التلميذ الآخر كيف حدث ذلك. قال إن أخاه أرسل خطابًا للرئيس يطلب صورة، وبعد أسبوع حمل البريد الصورة إليه وعليها توقيع عبد الناصر. صورة جميلة الألوان للرئيس بالزي العسكري. لم نصدقه، وكعادة الأطفال طلبنا منه دليلًا على صدق كلامه، طلبنا منه الصورة لنراها. في اليوم التالي جاءنا كسيف الوجه، أقسم برحمة النبي أنه لا يكذب، لكن المشكلة أن

أخاه رفض إعطاءه الصورة لنراها؛ إذ وضعها في برواز صغير وعلقها على الحائط، ثم قال إن أخاه ينصحنا أن نرسل مثله خطابات لعبد الناصر فيرسل لنا صورًا، سألناه عن العنوان الذي يمكننا مراسلته، فقال حسن الذي هو موهوب في الحكايات إن المسألة لا تحتاج إلى عنوان، فلا يوجد إلا جمال عبد الناصر واحد، ولا يوجد ساعي بريد يمكنه أن يمنع خطابًا مرسلًا إليه.

في البيت، في اليوم نفسه، كتبت رسالة صغيرة إلى عبد الناصر، أطلب منه صورة للذكرى، عندما عرفت أمي أني سأرسل رسالة إلى الرئيس نظرت لي بفخر وفرح، وأعطاني أبي ثمن طابع البريد وهو يقول: «اكتب على المظروف: القاهرة، رئاسة الجمهورية، يصل ويسلم ليد الرئيس جمال عبد الناصر، هكذا يصل الخطاب».

1956

الإسكندرية عروس بالنهار، وبالليل عبد أسود غطيس؛ فكل المصابيح مطفأة، رغم دهانها باللون الأزرق، فالغارات لا تنقطع فوقها، لقد سرحونا من المدارس.. يا الله! هل نحن مجندون؟ لماذا إذن قفزت كلمة (سرحونا) وهي عندنا لا تقال إلا مرتبطة بالخروج من الجيش؟ على أي حال كانت إجازة نصف العام ذلك الوقت تسمى بـ(المسامحة الصغيرة) وكانت إجازة الصيف تسمى بـ(المسامحة الكبيرة)، المدارس إذن كانت سخرة أو أشبه بها، من هو الشيطان الذي أطلق ذلك التعبير على الإجازة الدراسية

ذلك الوقت ليوحي بأن التعليم سخرة، رغم أن المدارس كانت أجمل الأشياء. ربماكان ذلك مما هو موروث من قبل الثورة، هل فطن أحد الباحثين إلى دراسة مصطلحات ومسميات ذلك العصر وعلاقتها بالفكر الاستعماري.

سرحونا من المدارس كما قلت لأن إسرائيل هاجمت سيناء والمظلات الإنجليزية والفرنسية نزلت على أرض بورسعيد، مشينا في الشوارع نهتف بسقوط إيدن وموليه وبن جوريون، وصنعنا لهم دمى قبيحة، وبقية اليوم، بالنهار بالذات، كنا نجتمع حول رجال الجيش والحرس الوطني وهم يطلقون قذائفهم على الطائرات القليلة التي كانت تُغِير على المدينة نهارًا. كان منظر الطائرة مدهشًا، فالجوخريفي بارد، والسحب لا تنقطع عن سماء المدينة، وكنا نحب السحب البيضاء لأن الطائرة وهي تختفي فوقها كانت تظل ظاهرة ونزداد دهشة ولا نصدق أنها أفلتت من قنابل المدفعية المضادة، ونأسف لأنها سقطت في مكان بعيد لا يمكن أن نذهب إليه لنتفرج على حطامها.

بالليل لم يكن أهلنا يتركونا نتجمع حول رجال الجيش الذين وضعوا مدافعهم فوق المنازل العالية. كنا نتجمع في الأدوار السفلية أو في الشارع أمام البيوت حيث تنطلق صفارات الإنذار، ويبدأ الضرب فيدخل كل منا نحن الصغار إلى أقرب حضن كبير يجاوره. أسمع تمتمة أبي بالدعاء وتلاوة القرآن. تنتهي الغارة،

وينقطع صوت المدافع وتختفي الشرائط الفوسفورية التي يسميها الكبار بـ(الفوانيس) التي تلقيها الطائرات لتضيء المدينة، وترتفع الصيحات تشكر الله لأن (الطوربيدات) التي ألقتها الطائرات سقطت بعيدًا عنا في الخَلاء الواسع. ويتصل الحوار في اليوم التالي بين أبي والجيران، جميعًا كانوا بسطاء. يقول أحدهم إن العرب ثمانون مليونًا ولا يمكن أن يتركونا وإننا سننتصر. يقول آخر لقد بكى عبد الناصر في الأزهر وأعلن أننا سنقاتل حتى آخر قطرة من الدم. رجل ابن رجل. ويقول ثالث إن اليمن سيحارب معنا واليمن لم ينهزم أبدًا، عرفت فيما بعد طبعًا أن اليمن في ذلك الوقت كان يعيش في العصور الوسطى شمالًا ومحتل جنوبًا من الإنجليز. ويقول رابع إن الجزائر تدخل المعركة معنا، وإن جيشًا كبيرًا من المتطوعين سيأتي إلى مصر. عرفت بعد ذلك أيضًا أن الجزائر كانت تناضل ضد الاستعمار الفرنسي، وأن أحد أسباب العدوان الثلاثي هومساعدتنا لثوار الجزائر. على أي حال كانت كل هذه المعلومات الخاطئة تبعث على الشجاعة والأمل بشكل عجيب. كنت أتسلل في الظلام بعد الغارة أو أحيانًا خلالها لأصل إلى البرواز الصغير الذي وضعت فيه صورة جمال عبد الناصر بالزي العسكري، تلك الصورة التي أرسلها لي بعد أن أرسلت رسالتي إليه منذ عام ومازلت أحتفظ بها. أنظر إلى الصورة وأشعر أنه شجاع ورجل حقيقي، وأكاد أجزم بذلك رغم أنه كان في الصورة يبتسم ابتسامة عريضة لا تدل إلا على السماحة والرضا.

لقد وصلتني الصورة بعد أسبوع واحد من طلبي لها، وجريت بها في المدرسة بعد أن أطلعت زملائي عليها. لم أسمح لأحد أن يمسها فجروا ورائي يحاولون خطفها أو رؤيتها على مهل. وكان كل تلميذ يسأل عن سبب المطاردة ويعرفه ويطاردني مع المطاردين. اقتنع الزملاء بصدق كلام زميلنا الأول، أرسلوا جميعًا يطلبون صورًا لعبد الناصر، الذي حدث أن البريد لم ينقطع عن الوصول إلى المدرسة حاملًا صور عبد الناصر للطلاب الصغار. هكذا حتى نهاية العام. لم ينقطع بعد ذلك أيضًا حتى انتقلنا عام 1958 إلى المرحلة الإعدادية وتركنا مدرسة القباري الابتدائية. لم أعد أعرف ما إذا كان الطلاب الجدد في المدرسة الابتدائية لا يزالون يرسلون لعبد الناصر يطلبون صورة أم لا. والذي حدث أننا نحن الطلاب الصغار السابقين أصبحنا كبارًا الآن، وحين كانت تذكر سيرة الصورة كنا نضحك. لقد فعلنا ذلك منذ سنوات وجاءتنا صورة جميلة للرئيس بالبدلة العسكرية وبالألوان وليس بالبدلة العادية كما يحدث هذه الأيام.

1962

في هذا الشهر، أكتوبر من ذلك العام 1962 كان عليَّ أن أرسل خطابًا آخر إلى جمال عبد الناصر. لكني لم أطلب صورة هذه المرة. كنا الأسرة نعرف تاريخ ميلاد أبي، وأنه في هذا الشهر سيحال إلى التقاعد من عمله في هيئة السكك الحديد المصرية، وكنت أنا، قد

أعددت الأمر لذلك منذ عام؛ إذ التحقت بالمدرسة الثانوية الفنية في العام السابق مباشرة، حتى أختصر طريق التعليم الذي لم يكن قد صار مجانيًّا بعد. التحقت في العام السابق، عام 1961 بمدرسة الإسكندرية الثانوية الفنية بمحرم بك وكنا أول تلاميذها فقد كانت جديدة، وبقسم الكهرباء حيث جرت العادة أن يلتحق الطلبة الحاصلون على مجموع كبير في الشهادة الإعدادية، وفي ذلك الوقت بالذات بدأت أعراض الكتابة تظهر عليَّ، فانكببت أؤلف قصصًا رومانسية ساذجة دون أن أعرف شيئًا عن هذا الفن الساحر. وفي ذلك العام نفسه أعلن عبد الناصر تخفيض المصروفات التعليمية إلى النصف، فلم أندم على اختياري التعليم الفني - الذي لم أحبه قط - لأني كنت أعرف موعد إحالة أبي على التقاعد في العام القادم.

كان عام 1961 هو عام التأميم الشهير وعام أغنية عبد الوهاب (دقت ساعة العمل الثوري) وعام انفصال الإقليم الشمالي - سوريا - عن الجمهورية العربية المتحدة. ولقد حدث الانفصال قبل دخولنا المدارس، فكأن أول يوم دراسي مكرسًا للمظاهرات التي تندد بالانفصال وقادة الانفصال. لم ندخل المدرسة إذن ورحنا ندور في شوارع الإسكندرية نهتف بسقوط قادة الانفصال، وكنت اشتريت جريدة (الأخبار)، وفكرت فجأة وأنا وسط المظاهرات أن أدخل السينما أنا وعدد من زملائي. أعدت الجريدة لأحد الباعة

فأعطاني قرشًا واحدًا وخصم لنفسه نصف ثمنها ووضعت القرش على القرشين الآخرين اللذين معي ودخلت السينما، كان ذلك شيئًا سيئًا بالتأكيد لكني لا أدعي أني فعلته إيمانًا بأي شيء، لم يكن له أي سبب سياسي، ومن ثم لم أشعر بأي لوم على انفصالي عن المظاهرة التي تندد بالانفصال. فقط أحببت أن أشاهد فيلمًا جديدًا لـ(ستيف ريفز) من سلسلة أفلام هرقل الشهيرة.

في العام التالي 1962، قرر جمال عبد الناصر إلغاء كل المصروفات بكل مراحل التعليم. ولم أندم مرة أخرى على اختيار التعليم الفني الذي لم أحبه أبدًا لأني كنت أعرف أنه في هذا العام سيحال أبي للتقاعد وسيكون عليَّ استلام أعباء العائلة. ولقد حدث ما هو أبشع مما انتظرت أسرتنا. كان المتبع في ذلك الوقت أن يحصل المحالون على التقاعد على مكافأة نهاية خدمة مجزية، وكان أبي قدَّر لنفسه خمسمئة جنيه، وكان مبلغًا كبيرًا جدا في ذلك الوقت، لكن فجأة تم تطبيق نظام التأمين الاجتماعي على جميع العاملين بالدولة. حدث ذلك في عام 1961 ولم يعد من حق أبي مكافأة نهاية خدمة. ولأن رصيده في التأمين لا يزيد هكذا عن عام واحد فلم يكن يستحق إلا الحد الأدنى للمعاش وهو ثلاثة جنيهات وثلاثون قرشًا. أصاب أبي الصمت الممض، وانحفر الحزن على وجهه وخفنا أن يموت، لكن أنا المراهق المتفائل قلت له ألا ييأس. وكتبت خطابًا لوزيرة الشؤون الاجتماعية د. حكمت أبوزيد أول

وزيرة مصرية، طلبت منها أن تصحح هذا الظلم الذي تسبب فيه تطبيق القانون دون اعتبار لمن سيحالون إلى التقاعد دون أن يكون لهم رصيد من السنوات كاف لمعاش حقيقي. ثم لم أنتظر ردًا من الوزيرة التي لم ترد بعد ذلك، وفكرت على الفور في جمال عبد الناصر، فجلست وكتبت خطابًا مطولًا ضمنته أبياتًا من الشعر ترقق القلوب وصغته على طريقة المنفلوطي. أي والله العظيم. يا له من وقت.

يوليو شهر الإسكندرية

لا يمكن أن أتصور أنه يمكن لمدينة في الدنيا أن تزدان بالزينات والفرح مثل الإسكندرية في يوليو من كل عام. من الإسكندرية غادر الملك فاروق البلاد. من الإسكندرية أعلن عبد الناصر قرار تأميم القناة، وفي الإسكندرية قضى جمال عبد الناصر شطرًا كبيرًا من حياته، وفي مدرسة رأس التين الثانوية تلقى تعليمه الثانوي. لقد اختيرت هذه المدرسة دون غيرها من مدارس الإسكندرية بعد وفاة عبد الناصر ليتم تغيير اسمها فأصبحت مدرسة السادات الثانوية. كنا في يوليو، كانت الزينات تملأ فضاء المدينة وخاصة شارعيها الرئيسيين: طريق الحرية والكورنيش. ومنذ الثالث والعشرين من الشهر تنطلق في سمائها صورايخ الألوان بالليل وطلقات المدافع المبتهجة بالنهار من طوابي المكس وقايتباي وسيدي بشر ومن السفن الحربية الراسية بالميناء الشرقي. ومنذ

الصباح الباكر ليوم السادس والعشرين من تموز (يوليو) يخرج الناس من أحيائهم الفقيرة في كرموز وغيط العنب وراغب وغربال ومحرم بك والقباري والعطارين متجهين مشيًا وفي المواصلات على الكورنيش ليحتشدوا على الجانبين حيث سيأتي عبد الناصر من القاهرة في قطار يغادره في محطة المنتزه ثم يستقل سيارته المكشوفة إلى قصر رأس التين الشهير.

كان في وجوه الشباب والفتيات والنساء والرجال والأطفال وفي عيونهم مزيج من العزة والفخر والطمأنينة أيضًا، وكنت أفكر بسعادة كيف رأيت عبد الناصر على بعد مترين فقط ودون زحام وكيف رفع يده بالتحية لي وحدي أنا ولقد حدث ذلك في أواخر الخمسينيات.

كان بيتنا في المنطقة الواقعة بين كرموز وكوبري كفر عشري حيث تمتد أمامه ترعة المحمودية وشارع قنال المحمودية، وخلفه اتساع من الخلاء المشغول بخطوط السكك الحديدية المتجهة إلى الميناء أو الصحراء الغربية. وحدث أن زار الرئيس اليوغوسلافي تيتو مصر، وكان تيتو يأتي عادة بطريق البحر، كان في استقباله جمال عبد الناصر واستقلا مع رجالهما قطارًا خاصًا من ميناء الإسكندرية إلى القاهرة. كان لابد لهذا القطار أن يمر خلف بيتنا والبيوت القليلة التي تجاوره. وقف الرجال والنساء فوق الأسطح وتسللت مع اثنين من أصحابي لنقف أمام شريط السكة الحديد الذي سيمر عليه

القطار بحيث لا نبتعد عنه أكثر من مترين.. لم يكن هناك أحد يفكر في أمر هذه البيوت القليلة ومن ثم لم تكن هناك حراسة من أي نوع. اقترب القطار فارتفع التصفيق والزغاريد من فوق الأسطح مما لفت انتباه عبد الناصر الذي كان يقف مع تيتو في النصف المكشوف من العربة. وما كاد يبتعد عن التصفيق والهتاف ويعود للانشغال مع من معه حتى سمعنا نحن الثلاثة نهتف (عاش جمال عبد الناصر). لا أنسى التفاته إلينا بدهشة، ولا أنسى ألق عينه وهو يبتسم متعجبًا من هؤلاء الصبية الذين كنت أكثرهم طولًا، ورفع لنا ذراعه ليحيينا. وعرفت من حوله تيتو وعبد الحكيم عامر وزكريا محيي الدين. لم يغادرني الشعور بالسعادة في أية مناسبة يزور فيها عبد الناصر الإسكندرية، ذلك أني لم أستطع أن أراه عن هذا القرب بعد ذلك إلا في التلفزيون.

أتذكر الآن كيف أجمع المؤرخون على أن الإسكندرية في العهد البطلمي اتسعت وازدادت وبلغ عدد سكانها ثلاثمئة ألف ومثلهم من العبيد. لكن أهل الإسكندرية لم يكن لهم غير إقامة مباريات مصارعة الديكة واللهو وتأليف الأشعار التي تتهكم على الحكام، فابتلاهم الزمن بملوك وأمراء ساموهم الخسف، حتى وصل تعداد السكان إلى ثمانية آلاف قبل الحملة الفرنسية على مصر بقليل، وكادت المدينة تتحول إلى خراب تام.. ولا يزال في أهل الإسكندرية طبع التهكم على الحكام حتى الآن، وإن اختفت

منها أسواق مصارعة الديكة. وآخر من رأيته يمارس هذه الهواية، جار لنا في الخمسينيات، لعله سليل العبيد، ربما أو البطالمة. ولا أظن أنه ظل في الإسكندرية الآن أحد على هذه الهواية. ولا بد أن أهل الإسكندرية قد قطعوا عهدًا سريًّا مع عبد الناصر على المحبة. كانت المدينة كلها تهرع إلى لقائه وتفرح بقدومه ولم يحدث ذلك مع أحد بعده.

يونيو 1967

في عام 1964 انتهيت من الدراسة الفنية والتحقت بمشروع الترسانة البحري، أحد مشروعات الثورة الجبارة في الإسكندرية. التقطني رجل كان يعمل مع مقاول يوناني في التركيبات الكهربائية للمشروع. كان من كوادر الحركة الشيوعية الذين انقطعوا عن الحياة السياسية سرية وعلنية. اندهش لثقافتي الأدبية ففتح لي طريق القراءة في الماركسية وأغراني بالالتحاق بتنظيم الثورة الجديد منظمة الشباب - فأصبحت - بسرعة زعيمًا بارزًا للشباب بالإسكندرية بشكل عام وبالترسانة البحرية بشكل خاص. كان العاملون بالمشروع جميعًا تقريبًا من الشباب المتخرج حديثًا من المدارس الثانوية الفنية والجامعات وكنت زعيمهم الذي يجعلهم برضا يمضون أيام الإجازات للعمل بالمشروع. صرت متحمسًا لتجربة الثورة ولعبد الناصر متفهمًا لكل أفكاره المطروحة في ميثاق العمل الوطني مدافعًا عنها بالحجة القوية والعزم. وجعلني إيماني

الناصري هذا لا أصدق أن في مصر رقابة من أي نوع أو معتقلات من أي نوع أو مصادرة للرأي. لم أكن مخطئًا فقد خرج الشيوعيون من المعتقلات في الوقت الذي تخرجت أنا فيه من المدرسة الفنية، والتحقوا بمؤسسات الدولة الثقافية والإعلامية في الوقت الذي التحقت فيه بمؤسسات الدولة الصناعية، وقبل ذلك كنت في سن لا تؤهلني لمعرفة شيء. ووقعت هزيمة حزيران(يونيو) فأصبحت أنا أمام كل العاملين في الترسانة المسؤول الوحيد. كل اللوم الذي أرادوا أن يوجهوه لعبد الناصر صبوه على رأسي أنا المدافع العظيم عن الثورة والناصرية حتى كرهت العمل والذهاب إلى العمل. بالإضافة إلى حزني الخاص بما جرى. وحدث أن رئيس مجلس إدارة الشركة قرر وحده أن يتبرع العاملون في المشروع بقيمة العلاوة السنوية من أجل المجهود الحربي - كانت جنيهًا ونصفًا للمؤهلات المتوسطة وثلاثة جنيهات للمؤهلات العليا - ويستمر هذا التبرع حتى إزالة آثار العدوان. كان كل الناس في مصر يفعلون ذلك أو ما شابه، وإذا بي أنتفض وأرفض. بل إننا أرسلنا ما يزيد على الألفي برقية رفض لعبد الناصر شخصيًّا في يوم واحد. حدث ارتباك شديد بالشركة، وأرسلت لنا وزارة الصناعة شخصية كبيرة لتناقشنا في المسألة وحدث اجتماع كبير بالشركة فوقفت أنا وسط تصفيق العمال أقول إن على الذين تسببوا في النكسة أن يتبرعوا بأموالهم لإزالتها. وانتهى الأمر إلى رفض الفكرة وانتصرنا، ولم نتعرض إلى اعتقال من أي نوع ولا إلى أية مساءلة أمنية. لماذا

حقًا فعلت ذلك وأنا لم يختل إيماني بثورة يوليو رغم الهزيمة؟ بل وسأعود بعد ذلك إلى المساهمة السياسية في إطار الناصرية نفسها حتى موت عبد الناصر. لم أجد تفسيرًا مقنعًا لهذه الحركة المضادة التي تزعمتها.

إنني أعترف أنها كانت شيئًا سخيفًا متسرعًا، ولم يكن أبدًا لوم العمال لي على وقوع الهزيمة سببًا كافيًا، ولا بالطبع عدم رد عبد الناصر على خطابي القديم الذي أرسلته إليه عام 1962 بشأن معاش أبي لأني كنت قد اشتغلت بمشروعات الثورة واعتدل حال الأسرة. على أي حال أصبحت تلك الأيام تاريخًا قديمًا الآن. ولم يبق لي شيء أتحدث فيه عني وعن الزعيم الخالد إلا أمرًا واحدًا، لقد عرفت مبكرًا جدًا وقبل غيري أنه سيموت.

أدركت بعد الهزيمة أن ما سيأتي من أيام سيكون مصبوغًا كله بطعمها، رغم أني لم أستطع الابتعاد عن العمل السياسي في تنظيمات الثورة، إلا أني أحسست برغبة هادئة في الانسحاب، تذكرت مشروعي الذي كنت قد أعددت له نفسي يومًا - الأدب وكتابة القصة - وتذكرت أني أكره العمل الفني ولم أحبه قط وقررت الحصول على الثانوية العامة والالتحاق بالجامعة، وبكلية الآداب بالتحديد. وسيحدث ذلك في السنوات التالية للهزيمة، لكني كنت كلما ابتعدت عن العمل السياسي انشددت إليه، كان هناك أمل في أننا نستطيع أن نمحو عار النكسة ولكني صرت مذبذبًا بين الطريقين

ثم استطعت أن أجمع بينهما حتى موت عبد الناصر فاخترت طريق العلم بحسم وطريق السياسة لكن من جانب آخر، جانب الدفاع عن منجزات الثورة وأهدافها ضد سياسة السادات. طول الفترة من تموز (يوليو) 1967 حتى أيلول(سبتمبر) عام 1970، كان لدي يقين بموت الزعيم، كيف حدث ذلك؟

يوليو 1967

في الثالث والعشرين من هذا الشهر خطب عبد الناصر كعادته، لم تكن هناك احتفالات في أي مكان ولا فرح، ويستحق المكان الذي رأيت واستمعت فيه إلى خطبته أن أقف عنده قليلًا.

يعرف سكان حي الورديان بالإسكندرية أشهر مقهى فيه وهو (مقهى خفاجة)، مقهى كبير واسع يمتد أمامه شارع المكس الذي ترمح فيه الأتوبيسات ويمشي فيه بتؤدة الترام ويقع على ناصية شارع عريض مما يجعله يحتل مكانًا جاذبًا في ليالي الصيف، وصاحب المقهى الذي يحمل المقهى اسمه مصارع قديم اعتزل هذه الرياضة وراح يجلس بالمقهى صامتًا دائمًا بشوشًا، ينظر إليه الزبائن بكل احترام وتقدير. وكان طبيعيًا لي بعد أن التحقت بالعمل بالترسانة القريبة جدًا من المقهى أن أصبح من رواده مع عدد من زملائي. صاحب المقهى لم يكتفِ بالمكان، كانت هناك على الناحية المقابلة من شارع المكس حديقة صغيرة مهملة لا يجلس بها أحد، فجأة انتصب تمثال نصفي لجمال عبد الناصر على قاعدة

خرسانية، ثم ظهرت فيها مقاعد ومناضد وأصبحت تابعة للمقهى. حدث ذلك قبل النكسة بعامين. قال الناس إن المعلم خفاجة استطاع بهذا التمثال الذي أقامه لعبد الناصر أن يفوز من المحافظة بحق استغلال الحديقة.

في هذه الحديقة كان صاحب المقهى يضع تلفزيونًا لزبائنه، وفيها تجمع الناس، يستمعون لخطبة عبد الناصر، في الثالث والعشرين من يوليو عام 1967. وفيها أيضًا استمعت لكل خطبه التالية لذلك تقريبًا؛ لقرب المقهى من عملي بالترسانة. لكن تلك الخطبة هي التي تهمني شخصيًّا. فيها أعلن عبد الناصر أن فرصة العدو في عبور قناة السويس قد تلاشت وتنفس الناس، وفيها أعلن أن ما أُخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة. لكنني لم أنتبه لبقية الكلام، ركزت عيني على وجهه، كان قطعة من الحزن، أكثر مما كان يوم خطاب التنحي، كان يتكلم ويشيح بيده بلا مناسبة، وينظر دائمًا بعيدًا عن الكاميرا، عنا نحن الجمهور. بدا لي أن الرجل يدخل في الزوال وأيقنت أنه لن يطول الوقت حتى يموت، ولم تفاجئني الأمراض التي ظهرت عليه بعد ذلك. كنت أنتظر أن أسمع خبر الموت في أية لحظة، وكنت مهيئًا لتقبله، هكذا خيل لي وهكذا كانت الحقيقة.

سبتمبر 1970

في آذار (مارس) 1968، ألقى عبد الناصر بيانه الشهير، بيان 30 مارس الذي كان فيه يكرر جملة (الشعب يريد وأنا معه)

والذي وضع فيه برنامجًا جديدًا للعمل السياسي في تنظيم الاتحاد الاشتراكي الشهير. وتجمع حولي شباب الشركة يريدونني أن أشارك فيما كان يسمى (لجنة الوحدة الأساسية) ذلك الوقت. ودفعني التردد إلى أن أوافق!! وأصبحت عضوًا في لجنة قسم الميناء كله، وكانت بيني وبين المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي خطوة واحدة هي أن أوافق على أن يتم اختيار المرشحين من شركات قسم الميناء بالتزكية لا الانتخابات. كان فيها لواءات جيش وبوليس كبار، ولكنني رفضت وصممت على أن تتم الانتخابات بالشكل العادي، وأن تكون فرصة لكل من يريد حتى لو كان حمّالًا في الميناء، وحاولوا إسكاتي بإغرائي أن أكون عضوًا في المؤتمر القومي الذي منه يتم اختيار اللجنة المركزية لكني رفضت أن أكون عضوًا في أي مستوى من المستويات السياسية إلا بالانتخاب. كان عمري يقترب من واحد وعشرين عامًا، وقيل عني أهوج لكني أفسدت عليهم كل شيء، فأفسدوا عليَّ طريق النجاح إلى المؤتمر القومي.

ظللت في لجنة القسم، ولم يضايقني ذلك لأن الانتخابات لم تسمح بنجاح من أرادوا الفوز بالتزكية كلهم، بل بنجاح بعضهم. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى لم يكن لديَّ الوقت الكافي للعمل السياسي. كنت أذاكر للثانوية العامة وأعد نفسي لدخول الجامعة فوجدت أنه من الأفضل لي أن أرشح نفسي في نقابة العمال حيث إن العمل النقابي أبسط ومفيد للعمال، واكتشفت بعد ذلك أنه لا معنى لهذا الترشيح أيضًا، فرغم فوزي في الانتخابات اكتشفت

أنه لا عمل لي لأن كل ما يريده العمال تحققه الشركة بهدوء في مشروع كبير واسع الإمكانيات. ثم إن النقابات العمالية تابعة للدولة وليست مستقلة. لكن هذا الترشيح كان سببًا في أني، فقط، عرفت بموت عبد الناصر بعيدًا عن الإسكندرية.

كنا في حلوان في القاهرة، نحضر دورة ثقافية على مستوى القطر لعدد من القيادات النقابية، وكنت التحقت بكلية الآداب حلمي القديم ونشرت أول قصصي القصيرة عام 1969 على صفحة كاملة بالملحق الأدبي بجريدة (الأخبار)، وكان رئيس مجلس إدارة الشركة ذلك الوقت هو الدكتور أحمد عفت الذي سيصبح وزيرًا للنقل البحري. وهو غير رئيس مجلس الإدارة السابق الذي كان موجودا عام 1967.

كان الدكتور أحمد عفت رجلًا نابهًا معروفًا في أكاديميات العالم البحرية، وكان يعرف قدر المثقفين، فكان يفسح لي دائما مكانًا في الحوار معه في أمور العمل، وكان سعيدًا بوجود أديب في الشركة فما كاد يعرف بأمر القصة حتى أخذها ووضعها في لوحة الشرف على باب الشركة وصرف لي مكافأة سخية، خمسين جنيهًا كاملة، وعندما ذهبت إلى الدورة التثقيفية في حلوان، جاء وزارني وأعلن وسط الحاضرين أن هذا الشاب الناحل - الذي هو أنا في ذلك الوقت - ليس نقابيًّا فقط ولكنه أيضًا أديب واعد، فأصبحت فجأة محل رعاية الجميع. كانت الدورة التثقيفية هذه في فندق صغير هادئ اسمه فندق (جلانز) سيتم هدمه بعد ذلك

في عصر السادات لا أعرف لماذا. وقبل نهاية الدورة بيومين، وكنا نتجمع حول التلفزيون في المساء، انقطع الإرسال وظهر وجه السادات جامدًا ليعلن موت عبد الناصر ويتلو الآية الكريمة:
﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾.

نسيت أنني كنت أعرف أنه سيموت. جريت صارخًا في حديقة الفندق لا أدري أني أتخبط في الأشجار القصيرة والطويلة مما أصابني بجروح سطحية كثيرة في ذراعي ووجهي وعنقي ولكن لم أبكِ، واندفع الناس في الشوارع.

أخذت طريقي إلى محطة المترو، ومن باب اللوق مشيت وسط طوفانات الناس حتى محطة رمسيس، ونمت على أحد مقاعد المحطة حتى الصباح لأستقل القطار الذاهب إلى الإسكندرية. كان كل الناس يذهبون إلى القاهرة من كل القرى وكنت وعدد قليل جدًّا نستقل القطار الذاهب للإسكندرية. كانوا مثلي من نفس المدينة لا بد وربما جاءوا القاهرة في عمل سريع، وكانوا مثلي صامتين. وأنا لم أفكر في البقاء في القاهرة لحضور الجنازة، ووصلت إلى الإسكندرية لأجد الناس تطوف في الشوارع الحزينة تبكي، لكني لم أبكِ. لم أذرف دمعة واحدة، كنت قد بكيت كثيرًا كثيرًا منذ ثلاث سنوات عندما وصل الجيش الإسرائيلي إلى قناة السويس، وكنت أشعر بالخذلان. فرغم يقيني منذ عامين وأكثر بموت الزعيم، كنت أحب له البقاء. لكني كما قلت لم أبكِ. تركت السياسة من خلال

تنظيمات الدولة، والتحقت بالجامعة ونَمَت علاقتي بالماركسيين وظللت أردد جملة امرئ القيس «**ضيعني صغيرًا وحمّلني دمه كبيرًا**» وكان ما كان في عصر السادات.

***

كانت هذه التجربة والحياة في العهد الناصري وراء إحساسي بهزيمة 1967 ولابد كانت وراء إحساس صياد اليمام.

لقد حدث بيني وبين هذه الرواية (الصياد واليمام) جدل روحي كبير إذ كنت بدأت في رواية قصيرة أخرى هي (ليلة العشق والدم) كما قلت، لكن الصياد واليمام فرضت نفسها وتوقفت عن الأخرى. انتهيت من الصياد واليمام تقريبا في شهر واحد. كانت أسرع عمل كتبته. كان يجري بي على غير أي رواية كتبتها. ولم أعد كتابتها أبدا. قرأتها لأعيد كتابتها فلم تطلب ذلك. خرجت مثل جنين تأخر وضعه فانطلق من مكمنه! لم يتدخل عقلي إلا حين قررت أن تكون أحداث الماضي بالفعل المضارع في أكثرها. الصياد الذي يتذكرها يراها ونراها معه. هكذا فكرت بحثا عن الصورة. والبحث عن الصورة كان من هدي رواية (المسافات) فشمل الثلاثة. الصياد واليمام وليلة العشق والدم مع المسافات من قبل. لماذا إذن نشرت الصياد واليمام بعد ليلة العشق والدم؟ هذه حكاية غريبة ربما لم تحدث لأحد. على الأقل لم أقرأ أنها حدثت لأحد. كنت كلما أعطيتها مكتوبة على الآلة الكاتبة لناشر أذهب إليه في اليوم التالي معتذرا عن عدم نشرها. كنت أبحث عنها في غرفة مكتبي رغم أني

الذي أعطيتها للناشر فلا أجدها فأشعر أن روحي خرجت وراءها ولا يأتي الصباح إلا وأنا عند الناشر أطلب منه إعادتها لي ولا أجد تفسيرا الذلك أقوله له. كنت أشعر أن روحي خرجت معها من البيت. هل سيصدقني أي ناشر إذا قلت ذلك؟ استمر الحال على ذلك حتى عام 1984. كان غزو بيروت قد وقع عام 1982 وبعدها جاء الشاعر العظيم محمود درويش إلى مصر عام 1984 ليقيم أمسية شعرية في حزب التجمع الذي بعد أن قطعت علاقتي بالعمل السري في الحزب الشيوعي المصري انخرطت بعد تكوين الأحزاب فيه مدركا أن الأمر الآن يختلف. فأنا أستطيع الغياب أكثر من الحضور ثم أنه لا إلزام كبير في العمل وكذلك لا أحب أن أنقطع تماما عما يحدث حولي. المهم أني انقطعت عن الأيديولوجيا الجامدة. وسوف أترك طبعا هذا الحزب أيضا عام 1985 نهائيا. المهم جاء محمود درويش وفكرت أن أعطيه الرواية ينشرها في مجلة الكرمل التي كنت أسمع عنها لكنها كانت ممنوعة من الدخول إلى مصر بسبب الخلاف السياسي بين السادات والدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية بعد اتفاقية السلام مع إسرائيل. ورغم اغتيال السادات فلم تكن المجلات العربية قد سمح بعودتها بعد ومن ضمنها مجلة الكرمل. كانت الأمسية لمحمود درويش رائعة وفوق الخيال. وبعدها تقدمت إليه مقدما له نفسي. لم يكن مانشرته في مصر – رواية المسافات أو في الصيف السابع والستين أو ليلة العشق والدم – قد وصل إلى العالم العربي. وما نشرته من قصص قصيرة في المجلات العربية ليس كثيرا. وأخبرته برغبتي في نشر رواية في مجلة الكرمل.

لا أنسى محمود درويش العظيم وهو يبتسم ويقول الكرمل مرة واحدة! وأنا أبتسم صامتا. أعطاني موعدا في الصباح الباكر في فندق هيلتون رمسيس الذي كان مقيما فيه. وذهبت إليه فوجدته ينتظرني. أعطيته نسخة من رواية المسافات المنشورة من قبل ونسخة من ليلة العشق والدم المنشورة أيضا ونسخة غير منشورة طبعا من رواية الصياد واليمام. قال لي باللفظ: «أنا حيوان قراءة، سأقرأ روايتك الصياد واليمام في الطائرة، إذا أعجبتني ستنشر في العدد القادم وهو بالمناسبة أول عدد سيدخل مصر، وإذا لم تجدها في العدد لا تسألني عنها لأنها ستكون لم تعجبني». ثم سألني لماذا فكرت في الكرمل. حكيت له كيف أني كلما أعطيت الرواية لناشر شعرت أن روحي خرجت معها فأذهب في اليوم التالي لآخذها منه، أما الآن فأنت ستسافر ولن تكون هناك فرصة لي. نظر إليّ مندهشا لحظة ثم ضحك. وقال يبقى حتكون حلوة. وصافحته وانصرفت. مر شهران ورأيت على فرش الحاج مدبولي للكتب العدد الجديد الذي يدخل مصر لأول مرة من مجلة الكرمل. أظن أنه كان العدد الحادي عشر. أو الثاني عشر. لا أذكر. ضاعت مني أشياء كثيرة. ترددت لحظات في الانحناء لأتناول العدد من على فرش الكتب الذي كان وقتها على الرصيف أمام المحل، ثم انحنيت وأمسكت بالعدد وفتحته لأجد مقدمة العدد لمحمود درويش وبعده الرواية. الصياد واليمام. كان يوما فارقا في حياتي. وكان حبا بيني وبين درويش لم ينقطع. رحمك الله يامحمود يا أجمل خلق الله أجمعين. صار نشر الرواية في كتاب سهلا بعد ذلك. لقد خرجت من غرفتي ولم تخرج روحي معها!!

-3-

ليلة العشق والدم

هذه الرواية القصيرة شعرت بعد انتهائها أنني أصبحت قادرا وللمرة الثالثة بعد المسافات وصياد اليمام على أن أصل إلى ما أردت. وهو أن قيمة العمل الفني قد تكون في موضوعه حقا، لكنها في بناء الرواية ولغتها أكثر. وفي الروايات الثلاث ظهر لي أن المكان فاز بالبطولة. ومن ثم كانت اللغة والبناء تجليان للمكان كما هما تجليان للزمان. مكان هذه الرواية القصيرة سرادق عزاء يلتقي فيه ثلاثة أشخاص بعد عشرين سنة لأول مرة. أحدهم هو ابن المتوفى. وهو الذي فارق الإسكندرية ليعود من القاهرة يتقبل العزاء في أب لم يره منذ عهد بعيد. التفاصيل في الرواية لمن قرأها أو يريد. لكن لأن المكان هو سرادق عزاء والوقت محدود هو وقت العزاء كان طبيعيا أن أهجر الحكي العادي. السرد المتراتب المتعاقب. أن أنتقل مما يدور في ذهن كل من الثلاثة إلى ذهن الآخر دون توقف. دون فواصل. ليقف الماضي الذي فرق بين الجميع، ولنرى حاضر كل منهم وكيف تغيرت أقدارهم أو حياتهم.

الذي يربط بينهم هو المكان القديم – ترعة المحمودية والمعدية والفتاة الجميلة «وردة» ابنة صاحب المعدية التي تعمل عليها – والمكان الأخير – سرادق العزاء – و«وردة» ابنة صاحب المعدية التي تعبر بين شاطئي المحمودية بالناس ويهواها الجميع، صارت هي الجمال الذي يفارق قبح الواقع. هي الجمال الذي تركه البطل خلفه في الإسكندرية ولم ينسه لما جرى له من فشل وإحباط في محاولات الإمساك بالجمال في القاهرة. لكنها ماتت الآن وهو لا يعرف. ونعرف ذلك مما تنثره رأسا الاثنين الآخرين. دومة وحسن المعداوي. ويعرف ذلك البطل – فؤاد – وهو يترك السرادق الذي جرت فيه جريمة قتل دومة لحسن المعداوي. حسن المعداوي الذي صار عضوا بمجلس المدينة ودومة الذي ظل أجيرا كما هو. ويأخذ فؤاد المعدية إلى الشاطئ الآخر بعد الحادثة وهاربا من المكان فيجد فيها أخت وردة الصغرى التي تحمل جمالها نفسه رغم ما حولها من قبح. وبدون تفسير للرواية فما يهمني هو أنني لذت بهذا الشكل الذي جعل الرواية تتنقل بين رؤوسهم دون فواصل. المكان ضيق والوقت قصير لذلك كانت اللغة كلها صورا أكثر منها سرد عادي. لا أنسى الناقد والروائي الكبير علاء الديب حين كتب عنها وتوقف عند جملة «من الحلوى قطعتين تأخذ» أثارته الجملة وتركيبها. والحقيقة أنني أردت أن أصور لا أن أحكي. فالفتاة وردة حين تخرج من المعدية إلى المحل القريب تشتري الحلوى. الجملة العادية هي تأخذ قطعتين من الحلوى. لكن

الحقيقة أنها تضع القطعة فوق القطعة أو لا ثم تأخذها. تختار من الحلوى قطعتين وتأخذهما. الأخذ هوالفعل الأخير فلماذا أقدمه؟ والحقيقة أنني كنت أرى أيضا ما أكتبه! أردت أن يكون ذلك مصورا وليس محكيا فأنا أراها! وهكذا فعلت في لغة السرد كلها بقدر الإمكان أو بقدر الطاقة أو على الأقل حين تفرض عليّ الصورة نفسها. وهكذا أدركت أنني لم أبتعد عن لغة القص في الروايتين السابقتين، المسافات والصياد واليمام. وأدركت أن المكان والزمان هما من يحدد اللغة والبناء وتطور الشخصيات أكثر مما تحدده الأحداث. البطولة للمكان الذي هوقائم ويمضي الناس في الزمن. والزمان في الرواية يفرض طوله أو قصره ترهل السرد أو تسارعه. الآن أنا بعدت كثيرا عن السياسة والأيديولوجيا. فرحان بما أكتب. وتملكني الشعور باغتراب جميع الشخصيات. كلهم في الروايات الثلاث غير متوافقين مع ما حولهم. أدركت أن الاغتراب يمشي معي. كان فقط في حاجة إلى أن أزيح أي إحساس بالولاء لفكرة مسبقة مهما كانت. الفكرة السياسية. رغم أن الأحداث التي تبدو أسطورية أو عجائبية تتداخل فيما يحدث في الواقع من تطورات سياسية. وما رأيته فيها أو ما أحسسته منها أو ما أردت أن أقوله دون صراخ أو إدانة. وأحسست أنني انتهيت من الكتابة عن هذا الزمن. ولم أكن أدري أني سأعود إليه مرتين أخريين. مرة ضاحكا ساخرا في رواية بيت الياسمين، ومرة ضائعا في روايتي البلدة الأخرى. في الحياة كان عليّ مثل أكثر أبناء جيلي أن أسافر إلى أي بلد عربي

لأعـود بالمال الذي يكفي أن تكون لي شـقة في القاهرة وأنتهي من سـكن الشـقق المفروشـة مع غيري. أن تكون لي زوجـة وأن يكون لـي بيت يعنـي أن يكون لي وطن. بيت يعني هـوم وهوم يعني وطن وهومليس يعني بائسًـا! مقال كتبته أكثر من مرة فيما بعد. كان يمكن أن أسـافر إلى سـوريا أو ليبيا أو العراق مثـل الكثيرين فهذه دول في خـلاف مع مصر والكثيرون سـافروا إليها. لكني اخترت السـعودية لأبعد عن السياسـة. تركت الحزب الشـيوعي السري فكيف أذهب للعمل بالسياسـة هناك. سـافرت إلى المملكة السـعودية عام 1978 مـدركا أيضـا أنني قد أكتب يوما عـن التجربة. لكـن الهدف كان أن أعود بما يكفي من مال لإيجار شـقة وليس شـراؤها لذلك لـم أكمل العـام وعدت. كنت في مدينة تبـوك الصغيرة ذلك الوقت وهناك لم أكتـب روايـة ولم أكمـل رواية المسـافات ولـم أكتب قصـة قصيرة. رحت أكتب بعض مقالات أنشرها في مجلة اليمامة والفيصل لأزيد دخلي وأعود بسرعة. ورحت أيضا أعطي دروسا خصوصية لبعض التلاميذ السـعوديين. لأزيد دخلي كذلك وأعود بسـرعة! أحسست أنـي في سـجن كبيـر. عدت بعد أحد عشـر شـهرا لأؤجر شـقة في إمبابـة وأعيـش فيها مع زوجتـي وابني المولود. صار العالم متسـعا حولي. بيتي وحدي مع أسـرتي. هل هناك أجمل من ذلك. وعدت إلى نشاطي. أنهيت المسـافات والصياد واليمام وليلة العشق والدم وقليـلا من القصـص القصيـرة. كان يمكـن أن يعيدني مـا رأيته في السعودية إلى السياسـة من جديد. لكنه وطّن الإحساس بالاغتراب

فـي روحي أكثر من أي وقـت. وألحت عليَّ رواية (البلدة الأخرى) أن أكتبهـا. لكن الذي حدث أنه في اليوم الذي وضعت فيه الكراس أمامـي لأبـدأ في كتابة الرواية وجدت نفسـي أكتب فـي رواية (بيت الياسمين) كيف حدث ذلك؟

-4-
«بيت الياسمين» تقفز

فكرت مرة وأنا في السعودية أن أكتب رواية، قفزت فكرتها إلى روحي، بسبب رسائل كانت تأتيني من صديق أيام العمل في الترسانة البحرية بالورديان بالإسكندرية. كنت توقفت عن الكتابة في رواية المسافات كما قلت. وفكرت بعيدا أن أكتب رواية عن الترسانة البحرية. ظهرت الترسانة من قبل في روايتي (في الصيف السابع والستين) فالأبطال يعملون بها. وأثناء الحرب كانوا يقومون على الدفاع المدني في الشركة. ومن موقعهم نهارا أو ليلا في الشركة تجري الأحداث أو يتذكرونها. لكن الشركة نفسها لم تظهر كمكان أساسي. كانت الحرب هي الشاغل لي ولم يكن أثر المكان. المكان هنا حاويا وليس فاعلا. الهم السياسي يتصدر الرواية. ولأني عاصرت بناء شركة الترسانة منذ وقت مبكر فكرت أن أكتب عملا عن عظمة الإنسان الذي يبني مصنعا كبيرا. خاصة أن هذا المصنع بني فوق مياه البحر بعد ردمها. ولقد تم تعييني به في مارس عام 1965 بعد حصولي على دبلوم الصنائع بعدة شهور

عملت فيها في إدارة النقل ثلاثة أشهر ثم تركتها للترسانة التي كانت الرواتب فيها أعلى. كان مرتب المؤهل المتوسط ذلك الوقت اثني عشر جنيها وفي الترسانة بشكل خاص خمسة عشر جنيها. وثلاثة جنيهات ليست بالقليل يا عزيزي ذلك الوقت. رأيت كيف كان يتم ردم البحر وكيف كانت تتم إقامة الورش وتركيب الماكينات والآلات الضخمة. وعملت في ذلك في البداية رغم أن تخصصي كان الكهرباء. لم يكن هناك التزام بالتخصص في العمل. كنا نعمل كعمال وكفنيين معا. نحن نبني مشروعا مجيدا وسط وطن يحقق الاستقلال الاقتصادي والحياة الاجتماعية الكريمة.

تستحق قصة شركة ترسانة الإسكندرية البحرية أن تروى، هكذا قلت لنفسي. فهي ليست قصة عادية لشركة بل هي في أقرب لمعنى قصة أمة ووطن!! وهي بالنسبة لي، ولا تزال، السنوات الأجمل في عمري، ففيها استقبلت أول عمل حقيقي، وفيها قمت بالتدريس لأعداد كبيرة من طلاب مركز تدريب الشركة، وفيها حملت لوحة الشرف للشركة أول قصة قصيرة نشرت لي، وفيها عرفت علقم هزيمة 1967، وفيها وفيها وفيها حدثت أشياء كثيرة لي وللوطن والأخير هو الذي يهمني دائما.

لقد بدأ العمل في المشروع مع بداية الخطة الخمسية الأولى عام 1961. دراسات واستعدادات وتحديد المكان في المنطقة الممتدة من حي «المفروزة» حتى باب الجمرك رقم 45 في الورديان. منطقة

أمامها البحر ليس فيها من عمران غير مدرسة الورديان الثانوية ومعهد أزهري صغير وحوض جاف لإصلاح السفن الصغيرة يتبع الشركة الخديوية. بدأ المشروع بردم البحر ونقل المعهد الأزهري ومدرسة الورديان التي أُحتفظ بمبناها الجميل ليكون مقر الإدارة المؤقت لمشروع الشركة.. وظهرت فوق السور الذي بني حول المشروع لافتة تحمل اسم المشروع لأول مرة وعشرات اللافتات الأخرى لشركات البناء التي تقوم بإنجازه.

في ذلك الوقت كنت حصلت على الشهادة الإعدادية ولم يكن عبد الناصر قد أعلن عن مجانية التعليم بعد كما قلت في حديثي عن عبد الناصر فأخذت طريقي حزينا بحق – لأن حلم حياتي كان دخول الجامعة وكلية الآداب على وجه الخصوص – إلى مدرسة إسكندرية الصناعية الجديدة الفخمة التي بنتها الثورة جنوبي محرم بك لأكون ضمن أول فوج يدخلها – الغريب أن ذلك حدث لنصر حامد أبو زيد في السنة نفسها لكن في مكان آخر ودون اتفاق ولا معرفة ذلك الوقت ونجح كلانا في دخول الجامعه والكلية ذاتها هوفي القاهرة وأنا في الإسكندرية. ولقد عرفت أنه بكى يوم دخوله الجامعة كذلك فعلت لكن الفن أنقذني من أن أرى الجامعات وهي تنهار كما رآها هو – نعود إلى الترسانة التي التحقت بالعمل فيها فور تخرجي في المدرسة الصناعية، وكان رقم تعييني (532). أي كنت من أوائل العاملين فيها. لقد تم ردم البحر وبنيت هياكل

الورش وبدأ تعيين الفنيين يجري على قدم وساق لتركيب الآلات والمعدات، وقابلت الخبراء السوفييت لأول مرة وعرفت شيئامن اللغة الروسية ذلك الوقت. كان منوطا بي أنا وستة فنيين يقودنا مهندس لا أنساه هو المهندس أحمد عبد السميع وخبير سوفييتي، أن نقوم بتركيب ماكينات وآلات الورشة الرئيسية للترسانة، وهي ورشة جديرة باسمها حقا فهي وحدها تقع على مساحة أربعة أفدنة من خمسة وعشرين فدانا هي جملة المشروع وهي هكذا أكبر الورش. فيها ماكينات تشكيل بدن السفينة على الأرض وفي سقفها الجملوني تتدلى الأوناش المغناطيسية التي تنقل ألواح الصاج الضخمة لتضعها على الآلات الجبارة لتشكيلها. كان حولنا الكثير من الورش الأخرى يتم تجهيزها بالآلات، ورش الخراطة والحدادة والبرادة ومحطات الكهرباء ومحطات للغازات وورشة للسباكة فضلا عن بناء وتجهيز «قزق» صغير شرقي الشركة فوقه سيتم بناء السفن الصغيرة أو إصلاحها وبناء «قزق» كبير غربي الشركة لبناء السفن الكبيرة وحوض جاف ضخم لإصلاح السفن إلى جانب حوض الشركة الخديوية الصغير. وكلمة قزق كلمة لا أعرف مصدرها وهوعلى كل حال منحدر من الخرسانة متصل بالبحر تبنى فوقه السفينة قطعة قطعة وتكون نهايتها من ناحية البر متصلة بماسورة معدنية ضخمة مصمتة متصلة بدورها في أعلى الأرض بما يشبه الصخرة وبعد أن يكتمل بناء السفينة ويأتي موعد

تدشينها يقوم عامل اللحام بقطع هذه الماسورة بنيران الغاز فتنزلق السفينة إلى البحر فوق القزق الذي سبقت تغطيته بالشحم.

كان علينا نحن المجموعة الصغيرة أن نقوم بتركيب آلات هذه الورشة الجبارة. هذه الآلات التي تأتي إلينا من الاتحاد السوفيتي في طرود خشبية ضخمة نقوم نحن بفكها وإخراج قطع الآلات وتركيبها حسب الرسومات المرفقة، على قواعد خرسانية أعدت لذلك. بعض الماكينات مثل ماكينات الدرفلة وتشكيل الصاج تشغل طول خمسة عشر مترا، وكان حولنا شركات القطاع الخاص تقوم ببناء السقف الجمالوني بعمال يتحركون كالقرود ومد كابلات الكهرباء. كان مقاول الكهرباء يونانيا اسمه كاتزيان يقود عماله المصريين شخص مثقف لا أذكر كيف جمعت الظروف بيننا وقت الراحة ليعرف أني مشروع أديب فيناقشني في الأدب والفكر وينقلني إلى السياسة التي انتهت بأن أعطاني أول كتاب في الماركسية كما قلت. منه لله عذبني بطلب العدل الذي لم أجده أبدا.. كذلك كما أوضحت فقد صرت قائدًا للشباب في منظمة الشباب وقررنا أن نتجاوز ما هومقرر للمشروع من وقت فصرنا نعمل الساعات الإضافية وبالمجان ونعمل أيام الإجازات بلا أجر أيضا، بل ونقوم بتنظيف الشركة من مخلفات التركيبات، رحنا نسابق الزمن لإنجاز مشروع الثورة، مشروعنا أولا وأخيرا، بروح لا تحدث إلا في الجيوش أيام الحروب ودون ضغط من أحد، في

الوقت نفسه لم ينقطع تعيين الخريجين من كل التخصصات وتم بناء مركز تدريب انتقلت إليه لأدرس الكهرباء للتلاميذ الحاصلين على الإعدادية، وكنت أدرس لهم أيضا مادة الرياضيات التي كنت موهوبا فيها. وهكذا حل عام 1967 وقد صارت الترسانة مشروعا مكتملًا وأشهر شركة في الإسكندرية تدفع أعلى الرواتب وعمالها فنيون مهرة ومهندسوها من أكفأ العناصر والبعثات منها إلى الاتحاد السوفييتي وألمانيا الشرقية طوال العام، كما استصدر الدكتور أحمد عفت قانونا لمد سن التجنيد إلى ثمان وعشرين سنة لطلاب مركز التدريب وأن تكون خدمتهم العسكرية بعد ذلك بالقوات البحرية. وكان مشهدا جميلا كل صباح أن ترى أمام الشركة عشرات التاكسيات وهي تفرغ عمال الترسانة الشبان المتعلمين ذوي الأجور العالية والملابس الأنيقة الذين ذاع صيتهم في الإسكندرية.

أما يوم التدشين، تدشين السفينة، فهو يوم عيد في الشركة وفي الإسكندرية معا حيث تمتلئ محطة الرمل والمنشية بالعمال آخر النهار وهم يشترون الملابس والأحذية بالمكافأة التي حصلوا عليها.

لقد جرت العادة أن يقوم بالمشاركة في تدشين السفينة مسؤول كبير، رئيس الهيئة أو وزير الصناعة، وجرت العادة أن تصرف للعمال مكافأة شهر نفس يوم التدشين بعد نزول السفينة بدقائق. وحدث، في السبعينيات طبعًا، أظنه عام 1972، أن قرر الرئيس

السادات المشاركة في التدشين. ارتفعت الأعلام في الإسكندرية كلها وكانت حرب أكتوبر لم تحدث بعد فلم يكن موقفه طيبا أمام الشعب لذلك حدثت أكبر عملية أمن في الشركة وحولها. ورسم له طريق لا يحيد عنه بين الورش وداخلها وتم تنظيم العمال بحيث لا يمكن لهم اختراق قوات الأمن والاقتراب من السادات. لكن الذي حدث أنه فور دخوله الورشة الرئيسية تعالت هتافات العمال تحييه ولابد أن قلب الرجل قد اضطرب أمام هذا الترحيب العفوي وإذا به يترك الطريق المرسوم ويخترق هو الأمن ويقترب من العمال. لقد حدث هرج شديد، وعجز الأمن عن إيقاف سيل العمال الهادر حول الرئيس. لم يقل لنا أحد شيئاعن شعور السادات ساعتها لكن الأهم من ذلك أن السادات أخفق في تدشين السفينة ذلك اليوم. لقد وقف على المنصة المرتفعة التي عليها الضيوف وأمسك بالزجاجه المملوءة بماء النيل التي تتصل بحبل مربوط في أحد صواري السفينة. كان عليه في اللحظة التي تبدأ السفينة فيها في الانزلاق أن يترك الزجاجة لتصطدم بقوة في الصاري وتتناثر مياه النيل فوق السفينة مانحة إياها البركة في البحر، لكن يبدو أن السادات كان غارقا تماما في السعادة بهتافات العمال الجبارة ولم يعرف أبدا أنها كانت للحصول على أكبر مكافأة ممكنة لذلك ترك الزجاجة بتراخ ودون تدقيق ولأول مرة لم تصطدم الزجاجة بالصاري. مرت جواره وظلت تتأرجح دون اصطدام حتى فقدت قوتها مما أشعر الجميع بالتشاؤم وارتفعت أصوات الصياح «يييه»

مستنكرة حتى قفز أحد العمال بسرعه إلى الزجاجة وأمسكها بيده ثم هشمها على الصاري فصفق العمال وصرخوا وقفزوا إلى الماء خلف السفينة وأطلقت السفن الراسية في الميناء صفاراتها ترحب بالزميلة الجديدة.. غير ذلك كثير عشته في الترسانة فبعد أن حصلت على الثانوية العامة والتحقت بكلية الآداب انتقلت للعمل بمحطة الكهرباء الرئيسية واخترت العمل ليلا طوال الشتاء من الحادية عشرة حتى السابعة صباحا وأخرج بعدها إلى الكلية. أربع سنوات هي من أجمل سنوات عمري. فالعمل في محطة الكهربا لا يعني إلا تسجيل قراءة العدادات كل ساعة. وكان معي مساعد دائما تخرج من مركز التدريب وكنت أنا مدربه من قبل فكان يقوم بهذا العمل البسيط وأمضي أنا الليل حتى الفجر أقرأ وأذاكر. امتلأ دولاب الملابس بالمحطة بأمهات الكتب في الفلسفة والأدب والفن والتاريخ وغيره. وفعل مثلي تقريبا كل العاملين في المحطات الأخرى. محطات تحضير الأكسجين أي إنتاجه وملء الأسطوانات المعدنية به والإستيلين وغيرها. التحق بعضهم بكليات الحقوق والتجارة والصيدلة أيضا. تصور! كانت تجربة عظيمة تستحق الكتابة أو هكذا فكرت.

كتبت في الرواية هذه ثلاثة فصول ثم قفز إلى صفحاتها شخص لم أتصور أبدا أني سأتذكره يوما ما. كان زميلي في الدراسة الإعدادية في مدرسة طاهر بك بالورديان. كان اسمه علي. وكنا نسميه «علي تأبيدة» لأنه ينجح عاما ويرسب عامين. كان ضئيل

الجسم لكنه لا يكف عن الشجار مع أي أحد. يخشاه الطلبة والمدرسون. وكان في السنة الأولى الإعدادية يجلس جواري على التختة. كانت علاقته بي طيبة جدا على غير عادته مع غيري؛ لأني أسمع حكاياته وأبدومبسوطا منها لا أعارضه فيما يقول أو يحكي، ولا أبدي استغرابا بل إعجابا. وكانت كلها حكايات عن اللصوص في منطقة القباري والمفروزة والنساء. تركنا علي خلفنا وحصلنا على الإعدادية ولم أعد أراه لكن كنت أعرف سيرته من بعض الزملاء الذين يعيشون في منطقة المفروزة حيث يسكن. صار علي زعيم عصابة حقيقية. وكنت أحيانا أراه يقف يتحدث مع أحد الجنود من حراس الميناء ونحن خارجين من باب 36 للترسانة. كنت أحييه ويحييني من بعيد دون كلام. كنت أعرف أنه يساوم الشرطي على ما سيسرقه من السفن القادمة إلى الميناء. وعرفت أنه ترك مصر إلى ليبيا وعاد منها ليصبح الرجل الذي تعتمد عليه الشرطة في القبض على اللصوص في الوقت الذي يتزعم هو عصابة أيضا. كان باختصار فتوة منطقة المفروزة. قفز «علي» الذي يسكن قريبا من الترسانة ليكون موضوع الرواية وتتغير خطتي. كانت رغبتي قوية أن أكتب شيئا عن عظمة الإنسان في البناء وسط الصعاب، وكانت رغبة قوية أن أكتب عنه. لص متفرد في الزمن. انتهت حياته بالقتل من مساعده الذي كلفه البوليس بذلك. لقد قرروا التخلص منه واستبداله. لم أستطع تجاهله ولم أستطع الاستمرار فتوقفت عن الكتابة واحتفظت بالفصول الثلاثة حتى عدت بها من السعودية. حكى لي صديقي الذي يراسلني حكاية في أحد خطاباته أنهم في

الشركة كلفوا موظفا بالخروج بالعمال للقاء الرئيس السادات نظير مبلغ يدفعونه لكل عامل فاقتسم المبلغ مع العمال ولم يذهبوا للقاء السادات. ذهبوا إلى بيوتهم. أضحكني الموقف ولم أكن أدري أنه يختمر في روحي ليكون رواية. لقد عرفت حكاية الموظف بسرعة وتم تحويله للتحقيق فأعاد ما أخذه من الفلوس. كنت انتهيت من قراءة رواية «ليس في رصيف الأزهار من يجيب» للكاتب الجزائري مالك حداد. وظللت لأيام لا أرى العالم من حولي. ظللت غائبا في سحرها. رواية صغيرة لكنها عظيمة تركت في روحي رغبة عارمة في الكتابة وإعادة صياغة العالم من حولي. عندما ذهبت إلى باريس أول مرة بعد وقت طويل عام 1992 مشيت في شارع رصيف الأزهار. بحثت عنه ولم يكن بعيدا عن مسكني. لا علاقة أبدا لرواية «ليس في رصيف الأزهارمن يجيب» ببيت الياسمين، وإذا ذكرت في أعمالي فستذكر مرة في البلدة الأخرى، لكن سحر الرواية جعلني أسأل نفسي سؤالا: كيف أكتب رواية صغيرة تترك أثرا كبيرا؟ والأهم كيف أكتب رواية يتسع فضاؤها وحين يقرأها القارئ يرى الفضاء أبيض ويتسع به الكون. فكرت في فضاء مدينة تبوك وخلائها. وبينما أجلس بمقهى ريش جاءتني فكرة أن أقدّم لكل فصل بحكاية خرافية أو عجائبية ليس مهما أن يكون لها علاقة بالفصل نفسه. لكنها تثير أسئلة القارئ عن العلاقة وتتسع الرؤية لأكثر من تفسير. ابتسمت وشعرت بالراحة. ها هي فكرة شكل جديد للرواية. عادة يتم التقديم للفصول بقطعة شعرية أو حكمة ما. لكن حكاية صغيرة تتلوها حكايات الرواية شيء لم يفعله أحد.

تركت مقهى ريش إلى البيت سعيدا. وبالليل كعادتي بدأت أكتب فوجدتني أبدأ في بيت الياسمين وليس البلدة الأخرى. كأنما ملأت حكاية صديقي عن الموظف ومظاهرات التأييد روحي أكثر من غيرها ولم أدرك. وها هي تريد الانفجار. أحسست برغبة في أن أستفيد مما كتبته في الرواية التي بدأتها عن الترسانة البحرية ولم أكملها، أخذت القليل ولم أجد معنى للباقي هنا فأهملته. قلت لنفسي ضاحكا ها أنذا يا علي لا أخضع لإرادتك. لقد أفسدت لي الرواية وهأنذا أعود إلى الترسانة ولكن بطريقة أخرى. وهكذا كانت الرواية الساخرة المقدم لفصولها العشرة بعشر حكايات غرائبية. أذكر أن صديقي الشاعر محمد كشيك قرأ الرواية مخطوطة وأبدى إعجابه الشديد بها وبالحكايات الصغيرة في مقدمة الفصول وقال لي لماذا لا تكتب حكايات أخرى مثلها وتضم الجميع في كتاب مستقل وتبعد بها عن هذه الرواية؟ قلت له لقد أرادها الله كذلك ولا قبل لي بمعصية الله. ضحكنا وكنت أشعر فعلا أني لا أستطيع أن أنزع أي حكاية من مكانها. نسيت البلدة الأخرى أو تأخرت في روحي. كانت العمارة التي أسكنها في منطقة أرض الجمعية بإمبابة في البداية خالية من السكان. وكنت أغلق بابها الخارجي بسلسلة وقفل معي مفتاحه. وأثناء كتابة الرواية لم يكن موجودا بالعمارة غير أربع أسر من عشرة ومعنا جميعا نسخا من مفتاح قفل باب العمارة. جعلت بطل الرواية «شجرة محمد علي» يسكن في عمارة جديدة غير مأهولة لكن على البحر في حي الدخيلة بالإسكندرية ويحرص على إغلاق بابها كل مساء بالسلسلة والقفل. شخصيات

الرواية الأربعة هم أجمل أصدقاء العمر في الدخيلة والعجمي والورديان. أمضينا سنوات نضحك كلما تقابلنا. حتى بعد عيشي في القاهرة حرصت سنوات متتالية على أن أمضي بينهم الصيف وكل إجازاتي. كل حوارات الرواية هي حواراتهم وضحكاتهم أو مستلهمة من روحهم. ضحكاتنا أيام الشباب. وكل أحلام شخصيات الرواية هي أحلامهم. أحلام جيلنا الذي داهمته هزيمة 1967 وحين انتصر في 1973 فرّت من بين يديه البلاد. على كثرة ما عرفت من بشر لم أجد جماعة لا تكف عن الضحك مثل هؤلاء الأصدقاء الأربعة. هل من المناسب أن أقول أسماءهم. لا بأس رغم أنهم في الرواية صاروا شخصيات أخرى وجرى لهم من الخيال أكثر مما جرى في الواقع رغم أن الواقع كان هو مشعل الخيال. هم أصدقائي الذين هرموا مثلي الآن. الدكتور الصيدلي مجدي شحاته الذي صار اسمه في الرواية ماجد، وموظف الترسانة صياد السمك الجميل سعيد وهبة الذي استوحيت بطل الرواية شجرة محمد علي من شكله وضحكاته وإقباله على صيد السمك بالبندقية في البحر في الإجازات والذي حكى لي حكاية موظف الترسانة الذي لم يقم بمهمة استقبال الرئيس السادات وتقاسم الفلوس مع العمال وكشف أمره من أول مرة. ومحمد أبو سلامة المهندس الزراعي الذي أمضى سنين عمره الجميلة في الجيش منذ 1967 حتى 1974 والذي صار اسمه عبد السلام. كان شاعرا لا ينشر شعره وقارئا ممتازا ورحل عنا منذ عام الآن. والذي ويا للصدف كان محاصرا في الجيش الثالث ومعه الشاعر أحمد الحوتي الذي تعرفت عليه

عام 1975 وكانت سيرتي حديثا بينهم في ليل الانتظار. أما الرابع فهوحسين ابن صاحب مقهى اللنش، المقهى المذكور في الرواية. والذي نسميه بيننا حسين اللنش وصار اسمه في الرواية حسنين. جوقة من الضحك بالدنيا وعلى الدنيا! أو هكذا كنا حين نلتقي أيام الشباب وحتى الآن رغم قلة اللقاءات. هكذا جاءت الرواية متنا من السخرية من كل شيء ورضا بالحياة رغم كل سوءاتها. كانت الفقرات أو الحكايات الغرائبية التي قدمت بها الفصول الضاحكة تقدم الوجه الآخر للسخرية. الوجه الحزين. ربما. لقد حاول كثير من النقاد تفسير هذه الفقرات أو الحكايات في مقابلة بما بعدها. لكني أقول بكل تواضع أني أردت فقط أن أقدم نصا أكبر من عدد صفحاته. لا أدعي أكثر من ذلك. وأسعدني دائما كل تفسير لأنه أكد لي ما أردت. شيء أخير أحب أن أقوله عن هذه الرواية وهي أنني أثناء كتابتها بالليل وفي الشتاء كالعادة، وضعت البطل كما قلت في أحد مراحل حياته وقد انتقل إلى شقة على البحر في الدخيلة في عمارة خالية، وكنت أستلهم عمارتي التي سكنتها خالية. في الرواية أتت قوة من أمن الدولة للقبض على بطل الرواية بعد مظاهرات يناير 1977. بعد منتصف الليل وفي وسط شتاء الإسكندرية باعتباره أحد المحرضين على المظاهرات رغم أنه كان متعهد المظاهرات التشجيعية للسادات التي بدأت مع زيارة نيكسون واستمرت حتى وفاته، وكانت أجور العمال ترتفع مع الوقت والبطل يتقاسمها مع العمال ولا يذهبون إلى المظاهرات المصنوعة المدفوعة هذه التي كانت تقليدا مصريا ولا زالت للأسف. لم تكن دهشة البطل

شجرة محمد علي من القبض عليه. كانت دهشته كيف فتحوا باب العمارة التي يغلقها بالجنزير والقفل. انتهيت من هذا الفصل عند الفجر أو قبله بقليل. قمت من خلف مكتبي أمشي قليلا في الشقة بعد جلوس طويل. وصلت إلى الصالة فإذا بجرس الباب يدق. كنا في يناير 1985. لم أتعود على جرس الباب في هذا الوقت أبدا. نظرت من العين السحرية فوجدت جمعا من الناس أرى رؤوسهم ولا أراهم. كانت العمارة كما قلت لا تزال ليس بها غير أربعة أسر غيرنا وكنا أيضا نغلق بابها بالجنزير والقفل الذي مع كل منا. فتحت الباب لأجد شخصا يقف أمامي في لباس مدني أحمر الوجه قوي البنية يرفع في يده أمامي كارنيه ويقول: الرائد عصام بديوي من أمن الدولة. كان خلفه ضابط بزي الشرطة العسكري وعدد غير قليل من المخبرين بلباسهم المدني وعلى السلم تفرق أمناء شرطة يحملون بنادق صغيرة. رشاشات تقريبا. لم تبدو عليَّ الدهشة. أصابني ذهول منعني من التعليق، ثم قلت له: تفضل. دخل وقام ومن معه بتفتيش البيت فلم يجدوا غير كتب أخذوها وشرائط تسجيل. أخذوني إلى وزارة االداخلية فوجدت سيارات أخرى تأتي بأصدقاء. لن أتحدث هنا عن «الحبس» في سجن القناطر وعن عددنا الذي تجاوز العشرين. فقط حين نقلني الضابط في سيارته مع بشائر الصباح إلى سجن القناطر سألني:

- كيف لم تقاومنا ولم تسألنا حتى عن إذن النيابة. سمحت لنا بالدخول بسهولة بينما أنا حين رأيتك توقعت من هيئتك وطولك وجسمك أنك ستهاجمنا.

ابتسمت وقلت له:

- كنت أفكر كيف فتحتم باب العمارة المغلق بالسلسلة والقفل.

وضحكت وقلت:

- الغريب أنني كنت كتبت ذلك قبل وصولكم في الرواية وأنه حدث مع بطلها بالليل وفي يناير أيضا، وكان باب العمارة كذلك يغلق بالسلسلة والقفل. كأنما استدعيتكم للقبض عليّ.

ضحك وسألني:

- الرواية التي كانت على المكتب وطلبت مني ألا آخذها؟

- بالضبط.

ولقد حدث فعلا أنه أراد أن يأخذها لكني طلبت منه ألا يفعل، وأخبرته أنها مسودة عمل جديد لم ينتهِ بعد ولا أضمن أن يعيدوها إليّ، فنظر فيها قليلا ثم تركها. بعد خروجي أكملت الرواية. لكن هل اكتملت الرواية؟ كل رواية مما نشرت مكتملة. ما لم يكتمل هو رواية حقبة السبعينيات وأرواحنا المغتربة فيها. هكذا بعد المسافات والصياد واليمام وليلة العشق والدم عدت إلى الزمان نفسه بشكل أكثر تفصيلا وبلغة مجنحة بالسخرية وبحكايات صغيرة في مقدمة الفصول تزيد من غرائبية الحياة في بيت الياسمين. لقد ظهرت

الإسكندرية هنا في أكثر من رواية الآن. لكنها لم تلح علي كمدينة. أماكن وبشر. مفهوم المدينة أوسع وأكبر. كما أنه في بيت الياسمين كانت الأحداث السياسية هي المحرك الأول لأحداث الرواية. ما لا يجعلها خطابا سياسيا هو التلقي الساخر لشخصيات الرواية لها الذي يظهر في أفعالهم أكثر مما يظهر في تعليقهم على الأحداث، وكذلك مقدمات الفصول التراجيدية أو الغرائبية أيضا. السبعينيات رغم سطوة المكان كانت خلفية هذه الروايات. التحول الكبير الذي جري في مصر على كل المستويات. السبعينيات في الحقيقة كانت بداية ازدهار فن الرواية على القصة القصيرة التي احتلت أفق الأدب في الستينيات وخاصة بعد النكسة. حتى كتاب الستينيات الذين كانت تجربتهم في القصة القصيرة هي الأساس انتقلوا إلى الرواية في السبعينيات. وأذكر حين قلت في إحدى ندوات معرض الكتاب إن الرواية سبعينية والقصة القصيرة ستينية قاصدا الملمح الأكبر لكل مرحلة، ورغم أني أوضحت كلامي، إلا أن بعض كتاب الستينيات استاءوا إذ فهموا أني أسحب منهم كتابة الرواية وأمنحها لكتاب السبعينيات، رغم وضوح الكلام إذ أتكلم عن الجنس الأدبي وليس عن كُتّابه الذين صاروا يشتركون جميعا فيه، ورغم أن الجميع يعرفون أنني لست مع تقسيم الأجيال كل عشر سنوات وأعتبره عملا أقرب لأعمال وزارة الصحة. والأدب كما أقول دائما يقاس بالحركات الأدبية التي لا تحدث إلا مع التحولات الكبرى في الحياة وليس كل عشر سنوات.

انتهيت من السبعينيات في شكلها المأساوي وفي شكلها الساخر. يبقى لي أن أطل على المهاجرين. الوجه الآخر للوطن. فالبلدة الأخرى تتحرك الآن في روحي. وهكذا شرعت في الكتابة متوقعا أن تنتهي الرواية على مهل. استغرقت كتابة بيت الياسمين سنة وأكثر قليلا لكن حين كتبت أول جملة في رواية البلدة الأخرى «انفتح باب الطائرة فرأيت الصمت» أدركت أن وقتا طويلا سأستغرقه في كتابتها. عامان أو ثلاثة. فهنا لغة بنت مكان آخر هو الفراغ والصمت الكبيرين. لغة هادئة محايدة بقدر الإمكان، وليس هذا بالسهل في رواية كبيرة انتهت بسؤال لبطل الرواية من جاره على الطائرة. هل ستعود إلى المملكة؟ فقال: لا. هل ستبقي في مصر؟ فقال: لا. البلدة الأخرى هنا ليست السعودية. في السعودية تجد مالا ولا تجد روحا، وفي مصر تجد روحا ولا تجد مالا. المادة والروح معا هما الفردوس المفقود. شعرت بهذه الرواية أنه قد اكتملت حلقة الكتابة عن اغتراب الإنسان في السبعينيات في مصر وخارجها. وبدأت أفكر في حلمي القديم. الكتابة عن الإسكندرية كمدينة لها مالها في التاريخ. بدأت من الحرب العالمية الثانية لأسباب ستعرفها فيما بعد. التاريخ الذي فيه من المسرة أكثر مما حولنا رغم أهوال الحرب. الإسكندرية التي ضاعت منا. ولكن هل لم أكتب عن الإسكندرية في رواياتي السابقة؟ عن ماذا كانت الصياد واليمام وليلة العشق والدم وبيت الياسمين؟ كانت عن

أماكن في الإسكندرية كما قلت. أماكن قد تستدعي المدينة لكنها تستدعي أماكن أخرى فيها لنرى كيف يتباعد المكانان أو يقتربان. فأبطال هذه الروايات في جنوب المدينة وإذا خرجوا إلى شمالها رأوا فضاءً آخر يشتاقون إليه ويجربون فيه حظوظهم لكنهم يعودون إلى فضائهم الجنوبي. أماكنهم محددة الأبعاد، لكن وقد خرجوا إلى الفضاء الشمالي وضعوا المدينة أمامي أنا الكاتب. وكما أيقظ فيهم الفضاء الشمالي المتعة والجسارة وأحيانا الشجن، أيقظ فيّ الرغبة في أن أعود إلى المدينة في نقطة فاصلة من تاريخ العالم، وهي الحرب العالمية الثانية. وهذه المرة لن تتحرك الشخصيات وسط الأحداث التي عاصرتها في السبعينيات من القرن الماضي، لكنها أحداث لم أرها ولم أعشها. الفضاء الشمالي في المدينة الذي دخلت إليه شخصيات الروايات السابقة، وبصفة خاصة بطل الصياد واليمام وبطل بيت الياسمين أيقظ في روحي الحلم القديم. أن أكتب عن الإسكندرية تحت الحرب العالمية الثانية. وهو حلم مشى معي منذ طفولتي حيث كان أبي رحمه الله يحكي لنا ونحن صغار نجلس حوله في الأماسي حكايات الحرب. وكثيرا ما يتذكرها مع أمي. وأيام حرب السويس عام 1956 وقعت على الإسكندرية بعض الغارات الإنجليزية والإسرائيلية. وكنا نجلس في الظلام كل أهل الحي من الرجال والنساء والأطفال خارج بيوتنا - كما أوضحت في مقالي عن جمال عبد الناصر - ويتحدث

الرجال فيتذكرون الحرب العالمية الثانية ونحن ننصت إليهم، وتتوالى ذكرياتهم بقوة خاصة حين يسمعون صوت انفجار بعيد أو يرون طلقات المدافع المضادة تطير إلى الطائرات أو حين تلقي الطائرات ما يسمونه بالفوانيس، وهي شرائط فوسفورية تضيء الفضاء والأرض تحتها. مشى هذا الحلم معي منذ كتبت ونشرت، حلم الكتابة عن الإسكندرية في الحرب العالمية الثانية. وتأخر كثيرا بسبب الروايات الضاغطة على الروح التي كتبتها. بدا أحيانا كأني نسيته. لكنه استيقظ وسأحكي ذلك في حينه. إلا أن الأهم من الذهاب إلى رغبتي وحلمي القديم كان اكتشافي لنفسي أن مهمة الكاتب هي ممارسة الحرية في صياغة الأشكال الأدبية. لقد قرأت مثل أي كاتب الروايات العالمية والمسرح العالمي والشعر العالمي وكذلك العربي. وأمهات الكتب في الفلسفة وعلم الجمال وفي النقد الأدبي وتاريخ المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى الواقعية الجديدة وقرأت آدابها الممثلة لها. وفي النهاية قررت أن أخرج عليها جميعا. لم يبقَ لي مما قرأت إلا أن أكتب أدبا لا فكرا في الرواية. وأن الأشكال الأدبية المعروفة يمكن أن يضاف إليها أشكال أخرى وعلى النقاد أن يستخرجوا من الأعمال الأدبية طرق حكي جديدة وأشكالا جديدة واستخدامات جديدة للغة. من هنا لم أخشَ أن يقول لي أحد لماذا تداخلت الأحداث في ليلة العشق والدم دون فواصل أو فصول أو أبواب. ليس من المعتاد أن ينتقل

الكاتب من شخصية لأخرى دون تمهيد أو حتى علامات فاصلة أو أرقام، وخاصة أن ذلك يستمر في الرواية كلها. لم أخشَ أن يقال لي إنك لو تمهلت بين الشخصيات صار العمل أكبر وأسهل. الثلاثة يجلسون معا في مكان واحد فيتذكرون ماضيهم معا أيضا. انتهى الأمر. لن أفصل بينهم. وسيأتي العمل قصيرا مثل الوقت ومثل اللغة المتدفقة. أما بيت الياسمين فلن أعود إليها. لقد أردت كتابا أكبر من حجمه والسلام. المهم هل استمتعت أنت أم لا. ما دمت استمتعت فلابد أن تعترف لي بالجرأة والتجديد. والحمد لله وجدت الروايات محببها من القراء والنقاد والطبعات العديدة، والحقيقة أن خلف ذلك كله لم تكن القراءة فقط. ولا خبرة الحياة فقط. كانت السينما. وهذه حكاية أخرى ستأتي في مكانها. ويبقى سؤال عن عنوان الرواية.

كنا نلتقي كثيرا في الليل نحن الخمسة، الأربعة الذين ذكرتهم وأنا. ومعنا أحيانا عدد آخر من الأصدقاء لكن في أكثر الأحوال وحدنا. كنت أذهب إليهم أمر على أي منهم أولا. وحين أذهب إلى المهندس محمد أبوسلامة أمر على بيت مغلق معظم الوقت. بيت من دور واحد وبه شجرة ياسمين في حديقته الصغيرة. من هنا تحول هذا البيت إلى الرواية. صار بيتا مغلقا على أجمل الفتيات يزوجهن أبوهن للعواجيز فقط من الرجال. وصارت الرواية تبعد

وتعود إليه ويتمنى بطلها كشف سره حتى يئس ولم يعد يعنيه ماذا يمكن أن يحدث لبيت بيع أخيرا لمقاول لا يعرف قيمة المكان. قد يرى البعض البيت رمزا للوطن. وقد يراه البعض حلما ضائعا. بالنسبة لي هو بيت صاحبه لا يعرف قيمة ما فيه من جمال. أذكر بعد أن صدرت الرواية وقرأها صديقي المرحوم محمد أبو سلامة أن هتف وهو يحدثني: هذا البيت أمر عليه كل يوم كل هذه السنين ولا أنتبه. لم أسأل نفسي لماذا هو دائما مغلق وكيف يظل فيه الياسمين. ضحكنا ذلك اليوم، ومع الوقت بيع البيت فعلا وصار عمارة كبيرة قبيحة.

القسم الثاني

الكتابة عن الاسكندرية

الإسكندرية ليست مجرد هواء يهب من البحر، إنما هواء أرسله التاريخ العجيب للمدينة.. تاريخ التمرد والنزق والتسامح... والكتابة عن هذه المدينة أفق مفتوح تبحر فيه كل السفن الممكنة.. إنها بلورة سحرية تعطيك من كل ناحية عشرات الصور.

في طفولتي وصباي كنا نسكن في حي كرموز العتيق أقدم أحياء الإسكندرية والمسافة بين كرموز والبحر المتوسط لا تستغرق أكثر من ثلث ساعة على الأقدام، لكنها كانت بالنسبة لنا نحن أبناء الحي الفقير رحلة، في كل خطوة فيها تتغير أشكال الناس التي تقابلنا، حتى إذا وصلنا إلى محطة الرمل وجدنا رائحة البرفانات والفتيات والفتيان يتهادون على الكورنيش، وكافيتريات لامعة خلفها ناس بيض البشرة يشربون الجعة وعربات الحنطور تمرح بالأحباء. هذه هي الإسكندرية (المارية) أي المبتهجة السعيدة التي كانت السمة الغالبة على شعبها طول التاريخ رغم التندر على الحكام فتسلطوا عليه حتى كادوا يبيدونه. لقد اجتمع عليها الحكام والطاعون

والزلازل لكن الشعب السكندري ما زال يتندر على الحكام، ولم يعد ممكنًا إبادته.

ليست الكتابة عن الإسكندرية بالأمر السهل، فهي ليست مجرد مدينة ممتدة تتحرك فيها الشخصيات، بقدر ما هي حالة وجودية ليس أولها الحزن وليس آخرها الثورة!

والكتابة عن الإسكندرية لم تكن يومًا حقلًا من حقول الاستشراق كما حدث بالنسبة لمدن كالقاهرة ودمشق وتونس والقيروان. اقرأ فورستر أو كفاكيس أو داريل. الكتابة عن الإسكندرية تختلف إذن عن الكتابة عن المدن الأخرى، الكتابة عن الإسكندرية أفق مفتوح تُبحر فيه كل السفن الممكنة إلى ممالك المستحيل من الفن. والكتابة عن الإسكندرية لا يمكن أن تكون مجرد كتابة عن مدينة محددة الملمح. إنما هي كتابة عن بلُّورة سحرية تعطيك من كل ناحية عشرات الصور. أكاد أقول إن دخول الإسكندرية في أدب كاتب عظيم مثل نجيب محفوظ ساعد كثيرًا في القفزات التجريبية والنزوع الشديد، بلا حدود، نحو التجديد منذ رواية اللص والكلاب، التي هي في رأيي حالة سكندرية، فأصل الحكاية مواطن سكندري لقبوه بالسفاح هو محمود أمين سليمان، ولم يكن أكثر من طالب شرف، وجعلت منه صحيفة الأخبار حالة سحرية، فهو موجود في كل مكان، وإذا لم يكن موجودًا فيمكن جدًّا أن يظهر أمامك في الحال. إن لغة كاتبنا تغيرت، صارت مثل البلّورة التي لا تستقر

أضواؤها على حال، بل تعطيك عشرات الصور، وكانت البداية اللص والكلاب.

كاتب القاهرة نجيب محفوظ حين كتب عنها جاءت رواياته كلاسيكية. لكن حين انتقل عام 1961 ليكتب روايته الفذة (اللص والكلاب) تغيرت عنده الكتابة كما قلت، صارت عصرية، حداثية، أكثر تحررًا في اللغة، شعرية، شديدة القفزات في الحوار. صارت في الكتابة حرية، بل صارت الكتابة نفسها حرية. طبعًا محفوظ كان على دراية بما هو حادث في العالم من تطور في الأشكال الروائية، لكنه أيضًا كان يعرف ذلك من قبل وجاءت هذه القفزة التشكيلية مع رواياته السكندرية: (اللص والكلاب) و(الطريق) و(السمان والخريف)، و(ميرامار)، التي عبرت بالرواية العربية كلها إلى أفق حداثي في التشكيل. للإسكندرية إذن نصيب من هذه الطفرة عند الكاتب، هذه الطفرة التي استمرت معه بعد ذلك حين عاد يكتب عن القاهرة أو عن التاريخ. للإسكندرية نصيب من هذا التحرر عند الكاتب من الأساليب الكلاسيكية، ومن هذه الحرية التي يمارسها الكاتب في الكتابة. وإذا تركنا محفوظ فسنجد أهمية شاعر كبير مثل كفافيس مثلًا ليس فيما حمله شعره من مضامين فقط، ولكن في التجديد في اللغة اليونانية ذاتها، وفي بناء القصيدة، والأمر يمتد إلى داريل ورباعيته، أقصد التجديد في الفن الروائي. هذه الأعمال وغيرها بنت المدينة كما هي بنت الكاتب الموهوب وتستطيع أن

تمد الخيط على كل الموهوبين الذين كتبوا عن هذه المدينة، إدوار الخراط وروبير سوليه وهاري تزالاس وتسيركاس وغيرهم.. أن تكون حرًّا وتعيد بناء العالم على هواك.. سمة أخرى مما نسميه السكندرية.

هذا الجانب من الدراسات النقدية، يمكن جدًّا النظر فيه بعيدًا عن الحتمية الجغرافية مثلًا، إنما باعتبار أن المكان الذي هو خارج دائما عن حدوده، يساهم في لغة القص أو لغة الشعر أو لغة الفن بشكل عام.

اقرأ داريل أو جاك حسون أو زنانيري، وقل لي أين الإسكندرية هنا؟ ستجد سكندريات، لكل سكندريته، وكل سكندرية متجاوزة للحقيقة، وأحيانًا، بل غالبًا للخيال المتاح.

أتذكر سؤالًا وجَّهه لي معد فيلم قصير عنّي للتلفزيون الفرنسي وأنا أقف على حافة المحيط الأطلنطي في مدينة لاروشيل عام 2001. كان السؤال: ما شعورك وأنت تقف على المحيط الأطلنطي؟ وهل يختلف عن شعورك وأنت تقف على البحر المتوسط؟ على الفور أجبت: عندما أقف على المتوسط أشعر بالتاريخ يتحرك بقيامة الماضي، والحضارات القديمة ترتفع أعمدتها من حولي وأشعر بالقوة والثقة في النفس والرغبة في الحركة. دائمًا يحدث هذا معي وأنا أقف بالميناء الشرقي بالإسكندرية. أما هنا، وأمام المحيط، فأشعر بغموض هائل وخوف عظيم. أكاد أدخل في

بعضي. وليست هذه أول مرة أقف على المحيط. فلقد وقفت على الجانب الأخر منه، في أميركا، واحتواني الشعور نفسه بالغموض والخوف. أنا أعرف وأتوقع الذي يمكن أن يأتي من خلف المتوسط. للمتوسط ذاكرة، وهذه الذاكرة المتوسطية تشكل جانبًا مهمًّا مما يمكن أن نسميه السكندرية في الكتابة. كما أن الفردانية، وليس الفردية. يمكن أن تكون أفضل في التعريف بالشخصية السكندرية. الفردية فيها كثير من معاني الأنانية، لكن في الأولى، الفردانية، من معاني الاستقلال والقوة التي أتت للسكندري من التاريخ المتوسطي، ومن التعايش مع الآخر دون شعور بالدونية. وفي حديث لي مع أحد الأصدقاء عن جماعات الكُتَّاب في القاهرة سألني: لماذا لا توجد في القاهرة جماعة سكندرية، كما هو حادث مع كثير من الكُتَّاب الوافدين من الريف؟ قلت ضاحكًا: السكندري يشعر أنه جماعة وحده. هذه الفردانية هي التي كانت وراء رحلة عبد الله النديم وسيد درويش وبيرم التونسي ويوسف شاهين، وغيرهم من الكُتَّاب والفنانين لتسطع شموسهم في العاصمة، وهذه الفردانية كثيرًا ما كانت مشوبة بالرومانسية، بالمعنى الثوري، ومن ثم يأتي التجديد في الفن والحياة، وبالرومانسية بالمعنى الشعوري، فتصل أحيانًا بصاحبها إلى الاعتزال، كما هو الحال في كاتب كبير مثل محمد حافظ رجب، الذي فجر ثورة مبكرة في القصة القصيرة ثم اعتزل أو كاد مبكرًا، أو تصل بصاحبها إلى الانتحار كما حدث في ثلاثة كُتَّاب انتحروا إبان الحرب العالمية الثانية، كان الأول

إسماعيل أدهم صاحب كتاب (لماذا أنا ملحد) وبعده بأشهر فخري أبو السعود مترجم رواية تس سليلة دربرفيل لتوماس هاردي وبعده بعامين تقريبًا منير رمزي من أوائل من كتبوا قصيدة النثر. كانت أزمة الأول كونية، وأزمة الثاني في الفقد حيث غرق ابنه في نهر التيمز وانقطعت أخبار زوجته الإنجليزية، وكانت أزمة الثالث عاطفية، لكن من المؤكد أن فردانيتهم هنا، على قوتها الأدبية، لم تتحمل انهيار الحضارة على النحو الفظيع الذي ظهرت به في الحرب الكونية الثانية. الفردانية السكندرية قوية، ومقتلها في قوتها التي تهيئ لها أحيانًا أن العالم غير قادر على استيعابها.. إنها فردانية ذات وجه وجودي تدفع أحيانًا إلى أقصى أفعال الحرية. الانتحار. كما تدفع إلى أقصى أفعال الحرية إيجابية، التجديد والتجاوز.

الإسكندرية في الزمن يمتد عمرها لأكثر من ألفي سنة، والقاهرة في الزمن يمتد عمرها لألف عام. ومع ذلك تبدو القاهرة دائما أقدم من الإسكندرية. الإسكندرية مشبعة بندى الصباح من البحر، مشبعة باليقظة. الإسكندرية أفق مفتوح على التاريخ، يبتلعك فتنتهي تمامًا، أو يحرك فيك روح الثورة والتمرد فتبدع إذا كنت كاتبًا أو فنانًا موهوبًا بالحد الأقصى للإبداع.

من اللحظة التي ينزل فيها المسافر إلى الإسكندرية ينقل إليه الهواء روحًا من الحرية والتحرر. جرب ذلك أو استمع إلى ذلك عند خروجك من محطة سيدي جابر، وأنصت أيضًا إليه عند

خروجك من محطة مصر! ويشعر المسافر برغبة في المشي وسرعة في المشي، ولا تأخذه الحيرة أبدًا التي قد تأخذ بالغرباء أو القادمين من القرى إلى المدن. هواء الإسكندرية ليس مجرد هواء يهب من البحر، إنما هواء أرسله التاريخ العجيب للمدينة، تاريخ التمرد وصراع الديكة وعصائر العنب، و.. هذا هو الأهم، التندر على الحكام. يقولون إن الإسكندرية كانت أولى المدن في تأييد ثورة يوليو، وليس المهم أنها فعلت ذلك، لكن المهم هولماذا التأكيد بمناسبة وبدون مناسبة على ذلك. لأن الإسكندرية مدينة للحركة، وتاريخها هوتاريخ التمرد والتندر من فضلك على الحكام، بمناسبة أحيانًا وبغير مناسبة أيضًا في كثير من الأحيان!! ذلك يفسر لك كما قلت لماذا كان تعداد سكان الإسكندرية في العصر الروماني ثلاثمئة ألف حر يقابلهم مثلهم من العبيد، ثم كيف صار تعدادها حين تولى (محمد علي) شؤون البلاد ثمانية آلاف نسمة. بالتأكيد الزلازل والكوارث الطبيعية والأوبئة والحروب لعبت دورها، لكن من المؤكد أيضًا أن الحكام لعبوا الدور الأكبر. ويخيل إليَّ أن اختلاف كنيسة الإسكندرية مع الكنيسة الرومانية حول طبيعة المسيح كان يمكن ألا يحدث لوكان آباء الكنيسة في بلد آخر غير الإسكندرية، أو على الأقل ما كان بهذه الحدة المعروفة في التاريخ المسيحي.. لكن الإسكندرية دائما كانت مدينة التسامح، لم يعش فيها أبدًا جماعة واحدة ولا دين واحد، ولم تكن يومًا مسرحًا للفتن الطائفية إلا حين كان الحكام يريدون ذلك، ولقد دفع الشعب

السكندري أكبر ثمن من الاستشهاد في القرون الأولى للمسيحية على يد دقلديانوس. لن أقدم هنا تحليلًا للتسامح وتقبل الآخر في الأعمال التي كتبت عن المدينة، أو كتبها كُتّاب المدينة، فذلك يحتاج إلى وقت كبير وجهد، ثم إنني على الإجمال لا أحب تحليل الأعمال الأدبية. أقصد على المستوى الشخصي، أي أنا، إبراهيم عبد المجيد، وليس الأمر ملزمًا لأحد، بل لعله يكون مضحكًا إذا عُرف السبب، والسبب هو سؤال أسأله لنفسي دائمًا: كيف أجرؤ على أن أقوم بتحليل عمل أدبي في يوم أو عدة أيام بينما كاتب العمل أبدعه في عام أو عدة أعوام؟ لكن التحليل ضروري ما دام هناك نقد ونقاد أترك لهم اقتراف هذه الذنوب الجميلة.. فكرة مجنونة لكن تلبستني منذ سنوات، وأنا طبعًا حر.. أليس كذلك؟ على أي حال أحب أن أتحدث عن مظهر آخر للتسامح وتقبل الآخر، هذا التعايش بين الثقافات والأجناس والأديان التي شهدته الإسكندرية منذ أمر الإسكندر ببنائها.

لن أسرد عليكم التاريخ، طبعًا، لكن فقط أذكركم بأن العصر الهلليني كان يسمى أيضًا العصر السكندري، والمواطن الروماني لم يكن كامل المواطنة إلا إذا حصل على المواطنة السكندرية، والسكندريون هم الذين تحملوا أكثر من غيرهم الاضطهاد الروماني بسبب اعتناقهم المبكر للمسيحية، وأسطورة سانت كاترين بدأت من الإسكندرية. دقلديانوس، حاكم روما الدموي، وقف على

أبوابها ثلاثة أشهر قبل أن يدخلها ويطفئ تمردها؛ لذلك لا أصدق أبدًا أن السكندريين بنوا عامود السواري، أو عامود بومباي كما يسمى في الغرب، تخليدًا له، أغلب الظن أنه هو الذي فعل ذلك بنفسه، أو أتباعه، ونسبوه إلى السكندريين. إذ لا يكفي أبدًا إعفاؤهم من الضرائب لهذا التخليد، ولا يكفي الإعفاء من الضرائب لينسى السكندريون مذابح دقلديانوس. ثم إن الحكام من نوع دقلديانوس يفعلون ذلك في كل عصر، وحتى الآن. يقتلون الشعوب ثم ينسبون أنفسهم لها.

سأتوقف هنا عند ثلاثة قرون ميلادية في تاريخ الإسكندرية. وهي القرون التي سبقت الاعتراف بالمسيحية في القرن الرابع الميلادي. في هذه القرون كانت الإسكندرية هي ملاذ المسيحيين الفارين من حكم الرومان في فلسطين ومن الاضطهاد الروماني الذي انتقل من هناك إلى الإسكندرية وأهلها الذين كانوا قد اعتنقوا الديانة المسيحية. فرّ منهم كثيرون إلى الصحراء الغربية والشرقية وعاشوا في الجبال والمغارات وانقطعوا عن لذات الدنيا فصاروا رهبانا ومن مصر خرجت الرهبنة إلى العالم وصارت علامة على رجال الدين المسيحيين. هذه يا أيها القارئ الكريم حقائق تاريخية فهذه المدينة هي أعظم مدينة احتضنت المسيحية والمسيحيين في التاريخ إذ دخل أهلها في الديانة الجديدة. وقاوموا أشر حكام روما، دقلديانوس، الذي وقف على أسوارها ثلاثة أشهر كما قلت

لا يستطيع دخولها حتى إذا دخلها أقام المذابح الكبرى التي دشنت عصر الاستشهاد. لقد ارتقى دقلديانوس عرش روما عام 284 ميلادية وبه بدأ التقويم القبطي كاحتجاج على مذابحه. ولم يكن التقويم القبطي تقويما أوربيا. جريجوريا، ولكنه كان تقويما مصريا فشهور السنة هي شهور مصرية قديمة كثير منها لها دلالاته وكثير منها يحمل أسماء آلهة مصر القديمة إن لم تكن كلها. وهكذا كان في التقويم تمسك بالروح المصرية رغم أنه بعد ذلك اعترفت روما بالمسيحية، لكن ظل التقويم القبطي مصريا صميما. هذا حديث هام لنعرف أن المسيحية لم تدخل مصر غصبا ولا حربا. وأن الإسكندرية مدينة العالم فتحت للديانة القديمة أبوابها وتمسكت بها في وجه روما ودفعت ثمن ذلك بآلاف الشهداء المصريين، لو سمحت الله يخليك. وظلت الروح العالمية تسكن المدينة. إن لم يكن بوضوح ففي روح سكانها. لذلك حين جرى ما جرى وانحطت الإسكندرية ومصر كلها في الحقيقة لتتابع الحكام الأغراب عليها وتعدد الممالك التي ربما كان لها منجزها الحضاري وهوما نراه الآن فيما بقي من آثار إسلامية وعثمانية ومملوكية إلا أنه في النهاية تدهورت أحوال المصريين جميعا حتى إذا جاء نابليون بونابرت إلى مصر كانت على الحال المزري الذي وصفته من قبل. حدث ذلك الانحطاط بفعل ظلم الحكام والكوارث الطبيعية والأوبئة كما قلت، وما شئت من بلاوي، حيث شهدت العصور الإسلامية وخاصة العصر العثماني والمملوكي تفرقة كبيرة بين أهل الأديان،

بل وظلما للمسلمين أيضا. وما إن تولى محمد علي حكم البلاد وأصدر مرسومه بحرية العبادات وشق ترعة المحمودية عام 1828 ووصل الإسكندرية بالنيل حتى عادت الحياة للميناء وللمدينة وقدم إليها الناس من كل الدنيا وعادت المدينة لروحها الكوزموبوليتي. العالمي والإنساني. عاد إليها اليونانيون من أوربا والشوام والمغاربة ووفد إليها اليهود المضطهدون في فرنسا وروسيا وإسبانيا وأوربا عموما وكذلك الأرمن الفارون من مذابح العثمانيين وغيرهم وارتفع عدد سكانها فتجاوز المئة ألف مع بداية القرن العشرين ووفد إليها الإيطاليون كذلك ووجد هؤلاء جميعا في الإسكندرية ومصر عموما مكانا أبدعوا فيه في الصناعة والزراعة والفنون والآداب والصحافة والعمارة وهكذا. واستمر ذلك منذ محمد علي حتى ثورة يوليو 1952.

هكذا صارت الإسكندرية ملاذا لكل الدنيا والمضطهدين فيها حتى أن بحارة المدرعة بوتومكين الذين ساهموا في الثورة الروسية عام 1905، البروفة الأولى للثورة البلشفية فيما بعد، هؤلاء الذين صنع ايزنشتين فيلما جميلا عنهم هوفيلم «المدرعة بوتومكين». هؤلاء البحارة أو من بقي منهم هرب إلى مصر وأصدروا صحيفة اسمها «أسكرا»، أي الشرارة بالروسية، وكان هذا هو اسم أول حزب شيوعي في مصر في بداية العشرينيات. وظلت الإسكندرية في ازدياد حتى وصل عدد سكانها إلى نصف المليون في خمسينيات القرن الماضي.

منذ عصر محمد علي ارتفع شأن المدينة الاقتصادي وبلغ ذروته في النصف الأول من القرن العشرين وكانت بورصة الإسكندرية لها دورها في اقتصاديات العالم. وبعد محمد علي وفي عصور أبنائه. شيدت الميادين. ميدان المنشية. الذي حمل اسم محمد علي ثم اسم ميدان القناصل. وأقيمت الحدائق على النظام الفرنسي وأقيمت العمارات على النظام الأوربي وازدهرت فيها الكنائس والجوامع والمعابد اليهودية. وتاريخ طويل من التسامح بين الأديان والأجناس. ورغم أن الاستعمار البريطاني دخل البلاد إلا أنه لم يستطع أبدا أن يغير في هذه السمة السكندرية. السمة المتوسطية. الإسكندرية تعود إلى عصرها الذهبي القديم. العصر الهلليني أو العصر السكندري. ارتفع شأن كنيسة الإسكندرية من زمان وأصبحت أم الكنائس الأرثوذكسية في العالم وعاد إليها هذا الدور بوضوح منذ عصر محمد علي ولم يشكل ذلك أي مشكلة لأهل الإسكندرية المسلمين، لسبب بسيط جدا هوأن الأصل كان المواطنة. أي المصرية، وليس الدين. فكلهم مصريون بحكم الأصل أو بحكم التفاعل التاريخي. مصر أنبوبة ماصة كما قال جمال حمدان وكل من عاش فيها صار مصريا.

وكما فتحت المدينة أبوابها للبشر فتحت أبوابها للفلاسفة والمفكرين من كل الدنيا. ويحتاج الحديث في ذلك إلى مجلد كامل. فمن الإسكندرية خرجت الأفلوطينية والفيثاغورية وفيها

ازدهر التصوف وعلماء الدين المسلمون وفيها عاش كتاب أوربيون سنوات أو عمرهم كله وكتبوا روايات وأشعارا صارت علامة في تاريخ الإنسانية الروحي. ومنها خرجت كثير من حركات التجديد في الفن وفيها نشطت الصحافة المصرية قبل أن تتركز في العاصمة القاهرة. وفيها وفيها وفيها. يا إلهي أين ذهب هذا كله؟

بعد حرب السويس عام 1956 بدأ خروج الأجانب من المدينة قسرا أو رضاء. وفي 1957 بدأت سياسة التمصير للاقتصاد بدخول الدولة بحصة 51٪ من رأس المال فخرج رجال الاقتصاد الأجانب ومع التأميم عام 1961 تم نزول الستار على وجود الجاليات الأجنبية التي كان الكثيرون منهم يعتبرون أنفسهم مصريين قبل أي شيء آخر وعاشوا في أوربا وحتى الآن أولادهم وأحفادهم يحبون المدينة ويحنّون إليها ويكتبون عنها. مدينة العالم التي لم تتكرر. لم ينس الذين خرجوا من المدينة، ولا المصريون الباقون، العلاقات وقصص الحب الجميلة معهم أيضًا، والآن فإن عشاق الإسكندرية من الأجانب لهم رابطة وروابط كثيرة في العالم، ويلتقون معًا كل عام في بلد ما، ويتذكرون الأيام الجميلة للمدينة، ويكتبون عنها الكتب، إنها مدينة تستحق ما كتبه عنها عالم النفس اليهودي جاك حسون، إن من يغادر الإسكندرية لا يغادرها أبدًا، ولقد خرج حسون مثل الكثيرين غيره من اليهود بعد عام 1956 ضحية إرهاب وغطرسة دولة إسرائيل وغباء الحكم الذي لم يفرق بين إسرائيل ويهود مصر

وعـاش في باريـس يعمل ويكتب كتابًـا جميلًا عـن المدينة التي لم يشعر أبدًا بالاغتراب إلا حين ابتعد عنها.

الأمـر على نحو أعمق وأشـد مـع اليونانييـن والإيطاليين الذين خرجـوا بعد إجـراءات التمصيـر والتأميم. هـؤلاء وغيرهم كثيرون لم يشـعروا أبـدًا أنهم في مدينة غيـر مدينتهم، والإسـكندرية تعطي دائمًـا هذا الإحسـاس للغريـب، هواؤها أبيـض، وفضاؤها مفتوح، وتاريخها مجنون، وظل أهل الإسكندرية دائما يميزون بين من جاء يستعمرهم ومن عاش بينهم كواحد من أهل البلاد؛ لذلك لم تنقطع ثوراتهم ضد الاستعمار، ولم ينته تسامحهم مع الغرباء. لم تكن هناك مشكلة في تحرير الاقتصاد ومقدرات الأمة ولكن المشكلة صارت في التخلص من الثقافة الإنسـانية بدءا من أبسط الأشياء مثل النظافة إلى البناء والحفاظ على البيئة. تم اعتداء كبير غاشم على البيئة بردم بحيرة مريوط - لم تعد لأغنية محمد قنديل بين شطين ومية أي معنى الآن - الإسكندرية التي كانت بين البحيرة والبحر صارت بين البحر والصحراء فتغير مناخها واحتبسـت فيها الحرارة وتم الاعتداء على الخضـرة حولها وأقيمت العشـوائيات والأزقة. وجرى ذلك بمصر كلها للأسـف وبالذات منذ السـبعينيات. ثم هب على الإسـكندرية أكثـر من غيرهـا هـواء التخلف والسـلفية والعقيـدة الوهابيـة. كان أهلنـا في الريف قديما يأتـون من قراهم فيصيرون في الإسـكندرية

سكندريين وتتغير عاداتهم الريفية ولكن ذلك لم يعد يحدث الآن. تغيرت العادات ولكن إلى عادات مكتسبة من الصحراء العربية حيث هاجر الكثيرون منهم إلى السـعودية والجزيرة العربية وعادوا بالزي الصحراوي والأفغاني والباكستاني والإيراني باعتباره زي الإسلام. لا أعرف ما هي علاقة الزي بالدين فما تلبسه في الشتاء غير ما تلبسه في الصيف وما تلبسـه في الورشـة غير ما تلبسـه في النـادي. وكما جـرى في مصر كلها منذ السـبعينيات أطلقت الدولة للأسـف زمام هـؤلاء فـي محاولة منهـا لقهر التيـارات الليبرالية أو اليسـارية. ولم تسـتطع السـيطرة فصاروا هـم المفكرين الذين يخطبـون بجهل في الجوامـع يلعنون النصارى كل أسـبوع وصاروا هـم المتحالفين مع رجال الأحياء والحكم المحلي الفاسـدين فشوهوا البناء والشوارع في مصر كلها وليس الإسـكندرية. في الإسكندرية يكون الأمر أكثر ألمـا لأن الإسـكندرية التي كانـت تولي وجهها شـطر أوربا صارت تولـي وجهها شـطر الصحراء. انظـر الآن إلى الإسـكندرية القديمة التـي عـاش فيها أعظـم متصوفة وعلماء الإسـلام، وتركـوا خلفهم أعظـم المسـاجد ورغـم ذلـك ظلـت تحتفـظ بروحهـا الإنسـاني وانظر إليهـا الآن ترتفـع فيهـا المسـاجد كل يوم وفقـدت في نفس الوقت روحها الإنسـاني. لم يكن أبو العباس المرسـي ولا سـيدي العـدوي ولا سـيدي ياقوت ولا سـيدي جابـر ولا سـيدي القباري ولا غيرهم وما أكثرهم في الإسكندرية كفارا أيها الناس كانوا رموزا

إسلامية عظيمة يعرفون أن الإسلام دين التسامح. أما الذين يباهون اليوم ببناء المساجد ويتوخون أن تكون أمام الكنائس فقد أشعلوا فتنة لم تعرفها الإسكندرية ووضعوا في مساجدهم مشايخ لا يعرفون من الإسلام أي معنى للتسامح والأخوة. لقد ضاع الحس المصري وتشبهنا بالصحراء العربية ونحن لا نعيش فيها. بل وتتطور الصحراء العربية ونتخلف نحن. فالسعودية الآن تباهي بأول جامعة مختلطة ونحن فعلنا ذلك منذ مئة سنة ولكن بيننا تقوم الدعوات بفصل البنين عن البنات وفي الجامعة نفسها أساتذة يجعلون الطلاب في الأمام والطالبات في الخلف وهناك الكثير جدا من مظاهر التخلف التي نعتبرها دينا. لقد جاء على الإسكندرية وقت في سبعينيات القرن الماضي بدأ فيه هدم كل سينمات الأحياء الفقيرة وتحويلها إلى ورش ومخازن أو عمارات. وامتد الأمر إلى السينمات الراقية أو المتوسطة. اعتبرت حرامًا بينما الإسكندرية كانت المدينة الثانية في العالم التي عرض بها شريط سينمائي بعد عرض الأخوين لوميير في فرنسا عام 1895. أما المسارح والملاهي على الكورنيش فقد أغلقت كلها بحجة الإسلام كأنها كانت خطيئة وبها انتهت الخطايا والخطايا طبعا صارت أكثر بفعل الفقر أو الغنى الفاحش. حين كانت نساء الإسكندرية ترتدين الأزياء الأوربية، ولقد عشت ذلك، لم يكن هناك هذا التحرش الجنسي البشع وحين اختفت النساء وراء النقاب والإسدال طاردهن الرجال في كل مكان بأحط الطرق

ذلك أن الدعوة التي يسمونها إسلامية تعتبر المرأة شيطانا يمشي في الطريق مباحا لكل رجل، وهكذا اختلت القيم كما اختل وضع المدينة الجغرافي. وصارت مدينة التسامح الحقيقي مدينة مزورة ترفع راية الدين شكلا ومظهرا شأنها شأن سائر المدن المصرية. مدينة عاشت أكثر من ألفي سنة تستوعب الدنيا كلها صارت تضيق بأهلها من الأقباط. يا إلهي. ولا تحدثني من فضلك عن الاستعمار والصهيونية والأيادي الأجنبية. الأرض هناك الآن مهيأة لهذا كله كما هي في سائر الوطن. الأمر فقط في الإسكندرية يدعو للحسرة وألم أكثر من غيرها من المدن.

وفي النهاية أذكركم بالحكاية الجميلة عن الإسكندر الأكبر الذي حين أراد أن يرسم تخطيط المدينة على الأرض لمهندسيه، لم يجد المادة الجيرية البيضاء ليخطط بها ففعل ذلك بالحبوب التي راح ينثرها على الأرض يحدد مكان البيوت والسوق والمعبد والسور. فجأة أقبلت الطيور من السماء وأكلت الحبوب كلها فوقف متشائما. ولكن رجاله قالوا له لا تحزن فهذا يعني أن المدينة ستكون للشعوب من كل الدنيا. وطبعا صدق الإسكندر. الآن بعد أكثر من ألفي سنة كان محقا في تشاؤمه. أكلت طيور الصحراء المدينة.

هذا التاريخ كان وراء الروايات الثلاث الكبيرة عن الإسكندرية. كيف كتبت كلا منها؟ سأقف عند كل منها على حدة.

-1-
لا أحد ينام في الإسكندرية

رواية (لا أحد ينام في الإسكندرية) بدأت عام 1958 وأنا بعد في حوالي الحادية عشر من عمري!

كنت مع أبي في مدينة برج العرب التي تقع على مسافة خمسين كيلومترًا من الإسكندرية، ورأيت رجلًا يرحل إلى ليبيا ماشيًا على قدميه. كنا في رمضان وكان صيفا أو في أحد شهور الصيف. كان يزامل أبي في العمل رجل مسيحي اسمه إبراهيم صليب. كان يؤجل أكله بالنهار ليأكل مع أبي ساعة الإفطار. رآهما الرجل أمام مسكن عمال السكة الحديد يأكلان فجاء إليهما وأنا معهما وجلس يأكل دون كلام. زاد أبي الأكل ليكفي الجميع وتحدث معهما الرجل وحكى كيف أنه من المحلة الكبرى ويأخذ طريقه إلى ليبيا مشيا عبر الصحراء باحثا عن الرزق أو حياة أفضل. كانت هذه أول مرة أرى شيئا كهذا. أذكر أنهما شرحا له الطريق وحمّلاه ببعض المؤن وأعطياه قليلا من القروش. مرت الأيام وبعد ثلاثين سنة تقريبا كتبت قصة قصيرة بعنوان «كان يعرف أسماء البلاد» نشرت

عام 1989، سيأتي تفصيل أكثر عن هذا الموقف في دراسة أعددتها وأنا أكتب وأجهز لرواية «لا أحد ينام في الإسكندرية». دراسة عن الساحل الشمالي والصحراء الغربية لكني سأنشر القصة هنا أو لا. بالضبط كما جرت الأمور.

كان يعرف أسماء البلاد

- لماذا تنظر إليّ يا إبراهيم؟

ولابد أني أحسست بالخجل. أذكر أني أطرقت أنظر إلى طبق الطعام الوحيد فوق «الطبلية» وغمست اللقمة فيه، ثم رفعتها إلى فمي، ورفعت رأسي كله أبحث عن شيء في السماء، فلم أقابل نجمة واحدة.

- إبراهيم لايصدق أنك تصوم وتفطر معي كل يوم.

سمعت أبي يقول ذلك، ورأيت «عم دميان» يبتسم وبعدها انقطع الكلام. صرت أسمع صوت طحن الأسنان للخبز الجاف.

كان الاتساع الذي حولنا كبيرا، والصمت بحجم الاتساع. رأيت منذ قليل الأفق الغربي يشتعل باللهب، والآن اختفى الأفق، ولولا ضوء المصباح الغازي المنسكب من الباب علينا، ربما لم نكن نرى بعضنا إلا إذا تكلمنا. لكني كنت أميز محطة السكة الحديد القريبة، فهي أشد إظلاما، ورغم أن حرارة النهار بدأت تنكسر، سألت نفسي. هل حقا سأمضي إجازة الصيف الدراسية كلها هنا مع أبي؟ وتذكرت أمي وسألني «عم دميان»:

- هل تعرف خروشوف يا إبراهيم؟

- نعم.

- هل تعرف لماذا جاء إلى مصر؟

- جاء يزور مشروع السد العالي.

- شاطر.

وسكتنا، وقال أبي:

- إبراهيم ناجح في الابتدائية بتفوق هذا العام.

وتحشرج صوته، وبدا أنه يختنق فقد راح يسعل بقوة ويشير لي بيديه أن أناوله «قلة الماء» التي راح يكرع مياهها بصوت عال، وأنا أفكر ما الذي جعلة يطلق أمي ثلاث مرات؟ ولماذا لايمكن أن يعيدها هذه المرة؟ وأيضا زوجة «عم دميان» لماذا تريد البقاء في الإسكندرية وترفض الحياة معه هنا؟ وسألت نفسي: هل سيطلق «عم دميان» زوجته أيضا؟ لكنني رأيت أبي، بعد أن وضع «القلة» جواره، ينظر إلى بعيد. نظرت فرأيت رجلا يقترب منا على مهل يرتدي سترة سوداء صغيرة. اقترب الرجل فرأيت له وجها أحمر قويا تحيطه لحية مشوشه، وبه شارب مشوش أيضا، وفي قدميه «صندل» قديم ورأسه أصلع ويحمل صرة صغيرة على ظهره.

- تفضل.

هتف أبي والتفت «عم دميان» فرأي الرجل فتحرك قليلا يوسع مكانا، وتحركت أنا أيضا، وجلس الرجل بيننا بعد أن وضع الصرة بعيدا عند الباب.

لم يُلقِ الرجل علينا سلاما، ولا صافح أحدا منا. مد يده على الفور وتناول رغيفا راح يمزقه بسرعة، ويضع اللقمة منه في الطعام. ننظر إليه إذ ترك الخبز، وحمل الطبق بيديه إلى فمه يشرب ما فيه من «ملوخية» دفعة واحدة.

- صحة!

قال «عم دميان». ورأيت الرجل ينظر إلى أبي الذي بسرعة أمسك «بالحلة» الكبيرة الموضوعة جواره وملأ الطبق فشربه الرجل كله فعاد أبي وملأه فعاد الرجل يتناول الملوخية بالخبز وعدنا إلى الأكل معه في صمت.

- الحمد لله.

قال الرجل بارتياح بعد أن أخذ شهيقا طويلا زفره بهدوء ثم سأل أبي:

- هل أجد عندك سجائر؟

- سجائر وشاي أيضا.

أجاب أبي وأشار لي أن أدخل إلى الحجرة أحضر علبة السجائر. نهضت بسرعة وعدت بسرعة ومعي علبة «الهوليود»، لكني وجدت «عم دميان» يعطي كلا منهما سيجارة من علبته. تركت علبة السجائر لأبي ودخلت إلى الحجرة وعدت ومعي «عدة الشاي» الذي رحت أعده لهم على موقد كحولي صغير. سمعت أبي يقول للرجل:

– هل جئت من المحلة الكبرى إلى هنا على قدميك؟

– وسوف أستمر إلى ليبيا.. هل بقي لي الكثير؟

– الكثير جدا.

قال «عم دميان» ثم أضاف:

– لكن الذي جعلك تصل إلى هنا يجعلك تصل إلى هناك بإذن الله.

وسكت الجميع قليلا حتى قال الرجل:

– المشكلة أني أمشي الآن في صحراء. من قبل كنت أمشي في الريف. أنا لا أعرف ماذا يمكن أن يحدث لي بعد ذلك؟

– المهم ألا تترك شريط السكة الحديد..

قال أبي ذلك، ثم أضاف «عم دميان»:

– ستجد تقريبا كل عشرة أميال محطة سكة حديد، وسكنا لعمال السكة الحديد صغيرا مثل هذا السكن الذي نعيش فيه.

وتابع أبي الحديث:

– تستطيع طبعا أن تنزل على أهل السكن فتأكل وتشرب كما فعلت الآن.

وعاد الصمت من جديد. قدمت براد الشاي إلى أبي لأنه يحب أن يوزعه في الأكواب بنفسه، ويضع السكر بطريقته، ولم أستطع أن أمنع نفسي من النظر إلى وجه الرجل.. كانت له عينان ثاقبتان. لماذا يذهب هذا الرجل إلى ليبيا مشيا على الأقدام؟ ماذا قال لهما وأنا أحضر عدة الشاي من الداخل؟ وبينما راح أبي يصب الشاي في الأكواب تساءل الرجل:

– ما اسم هذا البلد؟

– برج العرب.

أجاب أبي وتابع «عم دميان»:

– بعدها «الغربنيات» ثم «الحمّام».

– أنا سمعت عن «الحمّام» هذه.

قال الرجل فقال أبي وهو يقدم إليه كوب الشاي:

– ولابد أنك سمعت عن «العلمين» و«الضبعة» و«سيدي جلال» و«مرسى مطروح».

– فعلا سمعت عنها جميعا. وعن «السلوم» أيضا على الحدود..

ورشف من الشاي رشفة طويلة فقال «عم دميان»:

- إذن أنت تعرفها أحسن منا وستصل بإذن الله.

ورأيت أبـي يقف ويجذبني من ذراعي فوقفت ودخلت معه إلى الحجـرة، قال لـي أن أضع بعـض أرغفة الخبز الجاف في سـلة من الخـوص، وأحضـر من صفيحـة الجبنـة القريش ثلاث قطع كبيرة وأضعها في السلة أيضا ثم قال: «هذا عابر سبيل يا إبراهيم»..

عدنا ووضع أبي السلة جوار الرجل الذي انتهى من شرب شايه، صب له أبي كوبا آخر، وقال «عم دميان» للرجل:

- إذن تركت أولادك وزوجتك.

- لهم رب.

وشرب الكوب الثاني بسرعة ووقف حاملا السلة في يد، والصرة التي كانت في يد ورأيتُ أبي يضع له في جيب سترته «ربع جنيه» ثم يترك علبة السجائر «الهوليود» في السلة الخوص. وقال عم دميان:

- انتظر لحظة.

وأسـرع إلى حجرته ليعود ومعه «زمزميـة» صغيرة في يده، وفي يـده الأخـرى «ربع جنيـه» وضعه في سـترة الرجل أيضـا، ثم وضع الزمزمية داخل السلة الخوص وقال باسما:

- كيف تمشي يا رجل في الصحراء بدون ماء؟!

ولا أعـرف فيـم كان يفكـر الرجـل ذلـك الوقـت، رأيتـه مطرقا إلـى الأرض في خشـوع، ورأيت «عـم دميان» يلتقط علبة سـجائره «المعدن» من فوق الأرض ويضعها في السلة.

- لا تؤاخذوني.

قال الرجل فقال أبي:

- كنا نود أن تبيت معنا الليلة.

- أنا أمشي بالليل وأنام بالنهار.

قال ذلك وانطلق يمشي وسط الظلام دون تسليم أو سلام.

«1989»

***

بعد وقت قليل من كتابة قصة (كان يعرف أسماء البلاد) عن هذا المسافر وحده في الصحراء شرعت في كتابة الرواية التي استغرقت كتابتهـا سـت سـنوات. ولكـن كان لذلك سـبب آخر. كأنمـا أدرك الكون ما صار يعتمل في روحي من رغبة فتداعت الأسباب. هكذا صرت أعتقد بثبات.

فـي صيف عـام 1990 كنـت في طريقي مع أسـرتي إلى مرسـى مطروح لنقضي أسـبوعا هناك. توقفت بسـيارتي في العلمين لنرتاح قليلا فـي كافتيريا صغيرة. وجدت أمامي متحـف العلمين الصغير.

وهنا انفتحت عيناي بالدهشة. وبدأ الماضي البعيد يستيقظ. هنا دارت المعركة الفاصلة في الحرب العالمية الثانية. أخذت أسرتي إلى المتحف ورحت أحكي لهم حكايات الحرب. وخرجنا من المتحف لآخذهم إلى مقابر الكومنولث. تفرق أبنائي وكانوا صغارا بين المقابر يضحكون ولم يعودوا يستمعون إليَّ. وراح أكبرهم يلتقط لهم ولنا الصور. وشردت أنا بعيدا عنهم أتذكر أبي. عادوا يجلسون في الكافتيريا مع أمهم ووجدت نفسي أمشي بعيدا عنهم حتى أصل إلى محطة السكة الحديد الصغيرة. وجدتها كما وصفها لي أبي لم تتغير. فقط في الطريق بعض البيوت الصغيرة لم تكن موجودة أيام الحرب. كان البدو يعيشون بعيدا ولا بد أن ازدياد أعدادهم جعل بيوتهم تزحف وتقترب من المحطة. عدت إلى أسرتي فنظرت لي زوجتي وسألتني عن سر شرودي. قلت لها تذكرت أبي والحرب العالمية هنا. سأعود من مرسى مطروح وأبدأ في كتابة رواية حلمت بها كثيرا عن الحرب العالمية الثانية. لكني كالعادة لم أبدأ في الكتابة إلا بعد انتهاء الصيف.

كنت أعرف أنني سأكتب رواية مختلفة. وسأجد نفسي في قلب التسامح الذي شكل حياة البشر في المدينة عبر التاريخ. وتحت الموت والدمار أيضا. لكن هذه المعرفة بتاريخ المدينة التي كانت باعثا على الكتابة كما كانت الذكريات لا تغني عن محاولة الذهاب إلى هناك. إلى زمان الرواية نفسه ومكانها. إلى عام 1939 حين

بدأت الحرب العالمية وحتى نهاية عام 1942 حين انهزمت جيوش المحور في العلمين وانسحبت من إفريقيا كلها. كيف كان يعيش الناس حياتهم يوما بيوم. المعرفة التاريخية والسياسية وحدها ليست كافية. الحياة اليومية هي حياة الرواية. لذلك أخذت طريقي إلى دار الكتب المصرية على الكورنيش ببولاق. وبدأت رحلتي مع الصحف. وبالذات صحيفة الأهرام التي وجدتها الأكثر اهتماما بما يحدث في مصر والعالم. قرأتها يوما بيوم منذ بداية سبتمبر 1939 حتى نهاية نوفمبر 1942. كان انشغالي بالأحداث الكبرى. أجل، وبالأشياء الصغرى والعادية بل والغريبة. وهكذا رحت أدون ما أراه مناسبا للرواية من وقائع سياسية وحربية والأهم هوالحياة اليومية للمصريين عامة والسكندريين خاصة. أسعار كل شيء حتى سعر علبة الكبريت وماركات كل الملابس وأسماء الأفلام المعروضة والمسرحيات وأنواع السيارات وأسماء الممثلين المصريين والعالميين والكتاب والصحفيين والموسيقيين وأنواع الرياضات التي يمارسها المصريون ومسابقاتها وأسماء النوادي والملاهي الليلية والصحف والمجلات الأخرى والكتب الصادرة والبرامج الإذاعية والقضايا التي تشغل الناس والحوادث اليومية. قتل أو سرقة أو غيره، وأنواع الملابس والموضات وحتى الملابس الداخلية للرجال والنساء وأسماء المحلات الشهيرة والمقاهي والإعلانات والمشروبات وكل ما يجعلني أعيش هناك. وجدت حماسا رهيبا في روحي حتى أني توقعت الانتهاء من الرواية بسرعة

فذهبت إلى المرحوم الكاتب الجميل مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة الهلال ذلك الوقت وأخبرته بمشروعي. قلت له إنه في عام 1992 ستكون الذكرى الخمسون للمعركة ولابد سيكون احتفال كبير من الأجانب الذين لايزالون أحياء أو من أسرهم ومن الدول التي شاركت أو على الأقل انتصرت في الحرب وهكذا يمكن أن تصدر الرواية في أكتوبر من نفس العام. ذكرى بداية المعركة. اتفقنا على ذلك لكني لم أذهب إليه إلا في أبريل عام 1996. تأخرت أربع سنوات يا عزيزي، وضحكنا، وحكيت له قليلا مما فعلته وتسبب في تأخري. لم يكن ما أجمعه من الصحف من معلومات فقط ولكن رحلات قمت بها إلى الإسكندرية عامة وإلى مواقع الأحداث خاصة وإلى الساحل الشمالي حتى مرسى مطروح أدرس المكان. كان ذلك يحدث تقريبا مرة كل شهر.

تعددت زياراتي لأحياء الإسكندرية الشعبية التي عشت فيها طفولتي وصباي. وكنت أزورها ليلا وأدخل البيوت أشم رائحتها عند الفجر والناس نيام وأخرج أبحث عن مقهى لا يغلق أبوابه وأجلس لأنتظر خروج الناس في الصباح إلى أعمالهم وخروج النساء إلى بلكوناتهن لجمع الغسيل أو نشره. كنت أفعل ذلك مرة كل شهر في الشتاء كما قلت، لكن في الصيف كنت أفعله كل أسبوع وأحيانا كل يوم حيث أقيم وأسرتي بالمدينة وقتا طويلا. زرت مقابر الكومنولث مرات عديدة ومشيت في الصحراء بعيدا عنها

وخلعت حذائي ومشيت حافيا أشعر بملمس الرمال. فعلت ذلك كله في الصيف والشتاء والربيع والخريف والنهار والليل وهكذا تركت روحي تتشبع بالتجربة وكنت أعرف أن ذلك كله سيظهر في الرواية دون أن أشير إليه. ستظهر الحواس الخمس فيها وستشم رائحة مكانها وتشعر بطعم زمانها. سافرت إلى كل مكان ستمر الرواية عليه في مصر ومن سفراتي بعيدا عن الإسكندرية والساحل الشمالي زيارة إلى دير العذرا بقرية درنكا بأسيوط. وهو الدير الذي ستنتهي إليه كاميليا بعد أن تعقدت قصة حبها مع رشدي المسلم بسبب رفض أهلها المشوب بالدهشة وأصولهم الريفية فلا تجد طريقا إلا الرهبنة والبعد عن الدنيا كلها. كانا تلميذين في الدراسة الثانوية لم يعرف أحدهما بديانة الآخر إلا متأخرا فلم يقفا عند ذلك واندفعا في حب رومانتيكي صاخب. قررت كاميليا الالتحاق بالدير لتكون راهبة فيما بعد. وقرر رشدي أن يبحث عنها فطاف البلاد على قدميه من الإسكندرية يبحث عنها حتى وصل إلى الدير في أسيوط. ذهبت لزيارة الدير لأرى كيف سيكون مشهد اللقاء بينهما وطفت داخل الدير مع أحد الرهبان يشرح لي تاريخه وكيف اختبأت العذراء مريم مع ابنها المسيح به وكيف تتجلى به أحيانا في شكل نور يمشي جوار الجدران. وجدت الدير في الأصل كان مغارة نحتها المصريون الفراعنة في الجبل يصعدون إليها وقت الفيضان. وبين الدير والقرية منحدر كبير هو الذي استخدمته في

الرواية يقف فيه الناس منتظرين طلعة الأم الجديدة كاميليا التي صارت لها معجزة شفاء المرضى والتي رأت العذراء تتجلى لها أكثر من ليلة ومن هدي نورها كانت ترى رشدي قادما على قدميه في البلاد حتى إذا جاء إليها ووقف مع الحشود التي تنتظر بركتها، باركته وأدرك كلاهما أن القصة انتهت وعادت إلى الدير تعتكف لا تكلم الناس إلا رمزا! كانت زيارة رائعة للدير أوحت لي بالكثير ورافقتني فيها الكاتبة هالة البدري. كنا في الأصل في مؤتمر ثقافي في أسيوط وأخبرتها برغبتي في زيارة الدير فجاءت معي.

هداني شكل الصفحة الأولى لجريدة الأهرام إلى شكل الرواية. كانت الصفحة الأولى من الجريدة تحمل أعلاها عنوانا عن الدمار الحادث بالعالم والحرب، مثل «استسلام 80000 جندي إنجليزي في سنغافورة للقوات اليابانية».

أو «الغارات على بولندا تتسبب في إطلاق الحيوانات المفترسة من حديقة الحيوانات». أو «مئة ألف قتيل على أبواب ستالينجراد» أو «قوات النازي تقوم بحرق آلاف الأسرى بالاتحاد السوفييتي». أو «هجوم الطائرات اليابانية على بيرل هاربور» أو غيرها من أحداث الحرب الكبرى. وعلى يمين الصفحة تفصيل لما جاء في الخبر الرئيسي وعلى اليسار أخبار أخرى أقل دموية لكنها عن الحرب والموت أيضا وكذلك أسفل الصفحة لكن في وسطها وبين هذا الدمار كله صورة للممثلة الأمريكية هيدي لامار بالمايوه

وسؤال: هل تتزوج هيدي لامار بعد وفاة زوجها؟ أو صورة لفتاة جميلة بالمايوه البيكيني وتحتها اكتشاف وجه جديد للسينما هي سوزان هيوارد على شاطئ ميامي. هكذا دائما في كل يوم الوجوه النسائية الجميلة تطل علينا وسط الخراب وأسفل الصفحة من اليمين إعلان عن مقوٍّ جنسي ومن اليسار عن مشروب البيرة العائلي أو غير ذلك من الإعلانات التي تحتفي بالحياة. من هذه الصفحة الرائعة جاء شكل الرواية وطريقة كتابتها. فالتسجيل هنا ليس كما فعلت أول مرة في رواية «في الصيف السابع والستين» لمعنى سياسي. لا. هنا حاولت أن أمسك بالحياة. خبر عن هتلر بعده خبر عن بيت دعارة أو خبر عن تشرشل بعده خبر عن فيلم أو مسرحية. خبر عن الملك بعده خبر عن حلاق أو كمساري بحيث لا تجد نفسك تفكر إلا في هذه الحياة وكيف حقا تمضي سعيدة وسط الحرب. وطبعا لم أكتفِ بذلك فعدت إلى بعض الصحف الأخرى مثل المصور والأخبار لكن الأهرام كانت زادي الأكبر. كما عدت إلى كثير من كتب الساسة والقادة العسكريين ودراسات اجتماعية وغيرها عن ذلك العصر. احتوتني الأحداث واستغرقتني الرواية فصرت أنادي القريبين مني بأسماء شخصيات الرواية ويسبب ذلك لبعضهم الدهشة ولا يسألوني عن السبب حرجا ربما أو شفقة وفي الأغلب دهشة. فقط جرسون مقهى البستان هو الذي سألني مين يا أستاذ إبراهيم دميان ده اللي كل شوية تناديني باسمه. كان اسمه «إمام» وكنت أعرف ذلك طبعا منذ سنوات لكن هكذا

صار الأمر. ورغم أني ضحكت إلا أني عدت أناديه بدميان قاصدا أحيانا لنضحك وغير قاصد كثيرا. قررت أن تكون روايتي التاريخية ذهابا إلى هناك دون أي أفكار مسبقة. لقد بلغ امتزاجي بشخصيات هذه الرواية وعالمها حدا جعلني خارج الدنيا أعيش معهم زمنهم العجيب ولا أنسى صباح يوم جمعة كيف كدت أموت بسبب هذه الرواية. كانت زوجتي قد اعتادت كل خميس أن تطهولنا عددا من فطائر البيتزا التي يحبها الأولاد يكفي أيضا لليوم التالي، الجمعة، الذي ستأتي فيه الشغالة لتنظيف البيت وتنشغل هي معها. أمضيت الليلة أكتب كالعادة حتى الساعة الأولى من الصباح. تركت غرفة مكتبي ومشيت إلى الصالة فوجدت ابني الأكبر زياد الذي كان في المرحلة الثانوية ذلك الوقت يجلس على الأرض لا أعرف لماذا ويضع أمامه قطعة من البيتزا فوق طبق ويأكل منها. لماذا صحا مبكرا؟ لا أعرف. ابتسمت وانحنيت وأخذت بأصابعي من طرف البيتزا الناشف قطعة لم تزد على الملليمترات ووضعتها في فمي ضاحكا فإذا بها تدخل في القصبة الهوائية. كانت صغيرة جدا. أحسست بالاختناق وتصورت أنها تقف في المريء فأخذت نفسا عميقا فازداد دخولها للقصبة الهوائية. اختنقت وضاعت أنفاسي وصرت لا أستقر في مكاني وصرخ ابني فاستيقظت أمه وأخوته ورأوا المنظر الغريب. الأب يختنق. صرخت زوجتي. كح كح كح ووطي وطي بينما أنا أنتفض أمامهم وراح ابني الأكبر يضرب على ظهري بقوة وهي الطريقة العادية في مثل هذه الحالات لكنه

كان يضرب بقوة كبيرة جدا تناسب رعبه من أن أموت. وانحنيت كما صرخت زوجتي ورحت أسعل وفي لحظة فقدت الحياة. فعلا فقدت الحياة. لحظة لا أعرف مقدارها ولكن من المؤكد أنها أقل من الثانية. رأيت نفسي في طريق طويل أبيض يملأ الجليد أرضيته حتى نهاية البصر، وعلى الجانبين أعمدة تليفونات مثل التي نراها على جانب السكك الحديدية بيضاء كلها والأسلاك تمتد بينها مغطاة بالجليد وعليها يمام صامت ساكن متجمد من الجليد وعلى الأرض بامتداد الشارع على الجانبين نساء عجائز يجلسن مربعات ويضعن رؤوسهن بين أيديهن وشاخصات لي بعيون لا تتحرك من الجليد. وصوت الشاعر أمل دنقل في الفضاء يقول: أترى إن فقأوا عينيك ووضعوا لؤلؤتين أفترى؟كأنما كان يعلق على هذه العيون المتجمدة من الجليد. لحظة أقل من الثانية وكانت قطعة البيتزا التي لا تزيد على المليمترات قد سقطت على الأرض وأحسست بالعالم قد اتسع ووجدت نفسي أسرع إلى الغرفة الداخلية أتمدد على السرير غير مصدق وكلهم خلفي يبكون فرحا أو رعبا. لم أكن في بيتي حين انحنيت على بيتزا ابني آخذ قطعة منها. كنت هناك مع رشدي وكاميليا وكنت انتهيت من الفصل المؤثر جدا وهما يتنزهان على ترعة المحمودية بالقارب الصغير ويزوران الريف القريب ويعودان بالقارب. وهو فصل من أجمل فصول الرواية كما أجمع كل من قرأها أو كتب عنها، انتهى بهما بعد سعادة اليوم الرائع برؤيتهما لجثة تطفوعلى الماء نذيرا بالشؤم القادم.

قلت أني قررت أن لا أعيد تفسير التاريخ وفقا لنظرتي لما يحدث حولي. أحاول أن آخذك إلى الحياة بحلوها ومرها وذهبت هناك دائما روحا وكدت أذهب جسدا! قلت لنفسي ما معنى الروايات التي تعيد تفسير التاريخ وفقا لنظريات الحاضر السياسية. هذا كله قابل للتغير. ما معنى أن أحيي أشخاصا ماتوا لأعطيهم أفكارا سياسية لم يعرفوها. هذا حتى حرام ففيه انتهاك لحرمة الموتي! ربما أفعل ذلك لأعيد تفسير حياتهم وفقا لمقولات فلسفية. هذا هو الأبقى. كذلك فعل ألبير كامي مع كاليجولا مثلا. جعله يبحث عن تحقيق المستحيل. أما أن يحمل الحسين أفكارا اشتراكية أو تكون الأندلس رمزا على فلسطين وغير ذلك فلا طاقة لي به لأنه سهل. الصعب أن تذهب إلى هناك. لكني ألتمس العذر للجميع ولا أدين أحدا. لا الكتاب ولا النقاد الذين يندفعون في التحليل ولا يقولون الحقيقة وهي أنها أعمال سهلة تفتح لك ساقيها من أول نظرة! كذلك وأنا أذهب إلى هناك، أيام الحرب، لم أدن أحدا من الفاعلين في سياسة العالم. لا هتلر ولا موسيليني ولا غيرهما فيما فعلوا. تركت الأحداث تتكلم وقررت أن يختلط الجاد بالهزل والكبير بالصغير وكان دليلي صفحة الأهرام من ناحية والحوادث اليومية من ناحية أخرى. أجل. رواية تاريخية يعني أن تذهب بالقارئ إلى زمن لم يعرفه أو يعيشه. تخاطب روحه لا عقله. ولذلك قدمت الفصل الأول من الرواية بحكمة فرعونية تقول «الإنسان طين وقش، والله صانع الفخار» إشارة من بعيد أنه هكذا جرت الأقدار، والإدانة أو التأييد ليسا من عمل الكاتب. الكاتب ليس سياسيا. كل الأفكار السياسية تتغير لكن الروح الإنساني هو الذي يتجاوز الأفكار. ولأن الرواية عن الحياة تحت الموت كان من الطبيعي أن يكون كثير من تصرفات الشخصيات مفارقة لما هو عادي، ساخر أو عجيب، وأخذ التسامح الذي كان جوهر الحياة مكانه، والمكان الذي تجري فيه معظم الأحداث دليله، حيث يعيش المسيحيون مع المسلمين نسيجا واحدا. لذلك جاءت قصص الحب الكبرى بينهم وقصص الصداقة كأنها أمر عادي وكانت كذلك فعلا. ورغم إغراء السرد بالحكايات العجيبة إلا أن ما فعلته من قبل باحتفاء بالصورة قبل الحكي مشى معي في الرواية، وأخذ شكله الأكبر في الغارات تحت الموت والناس في الخنادق. مجد الدين يتلو أدعية دينية وسورا من القرآن وديمتري يتلو من الإنجيل. ثم تختلط الآيات فتقرأ «يس والقرآن الحكيم» «أيها الرب إلهنا» «على صراط مستقيم» «لا تدخل أحدا منا في تجربة» «تنزيل العزيز» «نجنا من الشرير» «ما أنذر آباؤهم» «من أجل ضعفنا» «على أكثرهم لا يؤمنون» «نخرج من التجربة» «وجعلنا من بين أيديهم سدا» «التي لإبليس» «فهم لا يبصرون» «آمين آمين» البعض فسر ذلك برغبتي في إنشاء نص واحد إنساني جديد. ومن المؤكد أنه كان في روحي شيء من ذلك يشير إلى وحدة النص المقدس رغم اختلاف الأديان لكن

أيضًا الحقيقة التي أعترف بها أنني كنت أحاول أن أصنع صورة. فالاثنان يرتلان في وقت واحد. والكتابة العادية ستجعلني أقول وقال مجد الدين كذا وكذا بينما كان ديمتري يقول كذا وكذا. بل فعلت ذلك في البداية وأنا أصف للقارئ حال الجميع في الخندق تحت الغارات، لكن حين تشتد الغارات ويشتد الخوف يتسارع إيقاع كلاهما في الترتيل. وهنا وجدت أن الإجابة على سؤال كيف أوصل إليك أنهما يتلوان في وقت واحد دون تدخل أو إشارة مني. كانت الإجابة يختلط ما يقولانه أو يمتزج. هذا هو الطبيعي إذا استمعت إليهما معا. وهما يقولان ذلك معا بالفعل. وربما، بل ومن المؤكد أن ذلك كان وراء المزج الأخير بين اسم دميان الذي مات بالغارة الجوية ورآه مجد الدين يصعد إلى السماء في شكل ماري جرجس وبين سورة الرحمن. هنا لا أنقل صورة لكن هنا يمكن أن يقال إن دميان صاحب الاسم النوراني وحزن مجد الدين الكبير يمتزجان بالسورة الرائعة في القرآن الكريم، ولا يشعر مجد الدين بأي اعتداء على النص الديني، فلقد فقد توأم روحه في الحياة وليس إلا سورة الرحمن الجميلة تواسيه، وهو لا يدري ما يفعل. يتساءل مجد الدين في نفسه في ألم، هل كان لابد أن يأتي إلى الإسكندرية ويقابل دميان؟ «دميان دميان». «الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علمه البيان، الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان» «دميان دميان» «والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا

في الميزان» «دميان دميان» ويرتفع صوته فجأة ثم يتلاشى ويرتعش ويقول في نفسه فبأي آلاء ربكما تكذبان كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فبأي آلاء ربكما تكذبان «دميان دميان». وهكذا. لقد صار دميان من نسيج حياة الصديق المسلم!

لا أكتمك عزيزي القارئ أنني لم أضع أقواسا بين النص الإسلامي والنص المسيحي. كنت أراها هكذا تعبر عن فكرتي الفنية. التلاوة في وقت واحد في الخندق، وحزن مجد الدين على صاحبه دميان الذي جعله يتذكره بين ما يقرأ من القرآن الكريم. رأيتها هكذا أكثر فنية. وأنا يهمني الفن قبل أي شيء، ولكن كل من نشر هذه الرواية وضع الأقواس. وأنا أضعها هنا من البداية لأني أعرف أن ذلك سيحدث، وللناشر أي ناشر حقوقه ما دامت خسارتها قليلة قد تفوت على القارئ. رغم أن الأقواس تلفت نظر القارئ إلى المصدرين المختلفين للنص وقد يبعده عن الحالة الروحية التي فيها الجميع.

رواية «لا أحد ينام في الإسكندرية» تسعة وعشرون فصلا. حاولت أن أصل بها إلى ثلاثين فصلًا فلم أستطع. كنت أود لا أعرف لماذا، أن أفعل ذلك. ربما كنوع من التوازن. فالفصول العشرة الأولى هي استقبال لعائلة مجد الدين في الإسكندرية ودخولها في حياة المدينة وظهور القصص والحكايات الأخرى، والفصول العشرة التالية هي تطور ونمو هذه الحكايات كلها.

والفصـول الأخيـرة أشـبه بالـوداع للمدينـة وضيـاع القصـص بعد أن انتقـل مجـد الدين وزميلـه دميان مـن العمل في السـكة الحديد بالإسكندرية إلى العمل في العلمين. ورغم معرفتي القديمة بالمكان مـن حكايات أبي. ورغم معرفتي بأماكن أخـرى معه أيضا مثل برج العـرب والعامريـة. ورغم زياراتي لهذا السـاحل الغربي وقت كتابة الرواية، إلا أني قمت بدراسته دراسة تمهيدية تجعلني أكتب الفصول التسـعة الأخيرة في الرواية التي وقعت كلها تقريبا به في ثقة وتشبع. انتهت هذه الدراسـة إلى مقالة كبيرة عن المكان نشرتها بعد الانتهاء من كتابة الرواية في جريدة الحياة اللندنية. لم يكن هدفي من كتابتها أو نشرها إلا أن أؤكد حالة الاستغراق الروحي لي في المكان، التي لم تغادرني حتى بعد كتابة الرواية. وفيما يلي الدراسة.

ساحل مريوط..

«مرايا المدن الصحراوية»

هل أسـتطيع الإمسـاك حقًّا بالحكايات القديمـة؟ لكل الأطفال حكايات الجن والعفاريت واللصوص والثعالب في ليالي الغضب، وحكايات البلبل والأميرة والشـاطر حسـن وعقلة الإصبع في ليالي الرضا العائلي. نسـيت حكايات جدتي عن الريف. نسيت حكايات أمـي فـي ليالي الرضـا والغضـب. حكايات أبـي نفذت فـي الروح واستقرت. ولابـد أيضـا أنهـا أحاطتني بسياج مـن عجائبهـا. إنها

حكايـات الحرب العالميـة الثانية، بصفة عامـة، وحكايات العلمين بوجه خاص، التي امتزجت في روحي بالإسكندرية.

العلميـن!! مـن منـا لـم يسـمع بهـذا الاسـم؟ إنـه معركـة مصر وإسـهامها العظيم فـي الحرب العالمية الثانيـة. الأرض حاربت مع الحلفـاء، وذلك عرفتـه فيما بعد، فهي ليسـت معركة مصـر باعتبار وقوعها فيها كما قصد تشرشل.

رأيـت العلمين. لـم تكن أكثر ممـا قال أبي. محطة سـكة حديد صغيـرة لـم يكن القطـار يقف عندها طويـلًا، جاءت جيـوش الدنيا لتقـف حولهـا وتقتتل. ما تبقى مـن القتال الآن هو المقابر الشـهيرة لجنـود الكومنولـث وجنـود المحـور أيضًـا وجنـود فرنسـا الحرة والفيلـق اليوناني، تلك التي يأتيها الأبناء والأحفاد والأقارب طوال العـام مـن كل الدنيا لزيارة مفقوديهم. وقامـت حول المحطة بضعة بيـوت صغيرة من حجر يعيش فيها قليـل من البدوالذين تركوا خيام الوبر.

«قال لي أبي إنه انتقل للعمل في محطة سـكة حديد العلمين في الأسـبوع نفسه الذي نشـرت فيه الصحف نبأ تسلم (روميل) الفيلق الإفريقـي مـن جرازياني الإيطالـي الذي تعرض لهزائـم متتابعة من البريطانيين، وأنه أبي، فكر في إمكان مقابلة روميل وجهًا لوجه. لقد أحس أن روميل سيأتي إلى العلمين».

قلت:

- لماذا لا تذهب إلى الطبيب يستأصل لك هذه الندبة في إصبعك؟

تأملني مليًا وقال:

- لماذا الطبيب، يمكن أن تفعلها أنت.

كنت في الثانية عشرة من عمري، قال:

-إنها ميتة. هات الموس.

أحضرت له الموسى، وأنا أفكر لماذا ترك هذه الشظية أعلى السبابة بعد انفجار أحد الألغام الصغيرة فيه بعد الحرب كل هذا الوقت، ولماذا وافق على استئصالها اليوم؟

مد لي إصبعه، وطلب مني استئصال اللحم الزائد بالموسى، فجفلت. أمسك بالموسى وشق اللحم المتجمع فوق الإصبع بلا أي ألم، وأخرج منه شظية سوداء في حجم خرزة صغيرة وقدمها لي، فأمسكت بها وشعرت بصلابتها وخشونتها بينما استأصل هو اللحم الزائد، ثم لف إصبعه بقطعة شاش.

«كان قد حدثني كثيرًا عن هذا اللغم الذي انفجر فيه فأصاب فخذيه وبطنه بثقوب عديدة وكيف داواه البدو بطريقة عجيبة، حيث كان طبيبهم يأتي بدهن الغنم ثم يذيبه على النار ثم يسكبه في

الثقوب التي ملأت ساقي وبطن أبي حتى التأمت. لم يتركني ألقي بالشظية، ولم يتخلص هومنها. وضعها في كوب نظيف وضعه على رف بالحمام، ومع الوقت اختفت ولم يسأل أحد عنها.

امتلأت منذ الخامسة من عمري بالحكايات الغريبة عن الحرب التي لم أرها وكبرت أبحث عن العلمين. وجدتها أكبر من حكايات أبي عن السائق الهندي والفرقة الأسكتلندية ومشاهد القتلى والهروب في الصحراء ومشاهد البدو والحيوانات التي تفر على غير هدى تحت الطائرات وأمام القذائف ولغات أبناء المستعمرات التي لم يكن يفهم منها شيئًا وجروحه هو وإصابته. أحسست أني منذور لرؤية العلمين ومعرفتها لكني وأنا أفعل ذلك تذكرت أني قطعت مع أبي رحلات كثيرة على طول ساحل مريوط، والعلمين مدينة صغيرة على هذا الساحل تكبر بسرعة مدهشة، الساحل كله يتغير معها، ليس مجرد مكان تغتاله القرى السياحية لكنه تاريخ أيضًا وإن لم يدرك ذلك المستثمرون.

جريان في التاريخ:

ساحل مريوط، أو ساحل ليبيا كما أسماه القرطاجنيون قديمًا، هومدخل مصر الوحيد من ناحية الغرب بالطبع قبل ظهور الطائرات والصواريخ منه جاء الحاكم الليبي (شيشنق الأول) لغزو مصر عام 945 ق. م، وأسس الأسرة الثانية والعشرين. وعلى الساحل نفسه خرج (إيريس الأول) رابع ملوك الأسرة السادسة والعشرين

المصرية عام 588 ق. م قاصدًا (قورينا) في برقة بليبيا لتخليصها من حكم الإغريق لكن غزواته لم تنجح.

وعلى هذا الساحل نفسه، مشى الإسكندر الأكبر عام 323 ق. م مخلفًا الإسكندرية التي لم تتم خلفه لزيارة معبد آمون في سيوة، وأكمل بطليموس الأول الإسكندرية، ثم قطع الساحل أيضا إلى قورينا في ليبيا، وخلصها من حكم الإغريق وضمها إلى مصر.

حركة الذهاب والإياب لم تنقطع على الساحل، وبعد هزيمة كليوباترا وابتداء العصر الروماني، صار الساحل أكبر مكان لزراعة الغلال بعد وادي النيل، ثم تدهور وتقطعت الحركة عليه أو كادت حتى فتح العرب مصر، وخرجت عليه الجيوش غازية إفريقيا والمغرب. لقد كان ذلك الوقت رغم التدهور حدائق متصلة من الإسكندرية إلى برقة، ذلك مذكور في كتب المؤرخين القدامى.

على أن من أشهر من مروا على الساحل، القبائل العربية المهاجرة من نجد والحجاز، قبائل بني سليم وبني هلال الشهيرة، ثم الجيوش الفاطمية التي جاءت إلى مصر من أقصى المغرب العربي، هو إذن طريق ذهاب وإياب تاريخي، وإن ترهل الوقت بين خروج ودخول، وسيكون طريق ذهاب وإياب للجيوش أثناء الحرب العالمية الثانية، لكنه طريق ذهاب وإياب سريع دائمًا. لقد تقدمت الحروب ولم يعد الجنود يتحركون على الخيل والأقدام. لكن من هم أولئك الذين سكنوا الساحل كل هذا الوقت؟

في البداية، سكنه اليونانيون والبطالمة المصريون العاملون في الزراعة أو الخمور أو صناعات الزجاج والفخار، ثم ازداد المصريون بعد أن دخلت المسيحية مصر وازداد اضطهاد الرومان للشعب، فراح يفر إلى الصحراء الغربية. كتب التاريخ تذكر دائما الفرار إلى الجنوب وقليلًا ما ذكرت الفرار إلى الساحل الشمالي.

بعد الفتح العربي، تحركت عليه القبائل ذاهبة آيبة في الحرب والسلم. يمكن طبعًا تتبع حركة القبائل في مصر في كتب مثل (كتاب العبر) لابن خلدون أو (نهارية الأرب في معرفة أنساب العرب) للقلقشندي أو (جمهرة أنساب العرب) لابن حزم أو كتب عصرية مثل (قبائل العرب في مصر) لأحمد لطفي السيد أو غيرها، ولكن نصل بسرعة إلى ما انتهى إليه الأمر من استقرار مجموعتين من القبائل هي الموجودة الآن على طول هذا الساحل وداخله أيضًا في ولاية برقة الليبية، المجموعة الأولى هي مجموعة عرب السعادى المنسوبون إلى أمهم (سعدى) من قبيلة (زناتة) بل بنت شيخ القبيلة. وتضم عرب السعادى قبائل (علي الأبيض) و(علي الأحمر) و(السننة) ولكن يطلق عليها جميعًا (أولاد علي). المجموعة الثانية من القبائل هي قبائل (عرب المرابطين) التي تشمل قبائل (الجميعات) و(القوابيص) و(السمالوس)، وقد سموا بالمرابطين بسبب عملهم حيث كانوا يرابطون على نقاط الحراسة بينما يترك القتال لعرب السعادى. الآن قويت بعض قبائل

المرابطين لكنهم جميعًا بوجه عام مندمجون من ناحية النسب في قبائل السعادى، حتى أنهم ينسبون أنفسهم أحيانًا إلى أولاد علي.

مدن صحراوية:

للمدن الصحراوية على هذا الساحل لون وطعم ورائحة. العلمين أصغر المدن، محطة سكة حديد فقيرة، وبضع خيام للبدو، قسمت زمن حرب كونية إلى نصفين.. في النصف الأول انتصرت قوات المحور في كل معركة، وفي النصف الثاني لم تنهزم قوات الحلفاء. ولخصت البلدة الصغيرة حرب الصحراء في معركة، وصار من يذكر العلمين في العالم يعني ضمنًا، مصر، أما اللون فهولون التراب. لماذا حقًّا ليس لون الرمال؟ دائمًا أرى الناس والبيوت في لون التراب.

«فضلًا عن حكاياته، كان أبي يأخذني كثيرًا في سفراته عبر الصحراء، ورأيت تقريبًا كل المدن حتى مرسى مطروح»

وجوه البدومكشوفة، أولاد علي قبائل غير ملثمة، ليسوا مثل الطوارق مثلا في الصحراء الغربية الكبرى. وطعم المدن هوطعم الحَر المعجون بالوبر، وبر الجمال والأغنام والماعز والفراش وندرة الماء. تعرف الطعم من الرائحة ولا تجفل ولا تتململ، ولكن هل هي مدن حقًّا تلك المطروحة على الساحل الطويل؟

بمقياس الصحراء هي مدن، بدأت قديمًا كمراكز للأسواق، أو الانتجاع. كانت البضائع دائمًا الزيتون والتمر وزيت الزيتون

واللحم والأغنام والتين السلطاني والصبار والحنظل والشيح والشعير والأرانب والقنافذ والصقور والثعابين والحيَّات.

أول المدن، مدينة العامرية على بُعد عشرين كيلومترًا غرب الإسكندرية وإلى الجنوب الغربي من بحيرة مريوط الممتدة وراء ظهر الإسكندرية، ويمر أمامها الخط الحديدي الصاعد غربًا إلى السلوم.

«كان أهم قطار يقطع الصحراء هوقطار المياه، وكان يمر على البلاد مرة كل أسبوع ومن لم يستطع الحصول على حاجته من الماء تلك المرة كان يمكن أن يموت، لكن البدو الذين يسكنون عادة بعيدًا عن محطات القطارات، كانوا لا ينتظرونه. لا يشربون إلا من مياه الآبار».

والعامرية عرفت أيام محمد علي باسم (كنج عثمان)، و(كنج عثمان) نفسه كان أمير الضيافة عند الوالي. وفي عهد سعيد حملت اسم (برنجي مريوط). هذا يفسر اسم البلدة الصغيرة(كنجي مريوط) أي الثانية في مريوط، وهي ضاحية تشتهر بطواحين الهواء، هواؤها جاف طول العام، فهي مشتى ومصيف معًا ومنتجع صحي، إنها تقع في نفس زمام العامرية وإداريًّا خاضعة لها، لكنها تبدو كأن الله اختصها بهواء ساحر عجيب يتجمع في سقف الدنيا، وينزل إليها طريًّا منعشًا، فتدور الطواحين لتصعد بالماء النقي المحبوس منذ ملايين السنين ليروي مزارع التين واللوز والرمان والعنب وذكريات الزائرين. زرت كنجي مريوط أول مرة في صباي الباكر

مع أبي، الذي دفعه عمله بالسكة الحديد إلى كل هذا السفر في الصحراء. مازلت أشعر بالارتواء الذي شملني به الفضاء الندي ذو الريح الحنون الجافة. هناك مدن تدخلها فتنسى المدن الأخرى، تتلخص في حياتك بالراحة والأمان. تتشبع بالرضا والسكينة فلا يكون هناك مكان في المكان ولا زمان في الزمان. لكن العامرية على العكس من ضاحيتها الجميلة، مدينة طاردة. هي سوق كبير يلتقي فيه أبناء الصحراء بأبناء الدلتا القادمين عبر الإسكندرية ومحافظة البحيرة، ولكنها في كل وقت تبدو وكأنها مدينة (بزرميط) بلا هوية، يتكاثر عليها التراب من كل جانب، ولا علاقة لاسمها بقرية (ماريا) اليونانية القديمة التي اكتشفت بقاياها منذ أعوام قرب الساحل، ربما حملت العامرية اسمها من مرور قبائل (ربيعة بن عامر) و(هلال بن عامر) عليها في طريقها إلى المغرب، ثم أُهمل الاسم حتى قفز إلى الأذهان في عهد الخديو عباس حلمي، وربما يكون اسمها من تدخل الدولة في حركة العمران، وهذا هو الأرجح، المهم أنه لا علاقة بين الاسم وقرية (ماريا) التي ارتبط اسمها بالإسكندرية. لقد كان أهم ما أُكتشف بقرية ماريا هو معاصر النبيذ ومخازن الخمور، وربما لهذا غنى السكندريون أغنيتهم القديمة «إسكندرية ماريا وترابها زعفران».

نبتعد عن العامرية وندخل في الصحراء أكثر، الزراعة الكثيفة على الطرق الصحراوية بدأت تغير من طبيعة العامرية، تزيدها اختلاطًا. نحتاج إذن لوقت حتى تتجلى مدينة ذات هوية.

ثاني المدن التي بدأت صغيرة جدًا، وتتسع الآن، مدينة (برج العرب) على بُعد خمسين كيلومترًا من الإسكندرية. اختار الميجور (براملي) مفتش البوليس بمحافظة الصحراء الغربية سنة 1918 ربوة عالية وأقام فوقها قصرًا فخمًا جمع فيه ألوانًا من التحف، أحاطه بحديقة جميلة قطفت أنا بعض زهور اللوز منها، واللوز نفسه في صباي، مخالفًا تعليمات أبي أن لا أقترب من الحديقة التي يحرسها الحرس الجمهوري.

- لماذا أنت هنا؟

قال لي جندي الحرس الذي رأيته واقفًا أمامي فجأة.

- أنا لا أسرق اللوز.

ابتسم! كان اللوز في يدي. قلت:

- أحببت أن أرى جمال عبد الناصر.

- الرئيس في القاهرة، يأتي إلى هنا قليلًا.

وسكت وراح يتطلع إليَّ مليًا. لابد أنه كان مندهشًا من شجاعتي. سألته:

- هل يمكن أن تأخذني معك أتفرج على القصر؟

لم يوافق. طلب مني أن أكون حريصًا في المرات القادمة وأن لا أقترب من الحديقة. في عودتي رأيت شابًا بدويًا يغني بصوتٍ

عالٍ وحده ويمشي مسرعًا بين شريطي السكة الحديد. لابد وأنه على دراية بموعد القطارات حتى يمشي مطمئنًا هكذا. الوقت صيف والحرارة باهظة لكننا نقترب من المغرب، نسمة تتأرجح في الفضاء تنذر بالطراوة.

لقد انتهى الميجور (براملي) من إقامة القصر والبلدة الصغيرة تحت الربوة عام 1924، وأقام حولها سورًا عاليًا جعل له بابين يمر بينهما الطريق المعد الذي يربط الإسكندرية بالصحراء. لم يعد لهذا الطريق وجود الآن بعد إنشاء شبكة هائلة من الطرق. وزين (براملي) قصره بالأعمدة والتحف المرمرية التي نقلها من منطقة أبي مينا حيث تقع كنيسة (بومنا) أو (أبومينا) التي أقامها عام 400 م الإمبراطور (أركاديوس) على قبر القديس (سانت ميناس) الذي قتله أتباع دقلديانوس عام 266 م عندما لاذ بالصحراء من الاضطهاد.. لماذا أطيل هكذا الحديث عن برج العرب؟ ربما لتكرار زيارتها في صباي مع أبي.

تمنيت مرة أن يأتي شهر رمضان في الشتاء، كنت أرى أبي متعبًا من الصيام. كان يعيش معه زميل اسمه إبراهيم وكان مسيحيًا، لكنه كان يصوم مع أبي طول النهار ثم يشاركه طعام الإفطار.

- لماذا تصوم مع أبي يا عم دميان؟

- لأنك في الصحراء لا تستطيع أن تأكل وحدك، تحتاج إلى صاحب دائمًا، فكيف يكون معي صاحب، وآكل أنا وحدي بالنهار، ويأكل هووحده في المساء؟

ولم يكن الرجل اسمه دميان، بل كان اسمه إبراهيم صليب كما أوضحت من قبل لا أنساه. كان وجهه ناحلا شاحبا كأنه ذاهب إلى بعيد، لكني أعطيته هذا الاسم حيث كتبت عنهما بعد أكثر من ربع قرن القصة القصيرة (كان يعرف أسماء البلاد) ثم رواية (لا أحد ينام في الإسكندرية).

في مساء أحد أيام رمضان ذلك العام، كان أواخر الخمسينيات أو أوائل الستينيات وكان متعذرًا اصطحاب الزوجات. في ذلك المساء هبط علينا شخص ثالث عابر سبيل طلب الطعام هو الذي كتبت عنه القصة القصيرة، فأكل وشرب وزوده أبي وزميله بالطعام والمال والماء أيضًا.

قال العابر ذاك إنه قادم من المحلة الكبرى ذاهب إلى ليبيا مشيًا على الأقدام هاربًا من الفقر والحاجة..

«منذ ذلك الوقت لم أقابل أحدًا من المحلة الكبرى إلا وتخيلته هاربًا من الفقر والحاجة طفشان من البلاد!».

في برج العرب هذه رأيت القنافذ بالليل ملتصقة بقضبان السكة الحديد، واصطدتها وتعلمت أن أمسكها من الأمام وأعود بكفي إلى الخلف فلا تستطيع أن تشرع أشواكها، وسألت أبي لماذا يغني ذلك البدوي بصوت مرتفع وهو يمشي مسرعًا في الخلاء؟

أجابني أنه يفعل ذلك من إثر الجوع، وكلما ازداد جوعه، ازداد صوت الغناء إذن هو يتبلغ بالغناء. ما أجمله من طعام، قلت لنفسي ذلك بعد أكثر من ثلاثين سنة، أي وأنا أكتب إليك الآن. تغيرت برج العرب، وصارت بلدتين القديمة والجديدة، وأحاطتها الزراعة وامتلأت طرقاتها بالمركبات الزراعية وقاطعات الأحجار من الجبال. ولابد من الوصول إلى العلمين التي لن نصل إليها إلا بعد المرور على مدينة (الحَمَّام)، ثالث المدن أهمية في الصحراء الغربية بعد العامرية ومرسى مطروح، إنها تقع على بعد خمسة وستين كيلومترًا من الإسكندرية، ولقد قامت على أنقاض مدينة (مانوكامينوس) اليونانية القديمة، تقوم هذه المدينة كالعامرية قديمًا، حول سوق شهير يأتي إليه أبناء ليبيا من الغرب، ويقابلهم أبناء الدلتا من الشرق، فيها مسجد قديم يقال إن الذي بناه هو (زياد بن الأغلب) في طريقه لفتح إفريقيا، يعيش فيها بعض المغاربة منذ زمن بعيد، في (الحَمَّام)، تشعر برائحة المدن الصحراوية الحقيقية، يخيل إليك دائمًا أن كل ما تراه يتحول إلى سراب، حركة الناس حولك سريعة في المشي والكلام، في البيع والشراء، من الصعب الاحتفاظ بوجه في الذاكرة، إنها مدينة لا تستطيع أن تقف بها إلا متحفزًا إلى المسير، خلقت لتكون لتبادل المنفعة ثم العودة بسرعة إلى الديار، والخروج منها يعني الدخول بسرعة إلى العلمين.

«في العلمين كنت أتلقى هدايا كثيرة من الجنود الإنجليز والهنود والأفريكان. كان لدي دائمًا كميات كبيرة من الشاي والعدس والسكر والدخان وجوز الهند والشيكولاتة والولاعات القداحات وعلب الدخان المعدنية المذهبة وأقلام الحبر والكوبيا والجوارب، وكنت أرفض الخمر وأعود إلى القرية كل شهر مرة محملًا بهذا كله، فتنتظرني القرية كلها لأوزعه عليها بالمجان. كانت أمك قد تركت الإسكندرية مع الذين هاجروا منها إلى قريتنا جوار كفر الزيات، وذات ليلة طاردتنا الغارات الألمانية والإيطالية ونحن في القطار، وعند محطة كفر الزيات خيل لي أن القطار يقف بالرصيف، والحقيقة أنه كان يتجاوز المحطات بسرعة مجنونة، ما كدت أضع قدمي خارج الباب حتى طرت في الفضاء لأسقط بعد الرصيف فوق سقف خشبي لحجرة محفورة بالأرض مما ساعد على بقائي حيًّا.. فقط ضاع ما كنت أحمله، وحملني عمال المحطة إلى مستشفى طنطا لأمضي شهرين في الجبس، ثم عدت إلى العلمين غير مصدق أني نجوت. لكني سأترك العلمين لأعود إليها على مهل وتفصيل، سأقفز إلى بلدة (سيدي عبد الرحمن) المصيف الجميل زي الرمال البيضاء الذي حمل اسمه من مزار لهذا الولي البدوي الذي يحمل اسم عبد الرحمن أبو بطيخة، والبطيخة هي التي تكلمت وهي التي أشارت ببناء الضريح والمسجد والمدينة فيما بعد. لقد كان عبد الرحمن يمشي مع صديق له يعمل حلاقًا باغته بالقول بأنه يمكن أن يذبحه بسكينة في ذلك الخلاء ولا يعرف أحد، وبالفعل قام

بذبحه وتركه ومضى. بعد عام عاد الحلاق في الطريق نفسه ليقف مكان القتل فيرى شجرة بطيخ في الصحراء؟ إن الحكاية الشعبية الفاتنة تكمل عناصرها بإتقان، يحمل الشرير البطيخة ويجدها كبيرة فيهديها إلى شيخ القبيلة الذي ما إن يشقها بالسكين حتى تقطر الدم، يحاول أن يشقها مرة أخرى فتقطر الدم، يضع السكين جانبًا ويسأله، يطلب الشرير الأمان قبل أن يحكي له القصة. يعطيه شيخ القبيلة الأمان ويعرف القصة. يشق البطيخة نصفين ليجد رأس عبد الرحمن بينهما، ذبيحًا يقطر الدم، ويتكلم طالبًا بناء ضريح، فيبنون له ضريحًا ومسجدًا يزوره البدو طوال العام، لكن بلدة سيدي عبد الرحمن هذه كانت منذ زمن بعيد مصيفًا جميلًا، بل من أجمل مصايف ساحل مريوط ومن أشهرها، ولم تكن بحاجة إلى غزو القرى السياحية الذي يحدث الآن ليعرفها الناس، إنها مصيف قديم لا ينافسه إلا مدينة (برتينيوم) القديمة أو مرسى مطروح الحالية.

الحب والموت:

بعد العلمين عدة مدن مهمة، أشهرها: (الضبعة) بلدة الشمس والفراغ، يصل إليها الناس متعبين دائما بلا حركة ويبيعون ويشترون بلا هرج. بالكاد يتكلم الناس إذا سألتهم.. بعد الضبعة، مدينة (فوكة) التي حازت بعض الشهرة في الحرب العالمية الثانية قبل معركة العلمين. إنها منطقة منخفضة، تسمى أحيانًا ببئر فوكة، لا يمكن إلحاقها بالمدن الصحراوية لقلة أعداد سكانها إلى حد الندرة.

«لا أحد يصدق أننا جرينا من فوكة إلى العلمين بالليل وسط الظلام فوصلنا مع الصباح. كانت ليلة مرعبة جاءت فيها الأخبار بانطلاق قوات روميل طاردة القوات الإنجليزية أمامها، وسبقت الطائرات الألمانية والإيطالية القوات، وكان في فوكة احتياطي الجيش البريطاني من المدرعات والجنود، فظلت الطائرات تضرب المنطقة طول الليل، لقد جريت على قدمي، وسبقت الجنود بمركباتهم التي كانت تحترق ويموتون، ولم أتوقف عن الجري إلا في العلمين، جعلنا الرعب نجري أكثر من خمسين كيلومترًا!»

كلما مررت على فوكة في طريقي إلى مرسى مطروح لا أصدق أنه يمكن لأحد أن يجري من فوكة إلى العلمين، لكن لا أحد يعترف بهذا الضعف بسهولة، أي رعب كان!

ومرسى مطروح هي ميناء مصر القديم الذي كانت السفن تخرج منه إلى اليونان وتعود إليه ومنها أدارت كليوباترا معاركها مع روما، ومن الميناء أقلعت السفن لتلتقي كليوباترا بـ(أكتافيوس) في (أكتيوم) لتنهزم وتعود سابقة (أنطونيوس) زوجها وحبيبها، وفي مرسى مطروح شاطئ صغير يحمل اسم كليوباترا، كما يوجد شاطئ نصف دائري صغير يحمل اسم روميل، وفي الشاطئ حمام كليوباترا الشهير الذي كانت تقضي فيه أوقات متعتها مع أنطونيوس، في قورينا أيضًا بليبيا يوجد بأحد الشواطئ حمام، أي حوض محاط بالصخور الطبيعية يقال له حمام كليوباترا أيضًا، لكنه يختلف عن

الحمام المصري بأنه مكشوف وليس مسقوفًا بالصخور الطبيعية، كما أنه ينسب إلى كليوباترا الثامنة ابنة كليوباترا السابعة المصرية الشهيرة. على أي حال في مطروح أيضًا وفي شاطئ روميل سرداب تحت صخور الشاطئ يعد بمثابة متحف للقائد العجيب روميل به بالطو وحذاء وأشياء لا قيمة كبيرة لها وبعض صور لكنه دائما مثير للرغبة والاستطلاع.

مرسى مطروح في التاريخ إذن هي بلدة الحب والموت، لقد شهدت قصة غرام كليوباترا ونهايتها. والحب في بلادنا، مصر، عادة يقترن بالموت، منذ إيزيس وأوزوريس، حتى حسن ونعيمة، والماء يحمل العاشق القتيل دائما، حمل أوزوريس إلى ببلوس بلبنان، ثم عاد وحمل النيل أعضاءه المقطعة، وحمل النيل جثة (حسن) بين القرى، والذين عاشوا في القرى المصرية يعرفون كم يحمل إليهم النيل كل عام من جثث العشاق. وفي مرسى مطروح كدت أُقتل، لم أكن عاشقًا لامرأة من هناك ولا فتاة، كان صديق لي، محبًا دائمًا فوق العادة، قد وقع في غرام فتاة قاهرية تعمل مدرسة هناك، كان هو محبًا فوق العادة وكنت أنا مجنونًا فوق العادة وحين طلب مني أن أسافر إلى مرسى مطروح معه لنقابلها، وافقت. كنا نعرف أنها تعمل مدرسة في المدينة لكن لا نعرف اسم المدرسة التي تعمل بها، وكنا نعرف أنها من الإسكندرية لكن لا نعرف هل لها أقارب تعيش بينهم هناك أم في بيت للمغتربات، اندهشت

جدا لعدم توفر هذه المعلومات لدى صديقي العاشق، وفكرنا أن أفضل طريقة للعثور عليها أن يعرف الناس بوصولنا، ومن نحن حتى يعرفنا الناس؟ كان العام 1975، وكان الطريق بين مصر وليبيا قد أغلق بسبب الخلافات السياسية، تعرضت التجارة في مرسى مطروح إلى كساد وبوار، إذن نحن صحفيان جئنا نتقصى أحوال المدينة. قابلنا محافظ المدينة ذلك الوقت، الفريق سعد مأمون، أحد قيادات حرب أكتوبر، وقابلنا سكرتير عام المحافظة، وأمين الاتحاد الاشتراكي وأمين الشباب، وأمين تنظيم المرأة، ومسؤول التعليم، والتقينا بالناس في الشوارع، وبالمدرسين والمدرسات في المدارس، وبمديري الأمن، وكتبنا مئات الصفحات التي لن ننشرها أبدًا، واكتشفنا حياة سرية فيها تهريب ومخدرات ودعارة ورقيق أبيض، ونجحنا في أن نلتقي بالمحبوبة، كانت ضمن هواة التمثيل الذين قابلناهم في قصر الثقافة هناك، رتب صديقي معها موعدًا يقابلها فيه في الغد، وفي الليل جاءنا في الفندق أحد الشباب يطلب منا مغادرة المدينة مع أول ضوء.

-لماذا؟

-لأن البلدة كلها تعرف أنكما لستما صحفيين، وهناك من يريد قتلكما باعتباركما جاسوسين ليبيين.

- وما الذي جعلك تتطوع وتقول لنا ذلك؟

-أنا أعرفك جيدًا. أنت كاتب قصة من الإسكندرية.

لم أكن نشرت أكثر من ثلاث أو أربع قصص. هو يعرفني حقا وهو صادق. وتركنا المدينة مع أول ضوء وتركنا بالفندق أوراقنا المكتوبة وغير المكتوبة. ولما ابتعدنا بسيارة الأجرة عن مرسى مطروح انطلقنا نضحك بشراسة. لقد نجونا من موت أكيد ولم يعد صديقي إلى محبوبته. عرف أنها تزوجت.

في طريق عودتنا قال لي:

- ما رأيك لو توقفنا قليلًا عند العلمين؟

أيقظ الماضي الجميل. كان أبي قد مات. وعلى تعدد رحلاته التي أخذني فيها معه للصحراء لم يعد مرة واحدة إلى العلمين. كانت تلك إذن أول مرة أزور فيها هذا البلد الغامض. وعندما وقفت أمام القبور، ودرست طبيعة المكان، أدركت أن هذه المنطقة أعدتها الطبيعة، أعدها الله، لتكون يومًا، في القرن العشرين، أرض قتل. في العلمين الآن حركة عمران سياحي هائلة، وفي إحدى القرى السياحية «مارينا» فيلا للدكتور يوسف إدريس لم يمضِ بها وقتا طويلًا. يحمل الشارع الصغير في تلك القرية اسم يوسف إدريس. لكن الشارع نفسه بلا يوسف إدريس يختلف. بل تختلف الحياة الآن بدون يوسف إدريس عنها به، ماء آسن. يرحمه الله كان هو يحرك الماء. كان طويلًا مهيبًا مثل حراس الحقول. قال لي آخر

مرة التقيته إن العلمين أجمل مكان في العالم، هل كان يقصد البحر الممتد أم القرية السياحية، أم كان يقصد العظمة التاريخية للمكان خلف البحر وإلى الجنوب؟

العلمين فاصلة زمن الحرب:

«كنت أعمل في محطة سكة حديد بالعلمين، لم تكن هناك حركة يعتد بها للركاب. قليلًا ما كان يغادر البدو نجوعهم المتفرقة بعيدًا عن المحطة إلى سوق (الحمَّام) أو (العامرية). كانت القطارات تقذف بالجنود. وقطارات البضائع تقذف بالدبابات والمدافع. انتقلت من العلمين إلى فوكة والضبعة مرتين كل منها لعدة أيام، عندما بدأ روميل هجومه الكبير، سبقت الجيوش المرتدة جيوش الجمال والأغنام والماعز، والغزلان الهاربة من جحيم الصحراء إلى موت محقق فقط تأجل قليلًا.

في المتحف الحربي بالعلمين، بقايا أسلحة قديمة، من الذخائر حتى المدافع والدبابات، وملابس الجنود وصور للقادة ونموذج لخطة المعركة وصور الخونة الذين كانوا على اتصال بالألمان، بينها صورة للراقصة حكمت فهمي صاحبة العلاقة الشهيرة بالجاسوس الألماني (هانز أبلر)، والتي عرفها أنور السادات وكان يعرف علاقتها بالألمان، تقول حكمت فهمي إنها في السجن رأت فتاة بدوية مذعورة كانت قد تم إنقاذها من الموت في الصحراء بعد

أن ضلت الطريق أثناء الفرار مع قبيلتها، وبعدت مع قردها الصغير وجلست فوق أغصان إحدى الأشجار.. لماذا حقًّا وضعوا تلك الفتاة في السجن.. سؤال كثيرًا ما يقفز إلى ذهني.

اكتشف البدو بالصحراء الغربية أنهم يمكن أن يثروا ثراءً فاحشًا إذا باعوا أراضيهم التي تطل على ساحل مريوط للمستثمرين والمصطافين. ابتدءوا بمنطقة (العجمي) الشهيرة مع أوائل السبعينيات، الآن تركوا الساحل الشمالي كله، ساحل مريوط، ومن الإسكندرية حتى مرسى مطروح، لكنهم لم يتراجعوا إلى الجنوب فقط، صاروا أثرياء يركبون سيارات البيجوو المرسيدس، وبنوا الفيلات بدلًا من خيام الوبر، وأكثرهم افتتح محلات على الطريق، لكنهم لا يزالون لا يقبلون على العيش في القرى السياحية الجديدة أو على الشواطئ بوجه عام، فلا طاقة لهم على النظر إلى كل هذا العري للنساء والرجال.

أرض قتل إلهية:

العلمين أرض منذورة لحرب لم تتوقعها البشرية، حدثت والآن صارت جزءًا من الماضي، عندما وقفت فيها مع صديقي المحب الوامق لفتاة مرسى مطروح أدركت ذلك، وأدركته أكثر حين قرأت عن المعركة. مشيت إلى محطة السكة الحديد فوجدتها كما وصفها لي أبي لم تتغير، رصيف منخفض إلى الأرض، وحجرة لناظر المحطة، ومزلقان بدائي يجلس على طرفه رجل

ضئيل يمسك بحبل ينتهي إلى عمود خشبي يجذبه فيسد به الطريق على المارة والسيارات وقت عبور القطار، يتركه فيرتفع العمود عن الطريق ويسمح بالمرور بطريقة بدائية انتهت منذ زمان حيث صار بالمزلقانات آلات إنذار معروفة ورخيصة. لكن هذا هو واقع الحال، ما الذي اختلف في العلمين إذن؟ المقابر بدلًا من القتال! وحول المحطة بعض بيوت من حجر اتخذها البدو سكنًا لهم بدلًا من (الوبر) وقيام القرى السياحية على الشاطئ. الشاطئ نفسه اقتلع من الساحل كله، من الإسكندرية حتى مرسى مطروح. في العادة لا تستطيع أن تدرس أمرًا ومعك صديق يشاركك الرؤية أو الكلام؛ لذلك لم يبق في زيارتي الأولى عام 75 مع صديقي في طريق عودتنا/ هروبنا من مرسى مطروح غير نظام وجمال الزهور والمقابر، ولم نفكر أن بالمنطقة مقابر أيضًا لألمانيا وإيطاليا. أدركت ذلك في زيارتي التالية للمكان. العلمين تقع على بعد مئة كيلو تقريبًا من الإسكندرية. لم يكن يومًا بلدًا كبيرًا حتى بمعايير الصحراء. هي منطقة قاسية الطبيعة تقع بين البحر المتوسط ومنخفض القطارة، يتوزع فوقها سكان قليلون ينتمون لقبائل علي الأحمر وعلي الأبيض والجميعات الأولى من السعادى والأخيرة من المرابطين، ومنخفض القطارة هو تقريبًا أشهر منخفضات الصحراء الغربية في إفريقيا، ولا تزال الأجيال المتعاقبة تحلم بتنفيذ مشروع منخفض القطارة لإنتاج الكهرباء عن طريق شق قناة من البحر المتوسط تنقل المياه إلى المنخفض إلى عمق 200 متر تحت سطح البحر

يتيح الفرصة لإدارة توربينات ضخمة تولد الكهرباء، إنه مشروع أسطوري لا يزال في دنيا الأساطير.

العلمين، صحراويًّا مشابهة لغيرها، وعسكريًّا تختلف. فالبحر في الشمال، وفي الجنوب على بعد ثمانية وثلاثين ميلًا يبدأ المنخفض الشهير ومنطقة الرمال الناعمة والمستنقعات الملحية التي يستحيل عبورها. بالضبط كما يستحيل العبور من الشمال بسبب البحر، والعلمين أيضًا هضبة ترتفع ستمئة قدم عن بقية الصحراء.

كل مكان في الصحراء يسمح بحركة الالتفاف إلا هنا، وهذا ما وقف روميل عنه عاجزًا أمامه، إن أحد تكتيكات روميل المعروفة هو الالتفاف السريع حول الخصم وتطويقه وقطع خطوط إمداداته والإيحاء له بأنه محاصر فيسود الهرج صفوفه وتتم بسهولة عملية تمزيقه وإبادته. كان البريطانيون يعرفون العلمين جيدًا فتوقفوا عندها في تقهقرهم أمام القائد العبقري. لقد كانت هزيمة بريطانيا في الشرق الأوسط كافية لإخراجها من الحرب بسرعة؛ لذلك لم يكن الإنجليز مستعدين للتخلي عن العلمين بسهولة.. العلمين إذن كانت ومازالت موقعًا دفاعيا نموذجيًّا لكنها لم تختلف عن بقية الصحراء في خصائصها، في طقسها وأرضها، فكثبانها تتفاوت ألوانها من البني إلى الأبيض الجيري على الشاطئ، تسقط عليه أشعة الشمس فتجعله أبيض ناصع البياض في الظهيرة. وبعيدًا عن المناطق المزروعة بالتين تجد الحشائش الليفية والنباتات الشيطانية

الشائكة، وبها خطر العقارب والحيَّات المقرّنة الصغيرة والقوارض والزواحف الكبيرة والذباب. وهذا كله موضع عذاب للجنود، لكن قرب العلمين من الإسكندرية، وفر للجنود المياه ووسائل النظافة. وفر للجيش عمومًا الإمداد التمويني والغطاء الجوي.

الأرض في هضبة العلمين متماسكة تحت طبقة الرمال الضحلة لكن هناك مساحات من الرمال الناعمة. كما أن الأرض الصخرية المفيدة بالتأكيد لحركة الدبابات، ليست مفيدة لحركة الجنود الذين عليهم حفر الخنادق لهم وسط هذه الصخور، وأي مقاتل يعرف أن جندي المشاة المحروم من الحفر لإخفاء نفسه وأسلحته إنما هو حيوان عارٍ ضعيف عاجز عن الدفاع عن نفسه.

إن فراغ الأرض الصحراوية يستوعب مليون دبابة وسيارة ومدفع وأكثر إذا وجدت من يملكها. وفي هذا الفضاء يمكن فتح جميع أنواع النيران التي تهلك الجماد والحيوان، كما أن هذا الفراغ من الأرض يتيح حرية المناورة ويغري بها، وهذا ما حدث مع روميل في هجومه على الجيش الثامن وطرده من برقة ومطاردته حتى العلمين، إن حرية المناورة، وهي في علم الحروب عمل تكتيكي، تؤدى في الصحراء إذا تمادى القائد فيها، إلى عيب إستراتيجي خطير هو بُعد القوات عن قواعد إمدادها، وهذا ما حدث مع روميل أيضًا. وصل العلمين، وترك قواعد إمداده في برقة.

«بعد الحرب لم أقابل جنديًا واحدًا من الفرقة الأسكتلندية. هل تعرف ماذا كان يفعل جنود الفرقة الأسكتلندية. كانوا يعزفون موسيقى القِرَب. لا أنسى يوم وصولهم إلى الإسكندرية، لقد ملئوا الدنيا صخبًا بعزفهم، وراح الجنود السود الأفريكان يرقصون حولهم والجنود الهنود يضحكون في دهشة، قال لي جاويش هندي إنهم جاءوا يعزفون لهم ساعة الحرب على القرب ليشجعوهم على اقتحام الموت، كان يعرف قليلًا من العربية إذ عمل من قبل ملاحًا على سفن تنقل التوابل إلى البصرة، وكنت أنا أعرف بعض الإنجليز في الإسكندرية وفي العلمين؟»

ذهاب سريع وإياب:

قلت إن ساحل مريوط كان مسرحًا لدخول وخروج الجيوش والقبائل من مصر وإليها على فترات طويلة مترهلة من التاريخ، وقلت إن هذا الذهاب والإياب حدث مرة أخرى لكن بإيقاع أسرع إبان الحرب العالمية الثانية، لقد دخلت إيطاليا الحرب عام 1940، وكان معنى ذلك فتح ميدان جديد في إفريقيا للقتال، بدأ المارشال (جرازياني) الزحف إلى الحدود المصرية، احتل السلوم ثم بقبق وتوقف عند سيدي براني، وفي نهاية العام انطلق الجنرال (ويفل) من مصر فاستولى على سيدي براني وأسر آلاف الإيطاليين الذين شحنهم إلى الإسكندرية في القطارات، واستعاد بقبق والسلوم ودخل الأراضي الليبية فاستولى على (البردية) عام 1941 وأسر نحو عشرة آلاف جندي إيطالي أرسلهم بالسفن والطائرات إلى

الإسكندرية، ثم احتل (طبرق) بعد حصار سبعة عشر يومًا، ثم احتل (درنة) ثم (بنغازي) عاصمة إقليم (برقة). وفي شهر مارس، استولت قواته على واحة (جغبوب) وظهر للعالم انكسار العسكرية الإيطالية فتمت إقالة (جرازياني) وتولى (أروين روميل) الألماني - طبعًا - قيادة قوات المحور، وطارد القوات البريطانية في حركة معاكسة فاستعاد بنغازي ثم بئر حكيم التي كان يدافع عنها الفرنسيون الأحرار، وترك طبرق خلفه محاصرة وانطلق إلى مصر، في يونيو من عام 1942 سقطت طبرق بطريقة مخذية صارت حديث العالم حيث أسر ثلاثين ألفا من جنود الإمبراطورية البريطانية. منح هتلر روميل رتبة فيلد مارشال وأرسل إلى موسيليني يقول:

«إن آلهة المعارك تزور المحاربين مرة واحدة، غير أن من يقعد عن التمسك بها حين تزوره لن يستطيع أن يمسك بها مرة أخرى» كان يقنع موسيليني بضرورة استمرار روميل في الانطلاق داخل مصر. واندفع روميل بجنوده طاردين أمامهم الإنجليز والنيوزيلانديين والأستراليين والفرنسيين والهنود واليونانيين وقليل من المصريين من حرس الحدود والبدو والجمال والماعز والأغنام والوحش والهوام وساد الذعر.

أبناء الله الصغار أبناء الكومنولث:

عندما وقفت مرة ثانية أمام مقابر الكومنولث بالعلمين أتأمل جمال زهورها وأرضها وتنسيق أشجارها كنت قد أدركت أني أبلغ من العمر ما كان قد بلغه أبي بالضبط وهو يقف في المكان نفسه

الذي كان يعج بحركة المركبات والجنود. إلا الصمت وجلال الموت كما هو الآن. كنت مشيت من محطة السكة الحديد وعدت. صعدت فوق رصيفها ومشيت ونزلت وعدت. كنت أحاول أن تطأ قدماي كل مكان ممكن حتى أفوز بالوقوف فوق كل مكان وقف عليه أبي، تخيلته في حيرته على رصيف المحطة يتأمل هذه القوات الغريبة من كل العالم، وهو الفلاح الأصيل الذي لم يكن يتصور أن خلف قريته بلادًا، كم مرة فكر في أمي، وكم مرة اشتاق لرؤية أختي الكبرى التي كانت على قيد الحياة، بينما مات أول أبنائه من الذكور، ترى هل كان يفكر في أمه أو أخوته؟ ذلك كله زمن لم أعشه، لقد أتيت إلى الدنيا بعد انتهاء الحرب. لا بد أن أبي كان حزينًا وهو يقف بعيدًا عن أهله على محطة كل من ينزل بها غريب من بلاد بعيدة مفرطة في البعاد، لقد تركت الدموع تنزل من عيني على مهل، وتركت نفسي أمشي بين المقابر أقرأ أسماء الجنود، أسماء مألوفة بالنسبة لي، أسماء بريطانية، لكني حين انحرفت على يسار المقبرة، ناحية الشرق منها، وقفت أمام أسماء الجنود الهنود، راعني تشابه أسمائهم من ناحية، وما راعني أكثر هو أعمارهم.

مقابر الهنود، أو ما تبقى من الموتى! جزءان.. جزء به رفات عدد ضخم من الجثث تم حرقها جميعًا. أكثر من ستمئة جثة، لاحظ أن المقابر ليست لكل الشهداء، فهناك شهداء أكلتهم السباع والطير، وما هو موجود بالمقابر أعداد رمزية لضحايا تلك المعركة.

وإلى جانب الجثث المحروقة والموضوع رمادها في مكان واحد، تمتد قبور مميزة الشاهد، كتب عليها باللغة العربية (الله غفور)، ثم أسماء لغلام وسردار ومحمد وهاج الدين وضياء الدين وغيرها من أسماء المسلمين الهنود، فلم تكن هناك باكستان بعد، وأغلب هؤلاء المسلمين من بيشاور، أفقر مناطق الهند ذلك الوقت، وباكستان حاليًا، وأعمارهم جميعًا أقل من عشرين سنة، كذلك وجدت أعمار الهنود الهندوس الذين تم حرق جثثهم. كان بينهم عدد كبير لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر، كان أبناء المستعمرات إذن وقود الحرب وكان موتهم بأعداد هائلة.

بين القبور مقبرتان لجنديين يهوديين كتب على موطنهما اسم (إسرائيل) لم تكن هناك إسرائيل وقت الحرب، لكن المقابر التي أقيمت في فترة لاحقة، وبالأحرى الذين أقاموا المقابر من المسؤولين الإنجليز، لم يجدوا معنى لذكر اسم فلسطين موطنًا ليهوديين تم التعرف عليهما ضمن كثيرين قد ماتوا دفاعًا عن الإمبراطورية البريطانية، ربما، لكن المؤكد أنهما كانا يتدربان مع غيرهما على القتال الذي سيجري بعد ذلك مع العرب.

لكن مقبرتين لجنديين سودانيين أوقفتاني بشدة.. عند باب المقابر المهيب تقرأ أسماء الدول التي شاركت في المعركة، وتقرأ على الجدران قصة المعركة كاملة باللغة الإنجليزية وتقرأ

أعداد القتلى والجرحى والأسرى والمفقودين لكل دولة. إن أكثر قتلى الكومنولث من الهنود، وكان أكثر الجنود بسالة الأستراليون وكان أقل عدد من الجنود شارك في المعركة من السودان، وهذان الجنديان قد قتلا وتم التعرف عليهما، فأقيمت لكل منهما مقبرة.

إن السؤال المضحك المبكي معًا هو: ما معنى احتياج جيش بهذا العدد الضخم إلى جنديين من السودان. أحد هذين الجنديين يحمل اسم (الصافي النعيم) اسم جميل ذو دلالة. لابد أنه كان قطعة من الجنة ففضل الالتحاق بها بسرعة. لم يتجاوز أي منهما الخامسة والعشرين. كل جنود المستعمرات أقل سنًّا من جنود بريطانيا وأستراليا لكن أصغر الجميع جنود الهند صبية وأطفال أراد لهم الله، والكومنولث، الموت في صحراء العلمين، إنك لا تستطيع بسهولة أن تبرئ الحلفاء من الخطأ رغم أن الحلفاء كانوا يحاربون من أجل الديمقراطية وضد العنصرية.

للفرنسيين مقبرة صغيرة مستقلة، ولليونانيين أيضًا، للألمان مقبرة صغيرة بعيدة بحوالي خمسة كيلومترات غربي مقابر الكومنولث، وقريبة من البحر وعلى ربوة عالية، أقيمت فيما بعد، للإيطاليين مقبرة ضخمة مهيبة عالية متأخرة تبعد حوالي عشرة كيلومترات إلى الغرب من مقابر الكومنولث وهي أيضًا تقع على البحر مباشرة، جوار المقبرة الإيطالية مسجد صغير ومقابر قليلة لعدد من الجنود الليبيين الذين كانوا يحاربون في صفوف جيوش المحور. عدد

قليل أُخذ عنوة. المقبرة الإيطالية مستديرة، أسطوانية، شاهقة كبرج، مكسوة جدرانها بالمرمر وداخل الجدران رفات الجنود وعليها كُتبت أسماؤهم بعناية، والمقبرة الألمانية أصغر، بها أربع مقابر جماعية، وبينما يغلب الطابع العصري على معمار المقبرة الإيطالية الضخمة، يغلب الطابع الفرعوني، الممزوج بالطابع الكنسي على المقبرة الألمانية، حارس المقبرة الألمانية يغلقها دائما ويجلس في بيته القريب، وعلى من يريد زيارتها أن يناديه، حارس المقبرة الإيطالية موجود يقظ طول الوقت، طويل قوي رغم سنين عمره السبعين. عاصر الحرب أيضا ويجلس يحكي قصصها الحقيقية ممزوجة بالخرافة.

قصة الحرب الخرافية:

«لم يكن لدى روميل غير إناء صغير به ماء، كذلك كان مونتجمري. جلس كل منهما في مكانه وراح ينفخ في الإناء. ينفخ روميل فيخرج من الإناء الجنود والبنادق وينفخ مونتجمري فيخرج من الإناء الجنود والبنادق التي تلتحم بجنود روميل الذي بدوره ينفخ من جديد فتخرج الدبابات تلحق بجنوده، فيستعين مونتجمري بنفسه الأقوى، فتخرج الدبابات الأمريكانية لكن روميل ينفخ بكل ما أوتي من قوة، فتخرج من المياه الطائرات، فيقابلها مونتجمري بنفخة طويلة عميقة وهكذا حتى انقطع نَفَس روميل الذي كان مريضًا، وظل مونتجمري ينفخ في الإناء فيخرج الجنود والسلاح حتى انتصر الإنجليز. شياطين!!»

هكـذا حكى لنا بقـال عجوز قصة الحرب ونحـن أطفال، ولكن أبي قال شيئًا آخر..

«لم أغادر المحطة طوال فترة الحرب. كانت القطارات لا تكف عن نقل الجرحى ومن يمكـن إخلاؤه من الموتى. كانت القطارات تتحرك عادة بالليل، وكانت العلمين هي آخر محطة لها في الصحراء منذ دخول روميل الأراضي المصرية. كان صوت المدافع لا ينقطع بالليـل ولا بالنهـار وهجـوم الطائـرات لا ينقطع أيضًـا، ومن البحر كانت تأتي قذائف قوية وكنت أسـمع أحيانًا صوت موسيقى القِرب وسـط كل ذلـك الصخب والموت. لعل الصـوت كان في أذني منذ سمعتهم أول مرة. لقد ماتوا جميعًا كما عرفت».

«بعـد المعركة مشيت. تركت نفسـي أمشـي بين أشـلاء القتلى لمسافة بعيدة. بصعوبة كنت أجد لقدمي مكانًا على الأرض. القتلى يتجـاورن، من كل الأمـم، جنود المحور مختلطـون بالحلفاء. الدم تخثر على الجثث والرمال. النمل يرعى في الأجساد الممزقة وآلاف من الأذرع المفصولة والسـيقان المقطوعة والأقدام داخل الأحذية والرؤوس داخل الخوذات بعيدًا عن الأجساد والجماجم المتفحمة والأجسام المحترقة لجنود كانوا منذ ساعات أو أيام أحياء. اختلطت الكوفيات الحريرية للضبـاط بالكوفيات العادية، واختلط أصحاب الركـب البيـض وهوتعبيـر يطلق على الجنـود الجدد قليلـي الخبرة بحـرب الصحـراء الذين لـم تتلون بشـرتهم بلون الشـمس- بذوي

الركب الحمراء ولـم تعد السترات الصوفية تقي أحدًا من البرد لأنهم موتى، قبل المعركة كانت الإسـكندرية شـبه خالية من أهلها. هاجر السـكان إلى محافظة البحيـرة حيث أقامت لهم الدولة معسـكرات إيـواء، وهاجر مـن لهم أصول ريفية إلى بلادهـم وكانت منهم أمك وأختـك - هكـذا قال أبـي - وكان اليهود في ذعـر، فباعوا كثيرًا من ممتلكاتهم بأثمان بخسة وهاجروا إلى إفريقيا وفلسطين».

كانـت السـنوات منـذ دخـول إيطاليـا الحـرب سـنوات قلـق، وصـل إلـى ذروته بعد تولي روميـل قيادة الفيلـق الإفريقي، وكانت الغـارات الألمانية الإيطالية على الإسـكندرية ثقيلة، وقصة انقسـام البـلاد بيـن مؤيد لألمانيـا ومؤيد لإنجلتـرا معروفة فـي تاريخ مصر الحديـث لكـن من أغـرب الأحـداث ذلـك الخطاب الذي أرسـله قائـد منطقة الإسـكندرية العسـكرية إلـى وزارة الحربية يسـأل عما يجـب عملـه حال دخول قـوات المحور إلى المدينة. هـل يقاوم أم يستسـلم؟ عرض الخطاب على وزير الحربية حمدي سـيف النصر فلـم يرد عليـه، لكن قائد منطقة الإسـكندرية عاد وأرسـل السـؤال نفسـه فأمر وزيـر الحربية بنقله. لم يكن يدري قائـد المنطقة المأزق الـذي سـببه لوزيره، فهو إن أجـاب بالمقاومة، قد يقتلـه الألمان إذا نجحوا في احتلال البلاد، وإذا أمر بالاستسـلام سيحاكمه الإنجليز. وشـاع بالبـلاد أن السـلطات البريطانيـة تفكر في نقل فتيات الأتسـا (A. T. C) مـن المجندات البريطانيات وكـن نحو500 فتاة مهمتهن

الترفيه عن الجنود، وتفكر جديًا في تهريبهن إلى الأقصر حتى لا يستمتع بهن الألمان إذا دخلوا البلاد!

لقد تسلم مونتجمري القيادة في الخامس من أغسطس 1942 وكان من أكبر مشاكله كيف ينزع من وجدان الجنود البريطانيين وحلفائهم فكرة أن روميل قائد لا يقهر، وواتته الفرصة في نهاية الشهر حين حاول روميل اختراق الدفاعات البريطانية من منطقة (علم حلفا). لقد استمرت المعركة أسبوعًا بلا نتيجة، ولم يستطع روميل اختراق الدفاعات البريطانية لأول مرة، وكانت هذه أول هزيمة حقيقية للمحور تنذر بهزيمة على كل الجبهات، وبدا مونتجمري يستعد للمعركة الفاصلة.

«كنت في حاجة إلى أن يهاجمني والآن أنا الذي سأهاجمه» قال ذلك بعد فشل روميل في معركة (علم حلفا). وفي ليلة الثالث والعشرين من أكتوبر، وقبل الساعة الثامنة والنصف حيث اندلع القتال، كان الجيشان اللذان يواجهان بعضهما يتكونان كالآتي:

مئة وأربعة وسبعون ألف جندي من دول الكومنولث والحلفاء مقابل مئة وثمانية آلاف من الإيطاليين والألمان. ألف ومئة دبابة لدى الحلفاء بينها الدبابات الأمريكية شيرمان وجرانت، قوية الدروع في مقابل ستمئة دبابة لدى المحور. مونتجمري على رأس جيوشه، وروميل في ألمانيا للعلاج ولم يصل إلى ميدان القتال إلا بعد ثلاثة أيام من اندلاع المعركة. تفوق في طائرات الحلفاء وقرب إمدادهم.

لقد أخذ الهجوم مراحل ثلاث. في الأولى تداعت خطوط المحور الأمامية، وفي الثانية تقدم الحلفاء ساحقين الهجمات المضادة لجيش روميل فاتحين طرقًا في حقول الألغام الشيطانية التي حملت ولا زالت اسم حدائق الشيطان، وفي الثالثة مطاردة قوات المحور الهاربة بعد أن فقدت ثلثي قواتها وخمسمئة دبابة وكميات لا تحصى من العتاد.

لقد بدأت مرحلة المطاردة هذه مع أول نوفمبر، بعد ثمانية أيام من القتال الضاري، مات فيه الأسكتلنديون على كثرتهم لأنهم كانوا يعزفون، والسودانيون على قلتهم لأنهم كانوا في جيش لجب! وفي الثامن من نوفمبر حدث الإنزال الأمريكي الأوربي على شواطئ المغرب والجزائر بقيادة إيزنهاور. بدأ الزحف من الناحيتين فاستسلمت كل القوات الباقية من جيش روميل الذي استطاع الوصول إلى ألمانيا، لكن بعد أن انتهى الوجود الألماني الإيطالي من إفريقيا.

في الثامن والعشرين من أكتوبر كتب روميل لزوجته:

«ما زال في وسعنا الصمود. لكن قد نخفق ويكون لهذا نتائج وخيمة».

وفي الثاني من نوفمبر كتب إليها:

«قتال ثقيل جدًّا لا يدور في صالحنا. العدو بقواته المتفوقة يخرجنا ببطء من مواقعنا. إنها النهاية. يمكن أن تتصوري شعوري. غارة جوية بعد غارة جوية بعد غارة جوية».

وفي الثالث من نوفمبر كتب:

«بالليل أستلقي مفتوح العينين مجهدًا عقلي في سبيل إيجاد مخرج لجنودي المساكين من هذه المحنة. إن الموتى محظوظون فلقد انتهى كل شيء بالنسبة إليهم».

لقد شربت رمال العلمين دماء ثلاثة عشر ألف قتيل وجريح من دول الحلفاء، وخمسة وعشرين ألف قتيل وجريح من دول المحور، فيا له من نهر من الدم جرى على الأرض المهيأة من سالف الأزمان للقتل. إن الموتى المحظوظين، جنبًا إلى جنب مع الأحياء، هم الذين أعطوا العلمين أهميتها كمعركة لم ينهزم بعدها الحلفاء، ولم ينتصر المحور. والآن لابد أن العدد الأغلب من الأحياء قد لحق بالموتى وهؤلاء جميعًا أعطوا المكان أهميته التاريخية. الموتى من الهنود والنيوزيلاند والأفريكان هم فقط الذين لا يزورهم أحد حتى الآن وكانت بلادهم فقيرة أيام الإمبراطورية البريطانية، وظلت فقيرة بعد أن غابت الشمس عن الأسد البريطاني! مساكين أبناء آسيا وإفريقيا يقاسون مع الوحدة في الحياة والموت. ومن فضائل الله أنه زادهم من نعمة النسيان، فظل من عاش منهم باقيًا في الحياة!

-2-

طيور العنبر

الإسكندرية مدينة للمجد والرثاء

(1)

ربما لو لم أكن سكندريًّا، لوددت أن أكون كذلك. من المؤكد أنني لا أعرف ما إذا كانت الإسكندرية هي التي فعلت بي ذلك أم أنا الذي جئت هكذا. الحقيقة أن المدينة تمشي معي، وأنا في دمها. مضى عليَّ الآن حوالي أربعين سنة في القاهرة ولم أكتب عنها أو في حقيقة منها غير بضع قصص قصيرة وروايتان هما عتبات البهجة وفي كل أسبوع يوم جمعة. لقد عشت في الإسكندرية ربع القرن الأول من حياتي، وكتبت عنها أكثر من سبع روايات حتى الآن. السنون الأولى بالتأكيد تظل تثير الدهشة رغم أنني عشت في القاهرة سنوات الأسئلة الصعبة، سنوات التحول الاجتماعي والسياسي العنيف في السبعينيات، لقد كتبت ذلك بروح سكندري. بألم عميق وحزن جليل وتوتر لا ينتهي. هكذا بنيت معمار رواياتي وموضوعاتها.

الإسكندرية هي مدينة العالم لحوالي سبعة قرون، هي التي شكلت ما يسمى بالعصر الهلليني، ذلك العصر الذي امتزجت فيه الروح اليونانية والرومانية بالروح الشرقية. هل من هذه القرون انحدرت إلينا صيغة الجمع في العامية السكندرية؟ (إحنا بنكتب وبنقرأ) (إحنا بناكل وبنشرب) وهكذا، رغم أن المتحدث فرد واحد.

هل نجد تفسيرًا لذلك عند علماء اللغة؟ تشغلني هذه المسألة. وعادة أقرر أن أبحث عن سببها ثم أنسى، النسيان سمة سكندرية؛ هذا البحر المفتوح أمامك وهذه الطرق الطويلة الممتدة وحتى ما وراء الأحياء الشعبية من خطوط للسكك الحديدية وحركة لا تنقطع للقطارات وبحيرة مريوط الغامضة، كل ذلك يبعث الذكريات المفتوحة على النسيان!

أنا ابن الفضاء السكندري، الجنوبي والشمالي، يستحوذ الفضاء الجنوبي على صفحات كثيرة في رواياتي التي لا يكف أبطالها عن الخروج للفضاء الشمالي ليعودوا أكثر جرأة ونزقا. الفضاء الشمالي هو فضاء البحر المتوسط بامتياز. هو حلم أبناء الدلتا والصعيد ورحلات شقائهم حتى الآن، حتى لو سكنوا جنوبي المدينة. أنظر إلى روايات (ليلة العشق والدم) و(الصياد واليمام) و(بيت الياسمين) و(لا أحد ينام في الإسكندرية) ثم (طيور العنبر). في هذا الفضاء الشمالي رأيت الحركة وعرفت أن العالم كبير كبير لا ينتهي.

انتهيت من رواية (لا أحد ينام في الإسكندرية) وعرفت عمليا أثناء الكتابة ومتابعة أخبار الحرب العالمية الثانية كيف كانت معركة العلمين فاصلة في زمن الحرب. بعدها لم ينتصر المحور في معركة ولم ينهزم الحلفاء أبدا. أصبح اسم العلمين علامة في أوربا وإنجلترا خاصة على كثير من النوادي والمقاهي والمطاعم تماما مع اسم مونتجمري قائد وبطل المعركة الذي حقق أول نصر للحلفاء منذ ثلاث سنوات. وامتلأت الرواية بالروح السكندري والروح المصري أيضا من فضلك. وسألت نفسي: أين ذهبت روح التسامح التي ظلَّلت حياتنا لقرن ونصف من الزمان كانت فيها مصر حاضرة متوسطية جميلة رغم الاستعمار البريطاني ورغم الكثير من الظلم الاجتماعي؟ أين ذهبت عالمية الإسكندرية؟ وهنا فكرت في رواية (طيور العنبر). كنت أعرف مما رأيت في طفولتي وصباي، ومما درست، أنه مع حرب السويس بدأ الخروج الكبير للأجانب من المدينة ومن البلاد كلها. هذا زمن عشته وستكون كتابته أسهل، لكن أيضا سأتبع نفس الطريق في بناء الرواية. السرد المحاط بالأخبار التي تعكس روح الزمن أكثر مما تعكس رأيا فكريا. صار ذهابي إلى دار الكتب سهلا وعادة. أراجع فيها الصحف. ولدهشتي وجدت الصحف أكثر اختلافا. صحف أقل حرية. حتى في اختيار الحوادث اليومية كانت تختار ما هو عادي وربما لا يستحق الإشارة. إنه زمن الرقابة على الصحف. لكن الأخبار الفنية كبيرة وطبعا الإعلانات والأسعار والأفلام والمسرحيات وكل ما يشكل

الحياة الطبيعة موجود. لن أستغرق وقتا طويلا الآن في جمع المادة ولا في الكتابة سأذهب إلى هناك بسهولة لأني كنت هناك في طفولتي وصباي. استغرقت الكتابة ثلاث سنوات. فيها أيضا رحت أزور الإسكندرية كل شهر، وأزور الأماكن التي سأكتب عنها. كثير منها لم أجدها لكن وقفت أتذكرها. صارت ترعة المحمودية شبه مسدودة بالأعشاب والنباتات الشيطانية وانتهى النقل النهري. رأيت ذلك أيضا وأنا أزور المدينة أثناء كتابة (لا أحد ينام في الإسكندرية) لكني كررت الزيارة لأتذكر سنوات الخمسينيات وطفولتي وصباي هناك في حي كرموز وعلى ترعة المحمودية. الأمر الآن أسهل وشخصيات الرواية تتفجر حولي. كلهم تقريبا رأيتهم في طفولتي وصباي، لكن بالطبع لم يكونوا كما كتبت وإن كانوا أرواحا غير مستقرة. يتناوبون على الضحك من كثرة الشجن. صار يوم الجمعة الأول من كل شهر تقليدا أركب فيه قطار الثامنة صباحا من القاهرة لأصل في العاشرة وأدور في شوارع المدينة حتى الرابعة ثم أذهب إلى كافتيريا كالتيا على البحر في محطة الرمل أتغدى وأتحرك منها في السادسة إلى محطة مصر لأركب قطار السابعة المباشر إلى القاهرة. لا أقابل أحدا من أصدقائي أو أقاربي. لا أتحدث مع أحد. حتى جاء يوم هفت نفسي إلى أن أزور صديقي القديم حمدي عبد الباسط الذي كان أكبر مني في السن والذي حين عرف أني أكتب القصص وكنت في السنة الأولى بالثانوية الصناعية سألني: هل قرأت شيئا عن قواعد القصة. أجبت: لا. قال: إن للقصة قواعد

وأصولًا. وكان هو قد انتهى من الثانوية العامة ودخل معهد إعداد الفنيين التجاريين. قال إنهم درسوها في الثانوية العامة في مادة النصوص. ثم أحضر لي كتاب الثانوية العامة هذا فقرأت شيئا عن قواعد فن القصة لم يشبعني فذهبت أبحث عن كتب النقد الأدبي. وكانت أول قراءاتي فيها لطه حسين والعقاد. تاقت نفسي إليه - صديقي القديم - لأني استوحيت منه شخصية سليمان. كانت الثلاثة أعوام التي يزيد بها عني تجعله يبدو أمامي غزير الثقافة حين يتحدث. كنت أعرف أنه يعمل في مؤسسة التأمينات الاجتماعية في كرموز. ذهبت فوجدته كعادته كثير الضحك والبهجة. كم من السنوات لم نلتقِ. أكثر من خمس عشرة سنة. رحنا نتذكر الماضي والناس ونضحك. قلت له إنني أكتب رواية الآن وبعض هؤلاء أبطالها فسألني ضاحكا: فاكر حبشي وبدرة؟ تألقت عيناي بالدهشة والفرح. حبشي وبدرة اللذان يعيشان على هامش ترعة المحمودية جوار المعدية لا يعرف أحد لهما أصلا ولا بلدا. حبشي الذي كان أبرع من يسبح في الماء وكنا نسميه «طرزان». تألقت عيناي بالفرح. سيدخلان الرواية ويوسعان من أفقها الإنساني وغرابتها. كنت كتبت تقريبا ثلث الرواية. أعدت ما كتبته وقفز حبشي وبدرة إلى الرواية فتألقا وتألقت أمام عيني. وهنا كانت رحلتي مع الصحافة قائمة، لكن رحلتي مع بعض الكتب كان لها تأثير جميل. فهنا شخصيات جانحة تعمل أعمالا لم يتسنَّ لي ممارستها أو الاقتراب منها مثل العطارة فكان عليّ أن أقرأ عن تاريخ التوابل. لقد أدركت منذ كتبت

(لا أحد ينام في الإسكندرية) معنى أن تقرأ عما تمارسه شخصيات الرواية من حياة. وكيف تصل إلى الصدق الفني بالمعرفة في رسم الشخصية وتغيرات سلوكها. قرأت أكثر من كتاب مثلًا في تاريخ التوابل وطريق التجارة القديم في الشرق وطريق الحرير وغير ذلك مما لا أعرفه عن هذا العالم الأسطوري الجميل لم أكتبها كلها في ثبت المراجع التي أشرت إليها لأني كنت أجد اشتراكا بينها في بعض المعلومات فاكتفيت بكتابة اسم كتاب واحد هو تجارة التوابل في مصر في العصر المملوكي للدكتور محمد عبد الغني الأشقر الصادر في سلسلة تاريخ المصريين التي تصدرها هيئة الكتاب. وقرأت عن تاريخ الفتوات في الإسكندرية كتابا جميلا غير معروف رغم أهميته هو «وجوه سكندرية» لحسن المناويشي. وقرأت في اقتصاد تلك المرحلة وسياستها عشرات الكتب لم أذكرها كلها لنفس السبب السابق وهي أن ما آثرته منها وجدته مشتركا تقريبا بينها فذكرت اسم كتا ب واحد. لم آخذ آراء من الكتب ولا وجهات نظر أصحابها. عرفت معلومات كثيرة صارت تتحول في الرواية إلى مادة في حوار أو النقاش فتأخذ قدرا كبيرا من الحيوية والحركة. خذ مثلا هذا الجزء من حوار «فلفل مطحون» العطار الذي أهمل العمل وعاش على الذكريات حين يتذكره سليمان الذي هومشروع روائي كبير الأحلام «أمس رآني تاجر البهار شارد اللب فقال لي يا أستاذ سليمان عليك بلبان جاوة، قلت له ما هولبان جاوة؟ قال اللادن الذي يحميك من الشر، وتطيّب بالكافور فهو ينعش الدنيا حولك،

واشرب الدارصين، أي القرفة، أي خشب الصين، فهي تشرح صدرك، وقبل النوم اندغ ثلاث حبات من الحبهان وتنفس يتعطر فمك وتخرج كل روائح أكل النهار، ولا تحرم طعامك من القرنفل، فالبيت الخالي من القرنفل ينموفيه الفقر، وزامله بالزنجبيل وانتبه إلى السعادة تمشي في دمك. وليتك تترك هذه البلاد فتأتي معي إلى سومطرة والهند والصين نبني قصرا من أشجار البخور واللبان. قصرا مليئا بالبركة، ونصطاد أيائل المسك الذكور على هضبة التبت فأيائل التبت تحمل أفضل المسك لا يتعطر به إلا الملوك والأمراء».

وغير ذلك في كثير من حوارات فلفل مطحون تاجر البهار كان وراءه كتب كثيرة عن تاريخ التوابل في الدنيا أخذت منه ما هو إنساني ويمكن أن يدور به اللسان في الحياة العادية وخاصة على لسان عطار سابق فتزداد الشخصية صدقا والقارئ دهشة ومتعة. كانت القراءة والمعرفة وراء اختلاف اللغات بالرواية وتعددها بين الشخصيات بتعدد الشخصيات وتكوينها الروحي وأزمتها وثقافتها إذا كانت هناك. سليمان مثلا مشروع الروائي يحلم أن يكتب رواية عن المصريين في أعالي النيل أيام الخديو إسماعيل وكيف أقاموا إمبراطورية امتدت إلى هناك وكيف تم طردهم من هناك. إنها الرواية التي لم يكتبها أيضا عمه الذي ذهب إلى هناك في الأربعينيات ولم يعد. والذي كان صديقا لكاتب الإسكندرية الرومانتيكي الذي انتحر في الحرب العالمية الثانية. طبعا هذا ما يحكيه سليمان. وعمه

طبعا ليس شخصية تاريخية. هي من تأليفي أنا لكن حين يقول إنه كان يعرف الشاعر يزداد الاقتناع بأزمته وتبدو حقيقية للقارئ. يريد أن يحقق حلم عمه الكبير بكتابة هذه الرواية. والحقيقة أن هذا كان حلمي ولا يزال يمنعني منه الوقت وضرورة السفر بالفعل إلى أعالي النيل والحياة بعض الوقت هناك، كما أتصور، ويمنعني منه العمر والصحة. هل يمكن أن يحقق أحد الكتاب من الأجيال الشابة حلمي؟ المصريون في أعالي النيل في القرن التاسع عشر وكيف تفرقوا في البلاد.. سليمان هذا أيضا حين يكتب تختلف لغته. هو الذي يعرف معنى كتابة الرواية لكنه لم ينجزها بعد وتختلف لغته عن الآخرين. فهومثلا بعد أن يموت خير الدين وتنتهي قصة الحب الجميلة بينه وبين حبيبته «الجوني» وبعد أن يتم القبض على نوال بتهمة الشيوعية وهي لا تعرف عنها شيء ا. فقط صوتها جميل ذهب بها مع حبيبها يقدمها بالغناء ليلة رأس السنة وأحداث أخرى كثيرة تنتهي إلى لا شيء تضيق عليه الحياة فيكتب قصة قصيرة يسميها قصة سوريالية. واصطلاح سوريالية هوالذي كان يستخدم في الترجمة ذلك الوقت وليس سيريالية.

قصة سوريالية:

الأفيال تخرج صامتة من القبو، في طابور طويل يقوده الممثل الهندي سابو. الجالسون على جانب السلالم يصيبهم الفزع، يجرون إلى كل ناحية، النساء القادمات لشراء السمك تعدن

مهرولات لا ينقطع صراخهن. سابو يضحك مفرقعا بالسوط الطويل الذي في يده في الهواء. الأفيال تصعد السلالم. محمود القزعة يجري أمامها وعمّاله. الأفيال تدوس على طاولات الثلج والسمك فيتطاير ما فيها وينطحن تحت أقدامها. الأفيال تصطف على رصيف الشارع. ترفع خراطيمها عاليا وتحرك آذانها العريضة وتصرخ كلها. سابو يتقدمها ويشير لها أن تتبعه إلى شاطئ الترعة. الأفيال تقف على الشاطئ. تمد خراطيمها في الترعة. تشرب الماء كله. ترتوي وتنفض أجسادها وتعود للصراخ في سعادة هذه المرة. الترعة الآن صارت خالية من الماء. السفن تسقط إلى قاع الترعة. النوتية يقفزون يخوضون في وحل القاع ويصعدون إلى سفح الشاطئ الآخر. يجرون كخيل فزعة صارخين رافعين أذرعهم إلى السماء من الرعب. في قاع الترعة تظهر نساء عجائز قابعات ينظرن إلى الفضاء الأبيض. إنهن عرائس النيل اللاتي ألقي بهن قديما إلى النهر واستقرت أجسادهن أخيرا في الترعة. صرن عجائز الآن. يقفن في الطين. يتحولن إلى عصافير تكبر وتصير غربانا تطير مرفرفة فوق رؤوس الأفيال وفوق البيوت. تنتهي إلى الملاحة فوق رؤوس عيد والمجاذيب الذين ينتظرون رؤية وجه ربنا. سابو يأخذ الأفيال ويعود إلى القبو. الماء يعلو وتعلو السفن فوقه في ترعة المحمودية. الرجال يعودون إلى الجلوس على حافة السلم المؤدي إلى القبو. النساء تعدن إلى شراء السمك ضاحكات منتعشات. محمود القزعة يتابع أردافهن الصاعدة الهابطة. الأسماك

تحمل الثلج على رؤوسها وتعود تقفز داخل الطاولات. العمال يقومون بتحميل الطاولات على العربة التي ستحملها إلى دكاكين المدينة. الرجال في مقاهي المدينة يتركونها إلى محطة الرمل. في شارع سعد زغلول ظهرت كيلوتات حريمي ممتلئة بأعضاء النساء الجنسية. في شارع صفية زغلول ظهرت سراويل الرجال تباع ممتلئة بأعضاء الرجال. الرجال يذهبون إلى شارع سعد زغلول يشترون كيلوتات النساء، والنساء تذهبن إلى شارع صفية زغلول يشترين سراويل الرجال. المدينة انقسمت نصفين، في الشرق عاش الرجال مع الكيلوتات الممتلئة وهجروا النساء، في الغرب عاشت النساء مع السراويل الممتلئة وهجرن الرجال. المدينة ظهرت لعماراتها عيون وتدلت من نهاياتها ضفائر وشعر منسدل. ظهرت تحت العمارات والبيوت أقدام حملتها ومشت بها جميعا لتقابل كل واحدة الأخرى وتبكي وتشد شعرها أمامها. العمارات أمضت اليوم كله في النحيب ثم عادت إلى مكانها. في الليل جاءت الرياح الأربع حملت المدينة وطارت بها. راح الرجال يلقون من فوق الريح بكيلوتات النساء، والنساء يلقين بسراويل الرجال. أخذت الرياح الأربع الرجال والنساء والبيوت والعمارات وغيبتهم في الكون الواسع. دخلت بهم مجرّة بعد أن عبرت بهم عشر مجرّات. على الأرض ظلت الكيلوتات والسراويل، لكنها صارت ممتلئة بالفئران تخرج منها وتدخل ضاحكة وترتفع صأصأتها حتى امتلأ الفضاء باللهو والصخب. حملت الفئران السراويل والكيلوتات

على ذيولها وجرت بها إلى الميناء تختبئ في الغرف السفلى للسفن حيث الأفران والأجهزة والمسافرون الفقراء. دب الهلع في السفن وراح الركاب يلقون بأنفسهم إلى الماء».

***

ولخير الدين حكاية معي في الحياة. خير الدين في طيور العنبر كان صديقي مثل سليمان وكثير من الشخصيات. كنت أنا الطفل والصبي كروان. كان اسمه في الحقيقة السيد خير الدين. وكان بعد أن حصل على دبلوم التجارة وعمل في مصانع حلوان الحربية بعيدا عن الإسكندرية يراسلني وأراسله. ولديّ منه حتى الآن بعض الرسائل. سأضع واحدة منها هنا. سأصورها بخطه. مات مبكرا، عام 1962 بسبب السل الذي ظهر فيه فجأة. وكم أحزنني موته وكم عاد إليّ في الأحلام حتى أنه أخافني لأني كنت دائما في الحلم أراه وسط الليل يقف على ناصية أحد الشوارع يناديني بصوت هامس. تكرر الحلم مرات حتى خفت بجد وأخبرت أمي فقالت: «هو مات خلاص يا براهيم. إنت اللي بتحبه ونفسك تشوفه مش هو اللي عايزك. ماتخافش». واختفى الحلم بعد ذلك حتى عاد خير الدين إلى الرواية التي لم يكن ممكنا أن تتجاوزه. وأسميته محبة له خير الدين خير الدين خير! رغم أنه سيرحل عن الدنيا وربما لذلك فلا خير يبقى في هذا العالم الشرير.

«خطاب خير الدين»

بسم الله الرحمن الرحيم

نلاحظ في خطابه أنه يحدثني باسمي الذي كنت معروفا به، وهو اسمي واسم أبي رحمه الله. أما عبد المجيد فهو اسم جدي. وهكذا طبيعي أن أتذكر أن القصة الأولى التي نشرت لي في جريدة الأخبار وكانت فائزة في نادي القصة بالإسكندرية نشرت هكذا باسم الجد. أتذكر كيف رأيت في عيني أبي شيئا من العتاب. ولكني اعتذرت له طبعا قائلا الحقيقة وهي أنهم اختصروا اسمي فقال باسما: لا بأس عبد المجيد هو اسم جدك أيضا. وأخذ نسخة الجريدة وجعلها جواره طول النهار.

وقت استلام هذا الخطاب كنت ناجحا من الأولى الثانوية الفنية إلى السنة الثانية. أما تلاميذ الإعدادية الذين يسأل عنهم فهم من أبناء المساكن طبعا. وكان منهم سعيد المشعور الذي رسب العام الفائت وذلك العام أيضا وترك التعليم. أما العملية الجراحية فكانت استئصال غدة من عنقي لا يزال أثرها ظاهرا حتى الآن.

تعليقي على الخطاب يشرح نفسه. كانت خمس سنوات تقريبا مضت على احتفاظي به. أما الآن فقد مضت وإحدى وخمسون سنة ولا يزال الخطاب عندي وخطاب آخر.

***

وجدت أن رواية طيور العنبر تنفتح على ثلاثة أشياء سحرية ضاعت كلها من الإسكندرية الآن – هذا موضوع روايتي الثالثة–

لكنها كانت موجودة ذلك الوقت كما كانت موجودة في زمن (لا أحد ينام في الإسكندرية). هنا بعضها فاعل أكثر من الآخر. ترعة المحمودية فاعلة في الروايتين. لكنها في هذه الرواية أكثر فاعلية؛ فمساكن عمال السكة الحديد التي تجري فيها وتخرج منها الأحداث والشخصيات المصرية تقع عليها. وهذا أول السحر الذي كان موجودا في جنوب الإسكندرية ذلك الوقت.

تشغل هذه الترعة مساحة كبيرة من رواياتي كما ذكرت من قبل وعلى شاطئها تجري معظم أحداث روايات (ليلة العشق والدم)، وبعض أحداث (لا أحد ينام في الإسكندرية) ثم كثير جدا من أحداث (طيور العنبر). ترعة المحمودية كما قلت من قبل هي التي أخذت بالإسكندرية من العدم إلى الوجود، بعد أن تولى محمد علي باشا، حكم مصر المحروسة في بداية القرن التاسع عشر. كان هو الذي أمر بشق هذه الترعة في عشرينيات ذلك القرن وأسماها المحمودية على اسم السلطان محمود الخليفة العثماني في ذلك الحين. وصلت الترعة بين البلاد والبحر المتوسط، فراجت التجارة وانتعش الثغر بانتعاش الميناء. ويكفي أن نعلم أن سكان الإسكندرية الذين كانوا ثمانية آلاف قبل الترعة، قفزوا إلى أربعين ألفًا بعد شق الترعة ثم تجاوزوا المئة ألف بعد بداية القرن العشرين. باختصار، ضخت التجارة الحياة في الإسكندرية عبر هذه الترعة لكن ماذا يهمنا هنا؟

الترعة في ظهر المدينة توازي البحر في وجهها. البحر للنازحين من المتوسط والترعة للنازحين من الريف المصري. بالترعة صارت الإسكندرية مدينة بحرية وريفية معًا، وحول هذه الترعة قامت أحياء وبيوت للغرباء الذين يعملون في حرف فقيرة ولكنها ظلت أيضًا متنزهًا للأحياء في النسائم العليلة للعصاري وأيام الصحو حيث تنطلق فوقها الفُلك الملونة والأحباء من كل الأعمار. في أواخر الستينيات بدأ التخلي عن النقل النهري شيئًا فشيئًا، فأُهملت الترعة وضاع جزء كبير من روح المدينة. جزء عاصرته أنا في طفولتي وصباي وكان قرين السفر. من أين يأتي هؤلاء الغرباء شذاذ الآفاق وإلى أين يذهب هؤلاء الهاشميون غريبو الأطوار. في رواية (ليلة العشق والدم) فإن الفتاة التي تتمحور حولها الشخصيات والأحداث تعمل فوق (معدية) تنقل الناس بين ضفتي الترعة. إنها أشبه بحورية البحر التي يقع الناس في هواها فلا يعودون. حالة من الجمال المتجدد في عالم شديد البؤس. وفي رواية (لا أحد ينام في الإسكندرية)، فإن فصلًا من أجمل فصولها بشهادة كل من قرأ أو كتب عن هذه الرواية يجري فوق الترعة حيث تتنزه كاميليا المسيحية مع حبيبها رشدي المسلم فوق القارب، لكن المشهد لا يخلو من رؤية الجثث التي يدفعها النيل للترعة. رحلة أوزورية قديمة ربما، لكن الجوكان يؤذن بانقضاء قصة الحب الجميلة.

في رواية (طيور العنبر)، الشخصيات المصرية كلها تعيش بالقرب من الترعة، وعلى الشاطئ مباشرة تعيش شخصيتان من

أبز شخصيات الرواية هما حبشي وبدرة معزولان عن الدنيا. لكن الدنيا تمر من أمامهما عبر السفن والنوتية. حبشي نفسه لا يعرف من أين أتت بدرة وهل ستظل معه أم ستختفي كما جاءت، وكما فعلت الزوجة السابقة. حبشي لا عمل له. يعيش على ما تقذفه له السفن ويبيعه. وكثيرًا ما يجد على الشاطئ أطفالًا في الأسابيع الأولى من أعمارهم فيحملهم يربيهم. تسأله بدرة وهو يدخل إلى الكوخ حاملًا أحد اللقطاء على ذراعيه فيقول:

– لقيط مسكين أحضرته معي، هكذا أصبحتِ أمًّا قبل أن تحملي.. رزق من الله.

سألته في دهشة:

– هل بقية أولادك لقطاء؟

– أجدهم على الشاطئ. إنها خطايا المدينة يا بدرة يقذفونها علينا.

– لماذا لا تتركهم ليأخذهم شخص آخر؟

– ما دمت رأيتهم فهذا يعني أن الله وضعهم في طريقي.

ويستمر الحوار حتى تضحك فجأة. فيقول:

– ماذا يضحكك الآن؟

ظلت تضحك ثم سألته:

– هل أنا ضحكت فعلًا.

– ماذا جرى يا امرأة. تستغفلينني؟

– لا والله يا طرزان.

هذا اسم شهرته.

– أكثر من مرة قلت لك إن الضحك من غير سبب قلة أدب.

لكنها تستمر في الضحك.

– أنت حاطت حشيش في الجوزة يا حبشي.

– هل تشمين رائحة حشيش؟

– لا.

– إذن أنا لم أضع شيئًا.

ويضحكان معًا ويهتزان وهو بدوره يفكر في حالة الانسجام هذه ويتساءل هل يكون سببها المعسِّل الذي يدخنانه.

– تكون شركة المعسّل وضعت حشيشًا للشعب؟

لكنها لم ترد. تسكت وتبتعد عنه قليلًا ثم تسأله:

– أنا محتارة في الدنيا يا حبشي.

– نعم!

فقد فوجئ بالكلام واستمرت هي.

- كل يوم بعد أن ينام الأولاد والبنات وتنام أنت وينقطع من الدنيا النفس، أسأل نفسي إحنا فين ومين اللي حطنا هنا.

أمسكها من كتفيها وراح يحملق في وجهها وسط ضوء النهار الهادئ ويقول:

- بدرة.. جرى شيء لعقلك؟ربنا هو اللي حطنا هنا.

- أعرف. لكن كان ممكن يحطنا في مكان تاني.

لم يرد. سكت غير مصدق فقالت:

- أنت زعلت؟

- أزعل ليه، هل أنا ربنا. ربنا هو اللي حيزعل منك.

وهكذا تداهمها أفكار وأحاسيس عبر ليالي الوحدة على هامش المدينة الغاصة والمليئة بالبشر من كل الجنسيات والحافلة بالصخب. على أنهما كانا من دون الناس في هذه البقعة الملقاة على هامش الهامش.

أنا لا أستطيع أن أنقل كل الحوارات لكن أقدم نموذجا للحوار لهذا النوع من الهامشيين.

ذات مرة كانت تعاتبه لأنه يشبهها بالقردة صديقة طرزان، فقالت له:

- إخص عليك يا حبشي دائمًا تشبهني بشيتا.

- يا وليّة وهل يختلف القرد عن البني آدم. القرد ليس إلا بني آدم ربنا سخطه لما مسح مؤخرته باللبن. وعلى فكرة ممكن ربنا يسخطنا بدون لبن ولا شاي.

ضحكت واهتزت في صدره واستمر هو يتحدث:

- ربنا قادر على كل شيء ورأيت بنفسك ما فعله ربنا بالسيد الأعرج، حرقه بدون نار، ولازم تأخذي عظة.

- إخص عليك يا حبشي لماذا آخذ عظة. هل أنا غلطانة في شيء؟

- لا طبعًا لكن الإنسان لابد أن يأخذ العظة في كل وقت.

وسكتا لحظات حتى قالت:

- تعرف يا حبشي لوسخطني ربنا سيسخطك أنت أيضًا.

قال ضاحكًا وهو يضمها بشدة:

- مادمنا معًا لا يهمني شيئًا.

- وإذا سخطنا سيسخطنا حجرين.

- الأحسن يا بدرة أن يسخطنا تمثالين، حبشي وبدرة، شيء مثل حسن ونعيمة في الحكاية الشعبية، والناس تتفرج علينا

ويدفعوا ثمن التذاكر والفرجة كما يفعلون عن دخولهم منطقة عامود السواري. المهم أن البلدية تضرب حوالينا سورًا وتعلق يافطة (منطقة أثرية).

- يا ليت يا حبشي نصبح أغنياء بحق.

- الفلوس ستأخذها الدولة ونصبح حجرين. ألا تفهمين؟

نظرت إلى عينيه طويلًا ثم سألته:

- كيف تعرف كل هذه الأشياء يا حبشي؟

هذا ملمح واحد مما يفعله المكان في الناس وهذه الزوجة الغريبة سوف تمضي ذات صباح في رحلة غريبة مع رجل غريب فيه من الصوفية أثر كبير، ويظل حبشي يجمع اللقطاء، إلا أنه لم يعد ينتظر أن يجدهم على الشاطئ، بل صار يذهب ويذرع المدينة باحثًا عنهم.

ترعة المحمودية ليست مجرد ترعة إنما هي محفل للأسرار الروحية ومكان مشبع بالموت والجنون والحب والمرح. مكان مسكون بأرواح الذين حفروها وماتوا تحت ترابها أحياء كما ورد في روايتي (لا أحد ينام في الإسكندرية). في رواية (طيور العنبر) يتخيل سليمان في قصته السوريالية كيف جفت الترعة فرأي فوق القاع مئات النساء العجائز، هن عرائس النيل اللاتي تم تقديمهن

قرابين للنيل في الأزمنة السحيقة. لقد صرن عجائز الآن بعد هذا الزمن الطويل وفجأة يطرن في الفضاء أمام سليمان كالغربان.

ولدت قريبًا من الترعة وعرفت أسرارها وسكنتني هذه الأسرار. وفي نهاية الرواية يرى كروان الصغير زوجة حبشي الجديدة بعد أن اختفت بدرة مع الرجل الصوفي الغامض، يراها تسبح في الترعة كل يوم عند الفجر بين بخار الماء فيمشي جوارها آخر مرة على الشاطئ وتستمر هي في السباحة ولا يدرك أنه يبتعد عن المكان كأنه ذاهب إلى رحلة غواية جديدة. «لم يدرك أنها وهي تسبح ناحية كوبري كرموز كانت تزيد المسافة ليلة بعد ليلة، وهو يمشي معها غير شاعر بالتعب ولا بالجوع ولا بالعطش».

كنت أعرف أن شخصيات هذه الرواية ستعطيني إمكانات كبيرة على الحكي الغرائبي قياسا على مكانها العجيب وعلى أعمالها في الحياة التي تقوم على الوهم أكثر من الحقيقة. وكلها تقريبا رأيتها أو عشت معها أو تعايشت وكانوا في أكثر أعمالهم جدا يثيرون ضحكنا نحن الصبية ونعتبرهم مجانين. والحقيقة أننا كنا نحن المجانين في نظرهم مما نفعله. ولن أحكي عنهم وقائع من حياتهم كلهم لكن سأذكر مثلا حكاية لطيفة مع عيد المشعور الذي كان في الحياة اسمه سعيد حين كنا في السنة السادسة الابتدائية عددا كبيرا من التلاميذ ينتظر أهلنا أن ننجح في الشهادة الابتدائية وكنا نذاكر معا في بيوت بعضنا أو في الجامع الصغير بالليل وكان والد سعيد حريصا على

متابعته ومراقبته ونهره إذا وجده يلعب. وما أكثر ما كنا نلعب الكرة الشرا ب أو نصطاد السمك أو العصافير، فإذا بعيد يفاجئنا ويفاجئ أهله والنا س جميعا بكتابته على جميع الجدران عبارة «لن ينجح سوى إبراهيم» الذي هو أنا. وناله من ذلك علقة كبيرة من والده الذي كان استحضر مدرسا خصوصيا له في وقت لم تكن فيه دروس خصوصية. طبعا نجحت وغيري ورسب عيد ولم يكمل تعليمه. حكايات كثيرة أخذتني إلى ما هو عجائبي بسهولة فصار الخيال كأنه الحقيقة. أما النساء فكن مكسورات الخاطر من ظلم الرجال والبنات يحلمن بعالم أفضل تقدمه لهن الأغاني والحكايات، ومن كانت تخرج على ما حولها تكون سيئة الحظ وينكشف أمرها بسرعة لا أعرف كيف. وكنت على صغر سني أحبهن ويحببنني وأشفق عليهن جدا ولا أستطيع أن أعبر عن ذلك. فقط كنت أنظر لهن حزينا إذا ألم بإحداهن مكروه ويبدو الحزن على وجهي. كن لا بد يدركن مشاعري المرتبكة فكن يسمحن لي بالجلوس معهن في سهراتهن، ومؤكد أن هذا الشعور تجاه النساء والفتيات كان وراء احتفالي بهن في رواياتي ورؤيتي للمرأة ككائن أجمل مما تستطيع الحياة احتماله. فلفل مطحون العطار القديم يعيش على الأحلام القديمة في تغيير الدنيا بالعطارة والديب حارس قطارات البضاعة يعيش معلقا بين السماء والأرض فيعود بحكايات كلها من الخيال، وعيد المشعور الصغير مجذوب إلى المجاذيب في كل مكان. في الوقت الذي يعيش العقلاء على أحلام واقعية لا تفسح لها

الحياة طريقا. فالعربي الذي يعمل عند كاتينا اليونانية يحبها لكنها لا تحبه وتعطف عليه، وتحبه سارة اليهودية التي ستترك البلاد وهو لا يحبها. وسليمان ضاعت قصة حبه مع الإنجليزية، ونوال تحب طبيبا معها في المستشفى فتقع في خلية شيوعية حبيبها عضو فيها مما هو أكبر من احتمالها وتتعرض للقبض عليها من قبل أمن الدولة بعد أن دخلت عالما غريبا لم تكن تعرف عنه شيئا. والست نرجس الخياطة المصرية تتجمع حولها الفتيات ذوات الأحلام في الأماسي يتعلمن منها الخياطة ويستمعن للموسيقى وتقابلها كاتينا اليونانية صاحبة أتيليه تصميم الملابس والعربي يتحرك بين العالمين. العالم الجنوبي هنا لا يبتعد عن العالم الشمالي الذي يبدأ في الانحسار بخروج الأجانب من الإسكندرية بالتدريج بعد حرب 1956. كل الأماكن زرتها من جديد وقرأت تاريخها وخاصة الأماكن الشمالية بما فيها من محلات أجنبية وشوارع كانت تحمل أسماء وأنشطة تجارية وفنية أوربية. وهكذا. كنت أعرف في صباي أن أسماء الشوارع الأوربية، اليونانينة بالذات كانت أيضا على بعض من شوارع الأحياء الشعبية وخاصة في منطقتي راغب وكرموز. ذهبت يوما في الصباح الباكر حيث كنت أمضي بعض أيام الصيف في الإسكندرية ورحت أمشي بينها أنظر إلى أسماء الشوارع وطبعا لم أجد الأسماء القديمة. كنت في منطقة تسمى العمري بين كرموز وراغب. جلست على مقهى صغير فتح مبكرا فوجدت أمامي لافتة لشارع تحمل اسم هرقليطش، بالشين وليس بالسين. طبعا تعرف

بسهولة أنها لافتة وضعت بدلا من قديمة لم تعد صالحة أو واضحة وتعرف بسهولة الذي كتبها أخطأ في الاسم. طبعا لقد ابتعد الزمن كثيرا عن اليونانيين. أدركت ذلك وابتسمت وكانت هذه اللافتة سببا في المشهد الأخير الذي يقوم فيه العربي في عمله الجديد بعد رحيل كاتينا. لم يكن العربي حاصلا على أي شهادة لكن عمله مع كاتينا سنوات جعله على مستوى معقول من المعرفة. بعد رحيلها لم يجد عملا غير هذا العمل. عامل خدمات في البلدية أو المحافظة بعد ذلك، يوكل إليه دون الناس أن يقوم بوضع اللافتات التي تحمل الأسماء العربية الجديدة بدلا من الأجنبية عامة واليونانية خاصة. كل لافتة كان ينزعها كان يعرف شيئا عن اسم صاحبها اليوناني. من الخطأ الذي رأيته في اللافتة جعلت اللافتة في الأصل تحمل اسم هرقل والمطلوب وضع لافتة أخرى تحمل اسم عنترة بن شداد. هذا بطل أسطوري يوناني وهذا بطل أسطوري عربي. وجعلت العربي يعاني من الرفض داخله وغير قادر عليه رغم أن هذا صار عمله الجديد. هو يعشق هرقل ورأى أفلاما عنه ويسمع سيرته من اليونايين؛ لذلك اشترى ألوانا وغير اسم اللافتة إلى هرقليش جامعا بين حروف هرقل وحرف الشين من ابن شداد. بعدها ركب الموتوسيكل ومشى يرى الدنيا غائمة أمامه متصورا أنها تمطر ليكتشف أن دموعا تنزل من عينيه تحجب الرؤية وليس المطر! جاءت نهاية الرواية من هذه اللافتة الخطأ التي رأيتها صباح أحد الأيام في زياراتي المتكررة للأماكن التي أكتب عنها!

كان هناك عالما سحريا آخر في الإسكندرية هو عالم السينما يشغل هنا مساحة كبيرة أيضا ويشكل حياة أحد الأبطال الصغار، محمود الملاح. والحقيقة أنه شكل حياتي أنا أيضا بطريقة أخرى وإن لم أسعَ للعمل في السينما مثلا، لكنها كانت بابا سحريا لي على الفن والأدب.

الإسكندرية هي مدينة السينما الأولى في مصر. فيها بدأ العرض الأول في القطر كله عام 1895 م. نفس العام الذي عرض فيه الأخوان لوميير شريطهما الأول في باريس. كانت دور السينما مملوكة للأجانب واليهود ويبدوأنه لم يكن هناك من عمل لي إلا دخول السينما في طفولتي وصباي وشبابي. في الخامسة من عمري ألحقتني أمي بـ(روضة أطفال) في حي كرموز، وهو الاسم الذي تغير إلى (حضانة أطفال) الآن. كان الاسم القديم أجمل فالروضة من الرياض، ومن الحدائق، وكانت هناك حديقة بالفعل في تلك الروضة نقضي معظم اليوم نلعب بها. وذات صباح رأيت باب الروضة مفتوحًا فمشيت خارجًا..

لم أقصد أن أعود للبيت ولم أقصد أي شيء. وبعد خطوات قريبة وجدت زحامًا أمام أحد الأبواب الذي تعلوه إعلانات ملونة لرجال ونساء. كانت هذه السينما، هي سينما (مصر). وكان الناس يدخلون الحفل الصباحي. مشيت بين أرجلهم ولم يلتفت إليَّ أحد ليسألني عن تذكرة الدخول، ولم أكن أعرف أن هناك

تذكرة للدخول، وجدت الناس تجلس فجلست ثم أُظلم المكان وبدأت الصور المتحركة تجري أمامي، وبدأ الجالسون يضحكون، ويتقافزون مع الصورة ووجدت نفسي أضحك معهم، وأصفق. إنها السينما الشعبية في مصر. انتهت الصور وأُضيء المكان فخرج الناس وخرجت معهم وكأنني خارج من كهف مسحور.

في اليوم التالي أوصلتني أمي في الصباح وعادت إلى البيت القريب. بعد ساعة أو أكثر خرجت من الروضة ذاهبًا إلى السينما، وصار هذا ما أفعله كل يوم..

صرت بذلك أصغر تلميذ في العالم يهرب من المدرسة ليذهب إلى السينما حتى جاءت أمي مبكرًا مرة إلى الروضة لتأخذني إلى البيت، فلم تجدني. بحثوا عني في كل مكان حتى رأوني خارجًا من السينما. حكيت لأمي القصة فعهدت إلى طالب أكبر مني أن يأخذني كل يوم، يذهب بي ويعود بي. هذا الطالب لا أنساه. سألني أين كنت تذهب كل يوم؟ قلت إلى السينما. قال لي سوف نذهب معًا. وكانت مشكلته أنه أطول مني فكان يقطع تذكرة كل يوم فصار يستولي على مصروفي نظير أن يظل الأمر سرًّا بيننا. هكذا وجدت حارسًا أمينًا لي يستطيع أن يطمئن أمي عليَّ كل يوم.

في السينما، رأيت الأفلام المأخوذة عن قصص أدبية، عرفت ذلك فيما بعد، فصرت أشاهد الفيلم ثم أبحث عن الرواية، وهكذا كانت السينما من أكبر عناصر تثقيفي. عرفت عن طريقها الملاحم

الإغريقية والأدب الإنجليزي والفرنسي والروسي والأمريكي، وكانت السينما جزءًا من فضاء الإسكندرية (سينما الدرجة الأولى والثانية والثالثة)، اندثرت سينمات الدرجة الثانية والثالثة الآن لكنها تقوم حية من جديد في أعمالي في روايات (بيت الياسمين) و(لا أحد ينام في الإسكندرية) و(طيور العنبر)، في الأخيرة هذه بالذات شخصية جميلة هي شخصية محمود الملاح الذي محور حياته كلها حول فكرة أن يكون مخرجًا وهي فكرة خيالية، فهولم يتعلم شيئًا في فن السينما، كل ما جرى أنه قد أستعين به ضمن مجاميع الكومبارس الذين حملوا المشاعل في فيلم (ابن النيل) ليوسف شاهين. كان محمود الملاح في الحقيقة هو الأخ الاكبر للولد الذي عهدت أمي بي إليه وكان يستولي على مصروفي ليدخل معي السينما بالتذكرة. كان ذلك الولد اسمه سيد ومحمود كان الأكبر ولأن أصلهما الريفي كان واضحا عليهما جدا كان الكبار يسمونهما بسيد الفلاح ومحمود الفلاح وليس الملاح كما فعلت. وكان محمود هو الأكثر حضورا في الشارع بحكايات غريبة لا يصدقها أحد. يمحور محمود الملاح في الرواية حياته حول فكرة أن يكون مخرجًا، وينتهي أن يكون «كومبارس» كما بدأ، لكن في إيطاليا هذه المرة ومن هناك يرسل خطابًا غريبًا وعجيبًا إلى صديقه سليمان.

أنقله إليكم هنا:

الأخ الحبيب سليمان. بعد التحية العطرة والسلام.

حاجات كتير بتحصل يا سليمان ولم تكن في الحسبان. طبعًا أكيد عرفت سفري إلى إيطاليا. لازم يكون الخبر انتشر من بيتنا من زمان! أنا فعلًا في إيطاليا. تعرفت قبل السفر في القاهرة في ستوديو نحاس على كومبارس إيطالية عايشة في إسكندرية شوف العجب يا سليمان. لم أتعرف عليها في الإسكندرية التي نعيش فيها معًا. السينما جمعتنا في القاهرة. ويمكن الفقر، أكيد الفقر. رجعت معاها إسكندرية وعشت معاها في شارع تانيس في شقة واسعة، وهاوية ونظيفة. عشت معاها شهر جميل لغاية ما تركنا إسكندرية. دلوقت عايش معاها في روما. أكلمك عن إيه ولا إيه يا سليمان! من ساعة ما جيت وأنا بامشي أبص حواليا على المتاحف والبيوت والميادين والنسوان! طبعًا تلاقيك لا تصدقني وعايز تعرف كيف هي إيطالية وكانت عايشة في إسكندرية وحدها. شوف يا سيدي. هي كانت متجوزة راجل فحّام على مركب. كان قويًّا جدا لدرجة أنه لما كان يحب ينام معاها كان يمسكها من وسطها بيديه ويقف وسط الصالة ويرفعها ويفضل طالع نازل بيها من غير ما يتحرك سنتيمتر واحد من مكانه. تخيل أنت كان فحلًا قد إيه. المهم صاحبك الفحّام هذا كان غبيًّا، وريحته كوك على طول، وفي يوم وقع في مدخنة المركب واتخنق. ساب لها بنت جميلة، وفقر كتير، اضطرت تشتغل

كومبارس. لما عرفتها قلت لها أن انا مش أد الفحّام، ضحكت، وسكتت. في شقتها في شارع تانيس شفت العجب؛ نسوان مالها أول من آخر تشتغل في الملاهي على الكورنيش بالليل.. وبالنهار تيجي الشارع وتدخل الشقة علشان تنام. ساعات من كتر النسوان كان يتهيأ لي أن إسكندرية كلها بتشتغل في الملاهي والبارات. المهم يا سليمان أحب أقول لك إني هنا تقدمت في العمل جدًّا في السينما. أخذت دورًا صغيرًا في فيلم اسمه (السبعة ضد طيبة) قصة قديمة لكاتب يوناني، سمعتهم بيقولوا كده! أنا طالع بدور واحد من آلهة اليونان. أكبر إله اسمه زيوس. لبسوني لبس آلهة، فروة خروف مقطعة على صدري ومايوه مش باين، وأعطوني فخذة خروف آكلها قدام النار على جبل، ومراتي اللي اسمها هيرا تشوي قدامي فخذة الخروف الثانية. الفيلم سيعرض في مصر هذه السنة بالتأكيد. لا تنسَ اسم الفيلم. عايزكم تشوفوني وأنا إله يوناني، حاجة تانية خالص غيري وأنا بهدومي. والله عايز اعيط يا سليمان».

ولأن شخصيات الرواية تتنقل بين الشمال والجنوب كان طبيعيا أن تمتد الرواية إلى ثالث عوامل السحر بالمدينة وهي الملاهي الليلية. لكن بقدر تردد شخصياتها عليها أو إحساسهم بها. كانت الملاهي موجودة ذلك الوقت وكما كانت موجودة أيام الحرب العالمية الثانية حيث قامت رواية لا أحد ينام في الإسكندرية لكنها ستبدأ في الانقراض حين بدأ المد الوهابي في السبعينيات باتفاق

بين الحاكم، السادات، وأمن الدولة والإخوان المسلمين في محاولة لكسر التيارات اليسارية وهوما سيشكل موضوع روايتي الثالثة والأخيرة في الثلاثية «الإسكندرية في غيمة» وسيأتي الحديث عنها.

إذن السينما هي أنفاس الإسكندرية التي خمدت بالإهمال، لم يعد هناك سينما واحدة في الأحياء الشعبية. وكانت المدينة بالأفلام تتفتح على روح العالم، وكانت روحي تطير مع هذا الخيال، الذي أعود مرة أخرى وأشربه وألتهمه من الروايات والسيِّر والملاحم؛ لذلك تشغل السينما مساحة كبيرة في رواياتي، وفي (بيت الياسمين) احتفاء كبير بشارع صفية زغلول حيث يقع عدد من السينمات المهمة، وحيث يصبح مجرد السير في الشارع طيرانًا مع الخيال. هل أقول لكم إن مدرستي الحكومية، القبار ي الابتدائية، كانت تأخذنا بعض أيام الجمع في رحلة إلى سينما فريال المكيفة بمحطة الرمل نشاهد أفلاما عربية في أول عرضها. وأن مدرستي الإعدادية طاهر بك بالورديان الحكومية أيضا كانت أحيانا تعرض لنا الأفلام السينمائية بها. كانت هذه بقايا تقاليد العصر الليبرالي قبل ثورة يوليو لا تزال. كما كانت في عيد العلم توزع على الأوائل كتبا لطه حسين وأحمد أمين ونحن صغار في الإعدادي. وأذكر أني كنت الأول على الفصل مرة وأعطوني مجلدين من كتاب المختصر من أدب العرب الذي حرره طه حسين وآخرين وعددين قديمين

من مجلة المقتطف التي كان يرأس تحريرها شبلي شميل وكانت تعنى بالفلسفة والعلوم. أخشى أن أقول ذلك فلا تصدقوني أو تتذكرون ما آل إليه حال مدارسنا وتبكون. مدارسنا التي ليس في مناهجها الإعدادية ولا الثانوية حتى الآن فصل عن تاريخ السينما ولا المسرح ولا نجوم السينما ولا المسرح.

والآن أتحدث عن جانب ثالث، سحري، من أنفاس الإسكندرية القديمة الكوزموبوليتانية التي لفها الإهمال، ألا وهو الملاهي الليلية وبنات الليل. تلك التي مسَّها محمود الملاح مسًّا خفيفًا في رسالته والتى تظهر بجلاء في رحلات العربي في الرواية نفسها على الكورنيش يائسًا من حب كاتينا اليونانية، يائسًا من تحول المدينة عن الأجانب بعد حرب السويس. ولنستمع إلى الحوار بين العربي وسائق التاكسي في منتصف الليل بعد ليلة يائسة من الحب مع كاتينا اليونانية، وبعد جولة في حارة اليهود التي صارت خالية بعد رحيل اليهود عن المدينة. يسأله العربي ويجيب السائق.

- ما أحسن مكان يسهر حتى الصباح؟

- بلدي أم أفرنجي؟

- بلدي.

- ملهى عطيات حسين. ملهى ليلي ولا ملهى السفينة. أكيد حضرتك عارفه، الذي شكله بالضبط مثل السفينة، اسمه

الحقيقي (كوت دازور)، ناس قليلة هي التي تعرف الأسماء الحقيقية للملاهي في الإسكندرية. هذه فائدة السواقة يا أستاذ. (السفينة) في (سوتر) وعطيات حسين في (المزاريطة). هل تعرف أن جمال عبد الناصر شخصيا يأتي ويسهر عند عطيات حسين؟

- عبد الناصر نفسه؟

- بالضبط. كما كان الملك فاروق يسهر في السفينة.

سكت العربي تمامًا. أدرك أن طرق الحوار مسدودة مع السائق الذي لم يسكت.

- الملك فاروق كان لا يحب يسهر في إسكندرية إلا في السفينة أو الأوبيرج الأزرق في سوتر. في إحدى المرات رأيت الأميرة فايزة مع واحد مهم جدًّا. سألت وعرفت أنه سكرتير كبير في السفارة الأمريكية بالقاهرة.

وجد العربي نفسه يقول:

- وطبعًا شفت عبد الناصر بنفسك عند عطيات حسن.

اندفع السائق يتكلم:

- أنت لا تصدقني. طيب. ألم تفعل الثورة كل شيء عكس الملك. كان فيه ملك صار رئيس جمهورية، كان فيه إقطاع

صار فيه إصلاح زراعي، كان فيه رأسمالية أجنبية صار فيه تمصير. كان الملك يسهر في السفينة، إذن عبد الناصر يسهر عند عطيات حسين. السفينة أفرنجي، وعطيات حسين بلدي. صح يا أستاذ؟ اقتنعت؟

وكان العربي يفكر على نحو مجنون أن السائق وهو يتكلم قد تغير وجهه وصار يحمل وجهًا غريبًا، وجه سعد إسكندر سفاح كرموز الذي تم إعدامه في سجن الحضرة منذ عشر سنوات. لماذا فكر على هذا النحو؟ لا يعرف.

المهم هنا أن الملاهي أحد الوجوه الكوزموبوليتية للمدينة، كانت أيضًا مجمعًا لأبناء الجاليات الأجنبية وكذلك أبناء الجنوب وراء الأحلام. هذه الملاهي قد ضعف نشاطها وراحت تتقلص مع السبعينيات. بداية من منتصف السبعينيات بدأ بعضها يتحول إلى قاعات أفراح. لم يكن ذلك بسرعة وقوة. لكنه مع بداية الثمانينيات صار أمرا عاديا ورحلت الدعارة التي كانت تأخذ مكانها في الشوارع الخلفية للملاهي، رحلت إلى الأحياء الشعبية سرًّا طبعًا، ومع انفجار المد الديني السلفي الوهابي بيع ما تبقى من هذه الملاهي وتحول إلى مقهى أو مطعم والآن تستطيع أن تحصي مئة مقهى على كورنيش الإسكندرية ليس من بينها ملهى أو بار، وكلها لا تقدم الخمور. لقد صار الأمر مقصورًا على الفنادق الكبرى. لم يعد مشهد الناس على الرصيف في الصيف يجلسون أمامهم ما

شاءوا من مشروبات كحولية أو غير كحولية وأمامهم يدور باعة السوداني والمكسرات وفواكه البحر.

ما الذي يعنيه ذلك؟ في الحقيقة كانت هناك حياة تقوم على الحرية في المدينة، ولقد كانت الشوارع الخلفية للكورنيش في الستينيات وشيئًا من السبعينيات مسكونة بالطلاب الأغراب عن المدينة، وكانت شقق هؤلاء الطلاب هي ملاجيء بنات الليل المضمونة والمجانية. لقد تسرب ذلك إلى قصصي القصيرة، وإلى رواية (الصياد واليمام)، و(طيور العنبر) و(لا أحد ينام في الإسكندرية)، ولقد كان ذلك أشبه بالحلم الضائع الذي تحاول رواياتي إعادة إحيائه وتعميده من جديد. سيندهش القارئ هل هذا حلم ضائع حقا؟ والإجابة أن الدعارة صارت أكثر في كل مكان في مصر كلها لكن مقنَّعة بسبب الفقر وصار التحرش الجنسي عملا عاديا والأهم من ذلك أن مثل هذا العالم يقدم مادة مدهشة لأي كاتب. ولا يزال هناك الكثير لم أكتبه عن هذا العالم المثير والوثير والمدهش، وسوف يكون مشروعي القادم حيث سيحتل الفضاء الشمالي الصفحات الأكثر من فضاء الجنوب.

كانت المشكلة الفنية في طيور العنبر أكثر تعقيدا بالنسبة لي بسبب تعدد شخصياتها الذين هم أكثر مما تجد في رواية مثل لا أحد ينام في الإسكندرية. كان عليّ أن أقيم توازنا بين ظهورها واختفائها حتى لا أثقل على القارئ بقدر الإمكان أو أشطح به

بعيدا فتكون العودة للشخصيات الأخرى مرافقة للنسيان. لكن هذا كان سهلا. كان الصعب هو تعدد لغات الشخصيات بين الأجانب والمصريين من جهة وبين المتعلمين وغير المتعلمين أو بمعنى أدق بين المثقفين وغير المثقفين وتعدد عوالمهم. فعالم الخلية الشيوعية وأعضائها غير عالم الست مريم والحياكة وتلميذاتها من البنات وغير عالم كاتينا اليونانية وأسمهان الإيطالية وراشيل اليهودية وسليمان المحب للإنجليزية ثم المصرية وحلمه الضائع أن يكون روائيا وغير عالم حبشي وبدرة وعيد المشعور الذي بحث عن الله في خلاء البحيرة مع المجاذيب، غير عالم حرب السويس والمقاومة. وهكذا كان مجهودي الأكبر ليس في البناء الفني فقط ولكن في تعدد هذه اللغات. كتبتها مثل لا أحد ينام في الإسكندرية ثلاث مرات وفي كل مرة أقوم بالتصويب لما أكتب قبل الكتابة الثانية فكأني كتبتها ست مرات. وأنا أكتب في كراس من الحجم الكبير على الصفحة اليسرى وأصوب بين السطور وعلى الصفحة اليمنى ثم أعيد ما كتبته في كراس جديد على الصفحة اليسرى وأصوب على اليمين وبين السطور ثم أعيد ما كتبته للمرة الأخيرة وتصويب أقل وربما لا يكون هناك تصويب. في هذه الرواية أكثر من غيرها ظهرت الأغاني المصرية. وكان ظهورها ضرورة فنية فالبنات يجلسن حول أبلة نرجس تعلمهن الحياكة ويستمعن إلى الراديو ولكل منهن في الحياة قصة حب أو أمل في الحب فتكون الأغاني حديقتهن المفقودة وخاصة برنامج ما يطلبه المستمعون. وأيضا نوال الممرضة تتمتع

بصـوت جميل جعل أحد الأطباء يطلب منها أن تغني له أثناء إجراء العمليـات الجراحية وأحبها الطبيب أحمد وحاول أن يحقق حلمها في الوصول إلى الإذاعة المصرية بأن اصطحبها إلى أصدقائه أعضاء الخلية الشيوعية تغني لهم ليلة عيد الميلاد في 31 ديسمبر عام 1958 ولم يكن يدري أنه عند الفجر سيتم القبض على كل الشيوعيين في مصر وستتغير حياة نوال. صـارت الأغاني حديقـة جميلة للجميع ومدخـلا للحب أو الفـراق لكنهـا أيضا صـارت تقـوم بوظيفة فنية تختصر التعليق على الأحداث. ولأول مرة أجد نفسـي أكتب شعرا منثورا لأن أحد الشخصيات شاعر، وهو شعر منذر يختصر ما جرى للمدينة. أنقل هنا شيئامنه.

المرأة التي تجلس على عرش قلبي
انتهت لتوها من صنع الثورة
إنها تشوي بصلا على الفحم
وتشرب النبيذ مع الفراشات
وتوزع الخبز على جنود النهار
إن ديلاكروا الذي انتهى للتو
من رسم الحرية وهي تقود الشعب
قد خرج يجري في الحدائق
فرأى المرأة التي انتهت لتوها من صنع الثورة

فبكى بين يديها أن تنتظر
فالحرية الحقة لم يرسمها بعد
من أنت أيتها المرأة اللغز
قالت أنا التي اعتصر جويا حليبي
وقام مجنونا ليرسم فريق الإعدام
ويجري في الشوارع مع الثيران
يارفاق
الثيران عرفت جويا وأوسعت له الطريق
هيا نصلي جميعا وراء جويا
حتى نصل إلى:
هنا الإسكندرية
التي ينزل عليها المطر يغسلها
لترى السماء وجهها في الأرض
أي مدينتي العبقرية
مدينة النزق والجنون والاستشهاد
كيف دخلتك الخيول العجائز

محملة بكل هذا الغبار والتراب

كيف فتحت أبوابك للبرابرة

وتبعثرت فيك النساء

هبينا مدينتي القدرة على الثورة

إلخ إلخ.

أذكر أنني كنت عائدا من إسبانيا وأمضيت يوما كاملا في متحف البراد وأمام لوحات جويا وأدهشتني وأسرتني كلها لكن فريق الإعدام كانت الأكثر أسرا لروحي. وهكذا تسللت إلى الرواية. أما لوحة الجريكو الحرية تقود الشعب فلا تقل شهرتها عن لوحة جويا وكنت عرفتها من قبل.

والآن ما الذي أريده من الكتابة عن الإسكندرية عامة وعنها في روايتيَّ (لا أحد ينام في الإسكندرية) و(طيور العنبر). مرثية للمدينة الكوزموبوليتية بالتأكيد، ونشيد أيضًا في تمجيدها، والمدهش أنني بدأت الكتابة عن التحولات العنيفة التي شهدتها المدينة في السبعينيات في حياة الناس، راجع بيت الياسمين، وليلة العشق والدم، والصياد واليمام، ثم تركت السبعينيات إلى زمن أبعد. الحرب العالمية الثانية وما قبلها في (لا أحد ينام في الإسكندرية)، ثم حرب السويس وما تلاها في (طيور العنبر). في (لا أحد ينام في الإسكندرية)، كما لاحظ الناقد الشاب مجدي توفيق قطاعًا طوليًا

عن المدينة في الزمان. وفي (طيور العنبر) قطاعًا عرضيًا عنها في لحظة محددة. وفي (لا أحد ينام في الإسكندرية) كانت المدينة هي ملاذ الأجانب تسري فيها السماحة والحب. وفي (طيور العنبر) يرحل عنها الأجانب وتضمحل رغم روح الوطنية الغامرة.

وبالنسبة لي فرواية (لا أحد ينام في الإسكندرية) عن مفصل تاريخي كبير هو الحرب العالمية الثانية التي خرج أول انتصار للحلفاء على المحور منها. أقصد معركة العلمين التي بعدها لم ينهزم الحلفاء قط ولم ينتصر المحور في أي معركة. لقد ذادت الإسكندرية عن العالم، دافعت عن الديمقراطية في كل مكان، وهي المدينة الواقعة في بلد محتل.

أما (طيور العنبر) فهي رواية عن مفصل آخر، مفصل تحول المدينة عن وجهها الشمالي إلى وجهها الجنوبي. مفصل التخلي عن الكوزموبوليتية من أجل المحلية. وما أكثر المآسي التي جرت في هذا المفصل في الحب والسياسة والاقتصاد وكل شيء. (لا أحد ينام في الإسكندرية) نشيد، (طيور العنبر) مرثية، والاثنان يقيمان أو يحاولان إقامة المدينة الأسطورية على البحر المتوسط تلك التي قال عنها داريل إنها أكبر مما يمكن أن نتخيله عنها. وفي كل الأحوال فهي مدينتي أنا، بنيتها من خيالي، ومن الحب وكل الحواس الممكنة. إنها مدينة تختلف عن مدينة أي كاتب، ولا غرو فالإسكندرية بلُورة سحرية تعكس آلاف الصور.

في حوار مع أحد النقاد حول معنى (إسكندرية ماريا وترابها زعفران) قال لي إن المعنى هو المدينة المملوءة بالخير والمنتجة للطعام. فالمثل الشعبي يقول (مطرح ما يسري يمري) عن الطعام أي يشبع ويظهر أثره على الصحة. وفي اللغة أيضًا نقول لمن يأكل (هنيئًا مريئًا) وقلت بدوري إنني أميل أكثر إلى معنى البهجة والسعادة وقد اكتشفت منذ سنوات بالقرب من مدينة الإسكندرية (قرية ماريا) البطلمية التي كانت مخصصة لتحضير النبيذ والجعة وهي القرية التي كانت تغذي بهما الإسكندرية، والنبيذ والجعة مرتبطان بالسعادة والمرح ومعهما الطعام أيضًا، وهكذا فالإسكندرية ماريا يعني مبتهجة، وترابها زعفران أي خيرها لا ينتهي. وهكذا فما قاله الناقد يكون صحيحًا على النصف الثاني من الجملة، لكن لا يمكن أن تغفل السعادة عن النصف الأول. أما تفسير كلمة ماريا بالبحر فهو يطبق على أي مدينة تقع على البحر، لكن الإسكندرية قد اختصت به لمعنى آخر. لم يبق من المعنى القديم merry بمعنى البهجة في الإسكندرية الآن إلا الأغنية الشعبية، لقد أغلقت أماكن النبيذ والجعة تقريبًا وضاعت كثير من عوامل البهجة والسعادة في المدينة..

«في فيلم تسجيلي طليعي أخرجه مخرج فرنسي شاب اسمه نيوكولاس باري، شاركت كاتبًا فرنسيًا شابًا أيضًا اسمه إيمانويل آدلي في كتابة التعليق على الفيلم. إنه فيلم عن الإسكندرية

عنوانه(مافيش داريل) قام على فكرة أن الإسكندرية التي كتبها داريل لم تعد موجودة، وقام تعليق الكاتب الفرنسي على فكرة أن الإسكندرية الآن مثلها مثل المدن الأسطورية، سمرقند وطنجة، مدن لم تعد موجودة إلا في الذاكرة، أو الكتب، أما على الأرض فمدينة أخرى، الإسكندرية التي يعرفها العالم إذن كذبة الآن.. والفكرة مقنعة، فالأجنبي الذي يزور الإسكندرية سيجد شيئًا آخر. لقد خرج منها الأجانب واختفت صحفهم ونواديهم، اختفت الحياة الكوزموبوليتية التي أشرنا لشيء منها، والحقيقة أن كل ما يعرفه المرء عن الإسكندرية راح وانطوى. حتى السينمات اختفت وترعة المحمودية التي كانت متنزه الأحياء الشعبية بادت، ومن قديم تشهد الإسكندرية هجرات داخلية من النهر للبحر، أي من الريف، الدلتا والصعيد، إلى الإسكندرية، لكن المهاجرين كانوا قديما يذوبون شيئًا فشيئًا. منذ نصف قرن أخذت هذه الهجرات تزداد بسرعة كبيرة، ومنذ ثلاثين سنة ازدادت هذه الهجرة بشكل كبير مع انحطاط مستوى المعيشة في الريف، وعجزت المدينة عن الاستيعاب الروحي لهؤلاء المهاجرين، فعاشوا فيها ويعيشون محتفظين بثقافتهم الريفية ولهجاتهم. وأي تعداد معاصر لابد سيجد أربعة ملايين نسمة من أصول ريفية، ومليونين بالكاد من أصول سكندرية، ويكفي أن تقطع رحلة بقطار أبي قير لترى هذا التمركز لهؤلاء الريفيين جنوبي المدينة، والكارثة أنه منذ ثلاثين

سنة أيضًا حدث في البلاد كلها غزو ثقافي رجعي قادم من الخليج، ونالت الإسكندرية مثل غيرها نصيبها منه وهكذا صارت المدينة مثل برج بابل، يمكن أن تفهم اللهجات كسكندري، أو كمصري، لكن من الصعب أن تقبل عادات هؤلاء السكان الريفيين الأصلية أو القبلية أي المكتسبة من الجزيرة العربية. وهكذا يمكن أن نعترف بعنوان الفيلم، (مافيش داريل)، ويمكن أن يكون عنوانه «مفيش روبير سوليه» أو «مافيش هاري تزالاس»، أو «مافيش تسيركاس» وطبعا إبراهيم عبد المجيد ولا إدوار الخراط ولا أي ممن كتبوا عن الإسكندرية التي صارت كذبة، كانت بالنسبة للمصريين قديمًا كذبة أيضًا، بالمعنيين السياسي والاقتصادي. كان السكندريون المصريون يحتلون الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعي، ولما خرج الأجانب والجاليات، احتل رجال الثورة المصريون وحكام المدينة أماكنهم، وظل الشعب السكندري المصري في الدرجات الدنيا أيضًا، والمذهل أن هؤلاء السكندريين الذين يحتلون أدنى السلم الآن هم الذين يجعلون الإسكندرية القديمة حقيقة، فيكتبون عنها كما يكتب الذين نزحوا منها ويعيدونها إلى الحياة، وفي كتابتهم نوستالجيا مفعمة بالوداد لعالم لم يكن لهم، بالتأكيد لأن الإسكندرية كانت أجمل، وبالتأكيد لأن ظلم ذوي القربى أشد.

-3-
الإسكندرية في غيمة

عشر سنوات كاملة مضت بين (طيور العنبر) و(الإسكندرية في غيمة). نشرت طيور العنبر عام 2000 وبدأت في كتابة الأخيرة عام 2010 لأنشرها عام 2013. ما الذي أخرني كل هذا الوقت؟ كانت طيور العنبر كما قلت مرثية للمدينة الكوزموبوليتانية وكان مشروعي الذي أعلنت عنه كثيرا هو عن المدينة التي غزتها أفكار الصحراء الوهابية والسلفية فضاع ما تبقى من المدينة الكوزموبوليتانية والمدينة المصرية أيضا. كان المشروع واضحا لي تماما خاصة أني عشت كل تفاصيله. ولم يكن صعبا أن أبدأ فيه وأنهيه. حالة من الاطمئنان للزمن أعيشها دائما. لا أجد نفسي متعجلا في الكتابة. كنت على يقين غامض في روحي أني سأكتبها. ولن أخسر شيئا إذا انصرفت عنها إلى روايات أخرى تضعني أمامها الحياة. كما أنه في حياتي حدث تغير لم أتوقعه. فقدت زوجتي وتبعثرت حياتي كثيرا. على الأقل لست سنوات حتى أهداني الله زوجة أخرى لا تقل روعة وجمالا وإنسانية استطاعت بهدوء أن تلم ما تبعثر

مني وتعيدني إلى ما أحبه. البيت. الوطن. حدثتك من قبل كيف تم القبض عليّ ليلة أن كتبت مشهد القبض على شجرة محمد علي بطل بيت الياسمين وبنفس الطريقة. ظل الموضوع معي مثيرا للدهشة والضحك حتى جاء يوم غزو العراق للكويت ففوجئت بأحد شباب الكتاب الذي فقدناه مبكرا، رحمه الله، وهو القاص سيد عبد الخالق، يأتي إليّ مندهشا في إحدى الندوات المسائية في شهر رمضان وهو يمسك في يده رواية بيت الياسمين ويفتحها على صفحة محددة ويقول لي: انظر ماذا كتبت في الرواية التي نشرت منذ أربعة أعوام. وجدت حوارا بين صيدلي شاب يعمل في صيدلية الدكتور ماجد ويحلم بالسفر إلى الكويت ويشغل موضوع السفر حياته ويتحدث فيه بمناسبة وغير مناسبة مع الجميع فيرد عليه أحد الشخصيات ساخرا ويقول له إن شاء الله حتقوم حرب في الكويت والبترول كله حيولع! اندهشت وابتسمت ولم أهتم بعد ذلك بالحديث حتى كتبت رواية (قناديل البحر) التي لم أتحدث عنها. والغريب أنها فرضت عليّ كتابتها غير المتوقعة بينما كنت مشغولا بكتابة (لا أحد ينام في الإسكندرية). كنت في الحقيقة مشغولا أكثر بجمع المادة التي أريدها من الصحف بدار الكتب لأن ذلك كان عام 1991. كتبت مقدمة لهذه الرواية القصيرة – قناديل البحر – أشرح فيها لماذا كتبتها بعد حرب الكويت الأولى وكيف قفزت إلى روحي. كانت هذه أول وآخر مرة أكتب مقدمة لإحدى رواياتي. كنت اتفقت مع الكاتبة الكبيرة سناء البيسي على نشرها

مسلسلة في مجلة «نصف الدنيا» التي كانت ترأس تحريرها. سلمتها الرواية بخط يدي على أساس أن أقوم بتصحيح كل حلقة بعد جمعها بالمطبعة وقبل النشر. وهكذا في أحد الأسابيع ذهبت لأصحح ما جمعوه من الرواية للنشر. كانت مجلة «نصف الدنيا» ذلك الوقت في مبنى صغير قديم من دورين. لم يكن مبنى الأهرام الكبير الجديد قد بني بعد في نفس المكان. وبينما أنا أدخل من باب المبنى لأصعد السلم إلى المجلة لاحظت على يميني لوحة مفاتيح كهربائية كبيرة جدا بها فيوزات كبيرة وسكاكين توصيل وبلا غطاء. قلت لنفسي: مَن الأحمق الذي نزع غطاء هذه اللوحة. ذلك يعرض اللوحة ومن ثم المكان لخطر كبير يبدأ من ماس كهربي إلى حرائق. قلت ذلك لنفسي وصعدت نصف السلم فوجدت رجالا ينزلون بسرعة شديدة إلى أسفل. اصطدموا بي وكادوا يوقعوني على السلم. خيل لي أن ما فكرت فيه حدث وأن اللوحة انفجرت ففعلت عكسهم واندفعت أصعد حتى لا أعود إلى اللوحة، لكن النازلين مسرعين كانوا أكثر فسألت صارخا: فيه إيه؟ قالوا: زلزال. زلزال! كيف حقا لم أشعر به؟استغرق ذلك كله لحظات فنزلت جاريا معهم لأجد الشارع كله رجالًا ونساءً من العاملين في الأهرام والأخبار والمارة وزحامًا جبارًا وناسًا تجري وتاكسيات لا تستطيع الحركة من زحام الناس. طبعا لم يكن أمامي إلا الذهاب إلى البيت الذي حاولت الاتصال به لأطمئن من تليفون محل بشارع رمسيس على الأسرة فوجدت الحرارة في التليفونات كلها مقطوعة. قلت

مؤكـد من كثرة من يتكلمون. أخذت سيارتي ومشيت بين الزحام إلـى البيت. فـي اليوم التالي ذهبت إلى المجلة لأفعل ما لم أستطع فعله أمس وأقوم بتصحيح ما سينشر من الرواية فوجدت هذا النص في مونولوج لبطلها في طريقه إلى مرسى مطروح.

«هـذه البـلاد التي تسـمى مصر والتي تقع في الشـمال الشـرقي من قارة إفريقيا سـوف تتعرض لحـركات تكتونية كبيرة تهز الأرض والجبـال...» وليسـت الحـركات التكتونية إلا زلـزال. هنا تذكرت مـا جرى لي وأنـا أكتب بيت الياسـمين وما حـدث للكويت وكنت كتبتـه. هنا بدأت أخـاف. لكن في النهاية ضحكـت. وأذكر أنني في مداخلة صغيرة بأحد مؤتمرات الرواية التي يقيمها المجلس الأعلى للثقافـة تحدثت عـن ذلك ضاحكا وقلت ربمـا لذلك كتبت لا أحد ينـام في الإسـكندرية عن زمن بعيـد حتى إذا حدثـت أي واقعة مما كتبت تحدث هناك سنة 1940. ضحك الجمهور وضحكت يومها. لكـن الذي حدث بعد سـنوات طويلـة أنني وأنا أكتب طيـور العنبر شـملني خوف كبير. رعب. فجأة وأنا أكتب مشـهد وفاة خير الدين وجنازته وجدت نفسـي أبكي ويشـملني الرعب. أحسست أن شيئا سيحدث في حياتي لا أحبه ولا أتمناه. ضاقت أنفاسي ولكني قلت إن استشـراف الكتاب أو نبوءاتهم لا يفطنون إليها أثناء الكتابة. إذن لن يحدث شيء. لكن للأسف حدث وظهر السرطان اللعين في مخ زوجتـي وعانت ثلاثة أعوام حتـى ودعتنا. لذلك أهديت لها الرواية وكنت أهديت لها رواية سابقة هي البلدة الأخرى.

لقد ابتعدت عن الإسكندرية في غيمة ولا أدري. الحقيقة تشتتت حياتي وجمعت هذا التشـتت في أربع روايات سـأتحدث عنها فيما بعد هي برج العذراء وعتبات البهجة وشـهد القلعة وفي كل أسـبوع يوم جمعة. إنها الروايات التي كتبتها بين طيور العنبر والإسـكندرية في غيمة لكني سـأرجئ الحديث عنهـا حتى أنتهي من الحديث عن الأخيرة في الثلاثية، ثلاثية الإسكندرية.

رأيت الإسـكندرية تخلع ثوبهـا العالمـي أو الكوزموبوليتي في صباي ومطلع شـبابي. كل شيء فيها صار مصريا. الصحف الثلاث التي كانت تصدر في الخمسـينيات والسـتينيات، الأهرام والأخبار والجمهوريـة، كلهـا تتحـدث عـن التخلـص مـن الاسـتعمار بكل أشـكاله. وشـأن كل هذا الجيـل كنت أصدق، خاصـة أن الإذاعات أيضا كانت تفعل نفس الشيء. ولم يكن هناك فرصة لسماع إذاعات أجنبيـة فكلهـا مشـوش عليها. المدرسـة كانت تقول نفس الشـيء. الاحتفـالات القوميـة والوطنيـة كانت تقـول نفس الشـيء. وهكذا كنـت مثل الأغلبية من أبنـاء جيلي ناصريا حتى وقعت هزيمة 1967 وبدأت أفكر في الخطأ الشديد للنظام الناصري، وهوافتقاده أو وأده للديمقراطيـة. لكنـي فـي النهاية مـن الجيل الذي وفرت لـه مجانية التعليم التعلم، ووفرت له مشـروعات الدولة الصناعية العمل. ومن ثـم كان تـرددي بعض الشـيء لكني كنت أعرف أني يوما ما سـأنزع أقدامي من الأرض الناصرية إلى أرض أخرى كانت هي الشـيوعية،

حين قابلت الموظف المصري الذي كان يعمل مع المقاول اليوناني الذي كان اسمه كاتزيان في الترسانة البحرية. كانت الإسكندرية كهم بعيدة عني رغم أنها تتغير كل يوم. لكن هذا التغير لم يكن ملموسا ولا سريعا كما وضح في السبعينيات من القرن الماضي. رأيت ووجدت نفسي وسط عالم جديد انفتح علينا فجأة في مصر كلها وهو تحالف الرئيس السادات مع الجماعات الإسلامية والإخوان المسلمين ضد اليسار. ظهر ذلك في الكليات المختلفة ومنها كلية الآداب التي التحقت بها. وظهر ذلك في تغير طبيعة البناء في المدينة فلم يعد يلتزم بالقانون وارتفعت العمارات في شوارع ضيقة. وبنيت كثير من الزوايا تحت العمارات حتى لا تقع على المباني أي مخالفة وفقا لقانون أصدره الرئيس السادات. وسمي الرئيس السادات نفسه بالرئيس المؤمن. وظهرت العشوائيات بلا تخطيط على استحياء في البداية ثم انفجرت في الثمانينيات جنوبي المدينة وغربيها وبدأ ردم بحيرة مريوط على استحياء أيضا منذ منتصف السبعينيات ثم تقدم بسرعة في الثمانينيات وما بعدها. وظهرت محلات ملابس المحجبات وأغلقت الملاهي الليلية على استحياء أيضا في منتصف السبعينيات ثم تقدم غلقها بإيقاع أسرع في الثمانينيات والتسعينيات وبدأ التخلص من السينمات أيضا على استحياء في أواخر السبعينيات ثم ازداد وتقدم بعد ذلك. وارتفعت الخطب في المساجد تلعن في النصارى واليهود وتدعو للحجاب وتحذر من

السفور. وبدأ الحديث عن الفتن الطائفية والتمييز بين المسيحيين والمسلمين. وظهرت الأزياء الصحراوية في المدينة، الجلباب، وظهرت اللحية الوهابية أو السلفية وصارت علامة على الإيمان. كل ذلك ظهر باستحياء في السبعينيات وانفجر في الثمانينيات وما بعدها. رأيت الإسكندرية التي صارت مصرية تتخلى حتى عن روحها المصرية. والمدهش أنه مع هذا المد الوهابي زادت القذارة في الشوارع والميادين والإهمال لمرافق الدولة. وغير ذلك وبدا أن الناس جميعا مشغولون بالدين عن الدنيا أو بالأصح بالآخرة عن الدنيا.

كنا في الجامعة مجموعة من الشباب والفتيات المهمومين بما ندرس المحبين له والمهمومين بما يجري حولنا. بيننا كان شخص هادئ لكن في عينيه دائما نظرة استغراب. كان أكبر منا جميعا. كان قد تجاوز الأربعين وتقدم ربما من الخمسين. كان ماركسيا فكان طبيعيا أن نقترب منه. كان يجلس معنا دائما في كافتيريا كلية الآداب صاحبة الصيت والجمال التي انتهت الآن وصارت مكاتب إدارية. وكنا أنا وأصدقائي الذين صاروا أعلاما في الحياة الأدبية والصحافة والتعليم فيما بعد نجلس معه ومعنا بعض الزميلات. في الحقيقة كنا نشفق عليه خاصة أنه كان جادا أكثر مما ينبغي. هذا الشخص كان قد سبق له الحصول على البكالوريوس من كلية التجارة والليسانس من كلية الحقوق وها هوفي كلية الآداب ليحصل على الليسانس

أيضا. بدا لنا أنه يفعل ذلك ليشيع الفكر الشيوعي لا أكثر. لم نعرف أنه ينتمي إلى أي حزب ولم يحدثنا عن أي حزب. فقط كان يناقش معنا ما كتبه ماركس وإنجلز ولينين. على الناحية الأخرى كان من أصدقائنا بعض طلاب الريف قد استأجروا شقة في شارع تانيس وكنت أنا شبه مقيم معهم. وهناك اكتشفنا العالم الليلي للإسكندرية. فشارع تانيس هو الشارع الموازي للكورنيش والكورنيش هو شارع الملاهي الليلية ذلك الوقت. كان شارع تانيس في ناحية وشارع طيبة في الناحية الأخرى من شارع بور سعيد هما شارعا الحب والجنس، يسكن معظم الشقق إن لم يكن كلها الطلاب الغرباء ذلك الوقت. كنا مجموعة جميلة من الأصدقاء نعرف قيمة العلم والثقافة والفن وكل منا يجهز نفسه ليكون أديبا أو فنانا أو صحفيا أو أستاذا جامعيا. ومعنا زملاء الريف يجهزون أنفسهم للتخرج والعمل والعودة إلى بلادهم وقد حققوا الفوز بالشهادة الجامعية. كنا نشارك في النشاط الأدبي لقصور الثقافة والنشاط الفني ونتابع المسرح والأفلام الجديدة الأوربية والمصرية ونرى المدينة تتغير من حولنا. لم أكن في ذلك الوقت كتبت أي رواية. فقط كنت نشرت قصتين قصيرتين أو ثلاثًا ومقالتين أو ثلاثًا في المجلات القاهرية.

كان طبيعيا أن يستيقظ هذا العالم بعد أن كتبت روايتيّ (لا أحد ينام في الإسكندرية) ثم (طيور العنبر). رواية عن المدينة التي يجتمع فيها العالم وحولها ورواية عن المدينة التي صارت مصرية،

ثم رواية الآن عن المدينة التي فقدت العالمية والمصرية وصارت سلفية ووهابية. أي النهاية الأخيرة والتي بها تستكمل الثلاثية. كثيرا ما أواجه بسؤال: لماذا لا تجعلها رباعية مثل داريل وأندهش ثم أبتسم فرباعية داريل ليست أجزاء متتابعة إنما أربع روايات لعالم واحد. أربع أصوات لعالم واحد. روايتي متتابعة. وعن المدينة في تجلياتها الثلاثة وليس عن أجيال تتتابع. هي ليست مثل ثلاثية نجيب محفوظ مثلا تمشي فيها الأجيال وتموت وتحتل الأجيال الأخرى من العائلة الصدارة. هنا مدينة في ثلاثة تجليات لذلك لم أسعَ لأن تتواصل الشخصيات. اخترت من لا أحد ينام في الإسكندرية شخصية ثانوية هي شخصية حمزة عامل السكة الحديد الذي خطفه الإنجليز في الحرب ثم حين وقعت عليهم غارة ألمانية وهجوم ألماني في مرسى مطروح أخذوه بين الأسرى ثم أطلقوا سراحه وهم يتقدمون إلى العلمين، شخصية حمزة الرجل الجميل البسيط ظهر مرة أخرى في طيور العنبر. إنه يسكن مساكن السكة الحديد الواقعة على المحمودية بين كفر عشري وكرموز والتي كان منها رشدي التلميذ المسلم المثقف الذي أحب كاميليا المسيحية من حي غيط العنب. ربما يكون مفيدا أن أنقل لكم هنا ما حكاه حمزة عن خطفه في «لا أحد ينام في الإسكندرية» لتعرفوا كيف أن شخصية مثل هذه تستطيع بالفعل أن تخايل الكاتب مرة أخرى بطرافتها رغم أنها لم تكن أبدا شخصية رئيسة.

ماحكاه حمزة عن خطفه في العلمين:

أبدأ منين يا شيخ مجد؟! أقول إيه يا دميان؟! حكايتي دي لا بد عن يوم يحكيها الناس على الربابة زي حكاية أبو زيد والزير سالم. أي والله. آخر شيء فكرت فيه هو الرجوع لمصر. هي كانت فين مصر؟! من ساعة ما شدني العسكري الأفريكي الغبي ابن الكلب وضاع أملي في الرجوع. الله يسامحه انفجر بطنه قدامي.. الله يسامحه خدني منكم، من أولادي. من أهلي وبلدي، بعدتم عني كلكم. شفتكم طايرين في الهوا لورا والتراب قام غطى حتى على عيني ما عدتش شايف حد. أنا بصيت لقيت نفسي في مرسى مطروح. أيوة. مرت علي ليلة كاملة في القطر. العساكر بتضحك علي وتمسخر فيّ ما أعطونيش أي فرصة أقرب ناحية الباب كنت نطيت إنشا الله أموت.. ياالله.. طول الليل يضحكوا عليّ. أستراليون وهنود وأفريكان وإنجليز. كل الدنيا كانت تهزأ فيّ. أي والله. وأنا تايه وسطيهم، يسألوني اسمك إيه، وات إذ يور نيم؟ أقول حمزة يقولوا همزة وأمزة وجمزة ويضحكوا ويزقوني من واحد لواحد وأنا مذعور وسطيهم ذي الفار أبص في عيونهم وأترجاهم بليز هيلب مي، بليز ليت مي جو هوم، ولا حياة لمن تنادي، وكل ما كنت أطلب وألح عليهم يسيبوني وأبقى عارف أنهم فاهمين كلامي ولا يهتموا ولا يتحركوا. كنت أتألم. لو كنت أخرس أو جاهل كنت سكت

وانتظرت ورضيت ولكن ركعت على ركبتي وتوسلت بليز ليت مي جو باك. ليت مي جو هوم، هوم بليز. ماي هوم. هوم. هوم، ويضحكوا ويقولوا هوم هوم! وات إذ هوم؟ وي آر هومليس. يوآر لايك أص هومليس همزة، ويضحكوا، همزة إذ هومليس. ويضحكوا لغاية ما جه ضابط شاب عجبه عجزي وحيرتي وانزعاجي وربّت على كتفي يطمئني وتحدث مع الجنود فازدادوا ضحكا وشراسة في الضحك وأدركت أنه هو أيضا لن يساعدني لكنه أشار إلى ركن في العربة فجلست فيه ووضعت يدي على خدي، وأدركت أني ضائع لا محالة وسمعت الضابط يقول وهو بيشاور علي لايك مونكي! وضحك العساكر وفقدت الأمل، تذكرتك والله يا شيخ مجد، وأنت كمان يا دميان، والغريب أني خفت لما أرجع وأحكي ماتصدقنيش يا دميان وابتسمت رغم المصيبة وقلت بس أرجع وما يصدقنيش حد، وبعدين قلت زي الشيخ مجد يحلها من لايغفل ولاينام وحلها الحمد لله والشكر لكنه تأخر علي كثير قوي.. أكيد كان اختبار. أكيد. لكن كان صعب..

المهم. الحمد لله على كل شيء قلت لنفسي ونمت مكاني. صحيت لقيت نفسي في مرسى مطروح وغارة شديدة على البلد والمحطة والقطر. شفت العساكر بتجري في الصحرا وأنا ساعات قدامهم وساعات وراهم وشفت القنبلة وهي بتقع قريب من الأفريكي الغبي اللي خطفني فتشيله عن الأرض عشرة متر وزيادة

وتنزل بيه وبطنه مفتوحة والدم يشلب منه. شفت معدته ومصارينه قربت منه لاقيته حي لكنه لايتألم بس كان بيبص لي جامد زي اللي حاسس إني شمتان فيه ومش عايز يبان ضعيف، لكن أنا كان صعبان علي. يا دوبك اتلوى مرة وتألم مرة وفطس وغطيته بالرمل في عز الضرب. أي والله. المهم في النهاية انتهت الغارة وبقينا وسط ثكنات الجنود وقفت متحير. توقعت أنهم يتركوني لكنهم زقوني على المطبخ. شفت الظابط نفسه اللي كان في القطر وسمعته يقول لعسكري أسود تيك هيم توذا كيتشن. هي إذ آ سيرفانت. وسحبني العسكري الأسود أبو سنان بيضا وسألني وات إذ يور نيم؟ قلت زي المذهول: حمزة. سألني وات إذ همزة. قلت: لازم يعني الواحد يعرف معنى اسمه. قلت له حمار، بالعربي، سألني: وات إذ همار قلت له حمزة بص لي وسكت شوية وبعدين قال فيري جود همزة!

قعدت طول النهار والليل أشيل في أكل وأغسل في صحون وحلل. قلت زي بعضه أديني باكل، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ومسير حد يعرف حكايتي الحقيقية ويسيبني أروح المحطة وأخذ القطر وأرجع لعيالي لكن ماحدش سأل فيّ قعدت أفتش في المعسكر إزاي أهرب لقيت نفسي مش عارف الشرق من الغرب، جنود من كل ملة وسلاح من كل صنف وسط الصحراء، سلمت أمري لله، قلت يارب تيجي غارة ألماني تهد المعسكر على اللي فيه وحلمت إني راجع لوحدي وكان الضابط كل يوم يبص لي

ويضحك ويتكلم مع الضباط ويضحكوا الغاية يوم شاور لي راح قلبي طب ومشيت وراه لحد عربية كبيرة فوقها عساكر. كان فيه عربيات كتير فوقها عساكر بسلاحها. قال لي جامب وقفت متحير، العربية عالية وأنا قصير لكن عسكري أسود برضومد لي إيده تعلقت بيها ورفعني وشوية ومشيت العربيات حواليها دبابات ومدافع وسألت العسكري الأسود وأنا مذعور، مذعور زي الكلب، آه والله، زي الكلب اليتيم كمان. سألته: «توويرـ وي جو سولدجر».

قال لي وهو يضحك: «توذا وور» وضحك زي المجانين وأنا عرفت طبعا أنها الحرب وإن في الحرب نهايتي. اتغميت وتمنيت من الله شيء واحد وهو أن يهزم الإنجليز والحلفاء في كل حرب ضد الألمان والطلاينة الغلابة، وإني أقع أسير في إيد الألمان أو الطليان لأنهم ممكن إذا عرفوا حكايتي يسيبوني. طول الطريق الضابط يزعق ويشخط في العساكر. ظهر أنه شرس وابن كلب. سمعت الضباط ينادوه بشكسبير. الظاهر دا كان اسمه لكن العساكر كانوا بيقولوا عليه ماكبس. الظاهر دا اسم الشهرة. أنا ظنيت كده وجيت في مرة وقلت «مستر ماكبس» فزغر لي زغرة خوفتني، وعرفت إنه انضحك عليّ من العساكر وإن ماكبس دي كلمة وحشة أمال إيه اللي زعله كده. لابد إنها كلمة وحشة أو اسم تجريس وهلس قلت لنفسي قطيعة شكسبير على ماكبس في يوم واحد. بعد كده طلع عيني في توزيع الأكل على العساكر في مواقعها. لبسوني طبعا لبس

الجيش وكان الكتيبة اللي باوزع عليها الأكل هنود، كلها هنود، قلت يمكن دول أرحم وخدمتهم أهون أهم مستعبدين زينا لكن طلعت خدمتهم طين وماكنش فيهم حد مسلم ولا حد اتكلم معايا كلمة، وكانوا طبعا كلهم أطول مني لابسين عمم حتقع من على رؤوسهم ولا يهتموا بلبس الخوذ وكانت كل أوامرهم لي بالإشارة. خلوني كمان أخرس فكنت بانام بالليل في المطبخ وأقعد أسلي نفسي بالشعر والغنا وأعيط.

شوف زمان ماعمل في الناس وراهم

إن زهزه لهم يوم جاه في العقب وراهم

زمن الهنا راح جانا زمن عايب

وادي أندل الناس ع الجدعان يتعايب

وفي أول معركة مع الطليان وقعت أسير. أخذني الطلاينة مع عساكر إنجليز وهنود وأسترال ومشيوا بينا مسافات بعيدة في صحراء حمراء رملتها ناعمة تهب شوية ريح عيوننا تتعمي. صحراء تربط فيها القرد يقطع لغاية ما شفنا معسكر كبير متحوط بسلك. ربك الحق ظهرت الشماتة في عيني خصوصا أني ماشفتش المعركة قبل الأسر «أمال اتمسكوا أسرى ازاي» لقينا كده بدون مناسبة فرقة مدرعة ألمانية، وسط المعسكر حواليها عساكر مشاه زي العفاريت. كله عرف إن الألمان وصلوا سلموا نفسيهم. الحرب كانت بعيدة

عن المعسكر وما دام ظهر الألمان والطليان يبقى الإنجليز انهزموا. بعد كده لما حييجي روميل حيجنن الإنجليز لأنه أول ما يبدأ المعركة يسيبها ويعدي في لمح البصر ويبقى ورا الإنجليز فيسلموا على طول. لكن لسه ما ظهرش. أيوه. أمال اسمه روميل ليه. روميل لازم تكون معناها تعلب. أيوه يا شيخ مجد. والله يا دميان.. «دا أنت حكايتك طويلة يا حمزة» أنا لسه في الأول يا دميان. دا أنا مش مصدق انها خلصت.. طيب. ما تعيطش اتكلم يا حمزة فك عن نفسك، وحشتني خالص يا شيخ مجد. «وعملت إيه مع الطلاينة» أيوه يا دميان أخذونا معسكر كبير مليان أسرى من كل الدنيا وكل الملل وكنا نبات فيه في الخلا. بالنهار حر وبالليل برد وزي ماشفت الإنجليز بيعملوا في الأسرى شفت الطليان بيعملوا نفس العمل. يرموا لنا الأكل من فوق السلك ونجري عليه زي الحيوانات. لكن الحقيقة كان العساكر بعد ما يجمعوا الأكل يعيدوا تقسيمه بينهم. كانوا محترمين رغم أن الحرب وحشة والروح حلوة. أنا شفت الأسرى الألمان والطليان قبل كدا في مرسى مطروح بيعملوا كده برضه. لا أحد يهين نفسه أو كرامته فليه أهانوني أنا وأهانوا كرامتي؟ المهم الطلاينة كانوا بياخدوا كل شوية يستجوبوهم ومايرجعوش تاني. يشحنوهم على إيطاليا. جه الدور عليّ خفت ماقلتش غير كلمة واحدة «إيجيبشيان» وجملة واحدة «أيام إيجيبشيان» بصوا لبعض، الضباط الطلاينة واتكلموا بصوت عالي وبسرعة القطر

وضحكوا. فجأة قام ضابط من بينهم ولف حوالي وهو بيبص لي ويقول «إيجيبشيانو» وحبيت أقول أني مش جندي، ولا رتبة وأني عامل في السكة الحديد المصرية خطفني الإنجليز لكن ضاعت مني الكلمات الإنجليزي اللي عرفتها طول حياتي ومافضلش منها غير إيجيبشيان وأعدت أعيط. رجعوني المعسكر وأنا مش مصدق، شفتهم بيرحلوا كل اللي استجوبوهم على إيطاليا. حمدت ربنا وقعدت أمشي جمب السلك العالي في المعسكر أفكر ليه سابوني مخبيين لي إيه أبص للسما البعيدة والدنيا الواسعة وأقول معقول ربنا حيسمعني من هنا. أي والله يا شيخ مجد. لكن ربنا كبير، سمعني، وشفت بين جنود الحراسة عسكري ملامحه عربي. كلمته عربي. رد علي. طلع ليبي ومتجند غصب عنه. حكيت له حكايتي ولقيت في عينه نية طيبة إنه يساعدني. قال لي انتظر كام يوم أكون دبرت لك حل. انتظرت. افتكرت غارة مرسى مطروح والقنابل تنفجر قدام عيني وصوت المدافع بعد كده على الحدود والقذائف تنزل على العساكر تطيرهم وتقطعهم في الجوحتت وافتكرت الصوات بتاع الجرحى طول الليل في مستشفى الميدان القريب من المعسكر. أنا كنت دايما في الخطوط الخلفية للإنجليز لكني شفت جهنم أكتر من مرة لأنهم ساعات كانوا يزقوني قدام مع فريق التموين. أيوه. هي جهنم إيه غير النار. تعرف يا شيخ مجد أنا رأيي إن الأجانب دول أصلا من جهنم، ناس قلبها حديد بيرموا على بعض كل يوم ملو

قطر قنابل. يا ستار. تفتكر إحنا المصريين ممكن نحارب كده. إحنا ناس حزايني حنعيط كتير. دا لو حصل حرب وجه العدوقدامنا وقال موال حزايني حنعيط ونسيب الحرب. «طيب ياحمزة متعيطش. بلاش تكمل الحكاية النهاردة. استريح». أنا استريحت لما شفتكم. الحرب وحشة قوي يا شيخ مجد. ياما شفت عساكر طارت رؤوسها وهي واقفة ورا المدافع، ومدافع تطير في الهوا وتتفكك ميت حتة وعساكر فجأة يتجننوا ويجروا ويصرخوا في الجو ويركبهم عفريت ويتنططوا في الأرض وزملاؤهم يكتفوهم ويدوهم إبر منومة وينقلوهم على بلادهم. أنا شفت مجانين كتير لدرجة إني فكرت إن إنجلترا وإيطاليا وألمانيا والهند وإفريقيا صارت مارستان. شفت عساكر تبص في السما وتصرخ وعساكر تجري تقع في النار، تنتحر يعني، وعساكر تنهار، وتعيط زي النسوان المكسورة الخاطر. دول غلابة قوي العساكر يا شيخ مجد. كلهم زي بعض في العياط. كلهم أطفال يصعبوا عليك. دي الحرب وحشة قوي يا دميان. المهم بعد كام يوم لقيت معسكر تاني بيتنصب جنبنا وبيجهز مستشفى ميدان وعربيات بتنقل مئات الجرحى وغبار حركة كأن القيامة قامت. سألت العسكري الليبي قال لي جاك الفرج يا مصري. الإنجليز كسروا جرازياني. انتظر لازم يأتون هنا.. وحصل.. وصل الإنجليز وأخذوني مع الأسرى وشحنوني معاهم إلى الحدود المصرية. شفت عناية ربنا. لاقيت نفسي في مصر تاني لكن أسير المرة

دي. مين يصدق. «لا حول ولا قوة إلا بالله. دا إنت تعبت قوي يا حمزة» أسير في بلدي، لكن الحمد لله، في النهاية رجعت. سلموني لأومباشي أسترالي طويل، طويل أوي. رجله لوحدها طولي. أي والله. أخذني لظابط عظيم. عرفت إن شكلي هو اللي كان دايما يخلي اللي يشوفني يشك فيّ. مش شكل عسكري ولا يمكن يكون في ضابط قصير كده. يبقى أكيد جاسوس. أدي كل الحكاية وآدي سبب غلبي. سألني الضابط إنت إيه ومين؟ قلت له أنا إيجيبشيان غلبان. ما عرفتش يعني إيه غلبان بالإنجليزي. لسه الكلام الإنجليزي ضايع مني. بص لي الضابط وامتعض بس أنا حسيت إني أقوى من الأول. أيوه. أنا واقف على أرض مصرية على كل حال. الضابط تشكك في فحبسني في أوضة خشب لوحدي واقف عليها عسكري حراسة أفريكي. أعرف إن الليل دخل من شقوق الخشب لما يختفي وشه وتبان سنانه! تعرف يا شيخ مجد حسيت إني لي قيمة كبيرة جوه الأوضة المقفولة دي. انتشيت. فرحت لأول مرة وافتكرت مراتي وعيالي وأصحابي كلهم. لكن بعد كده كنت أحس بحاجة للعياط. أحبس دموعي وافتكر المواويل.

بصوا وشوفوا فلاح مكسور ذليل منهان،

جوا حنك تمساح من سالف الأزمان

يامن رماك دهرك في فم دا التمساح،

قول لي على أمرك وما دهاك يا صاح

وبعد شهر أطلقوا سراحي من الحبس قلت ضروري تقصوا عني وعرفوا إني غلبان وحيسيبوني أروّح لكن ما حصلش. حطوني في المطبخ أطبخ للعساكر ومع الهنود تاني. كأنهم عارفين اللي حصل قبل كده قلت زي بعضه واصبر وما صبرك إلا بالله وصبرت لغاية ما شفت بعيني العساكر الإنجليز راجعة من على الحدود متبهدلة قدام روميل اللي حل محل جرازياني وسمعت إن جنرال إنجلترا الكبير ريتشي اتجنن. صار عندي إحساس إن نجاتي حتكون على إيد روميل. واتحسرت. أنا في بلدي ومحتاج القائد الألماني ينقذني وحصل. كنت في المطبخ لما شفت الدخان طالع من غرف الضباط. كانوا يحرقوا كل حاجة بسرعة ويركبوا عربياتهم الجيب ويرمحوا. ماسمعتش غير كلمة واحدة، روميل. لقيت جماعة جرحى قعدت معاهم. فين أروح؟ ولقيت المعسكر اتملأ ألمان والدنيا حولنا دخان ونار.

أخذني الألمان لظابط كبير فهداني تفكيري وقلت: «روميل». يسألوني بالألمانية أقول: «روميل» بالإنجليزية أقول: «روميل» قلت لازم يكون فيه عاقل يخلصني من الورطة اللي طالت ولا عاقل إلا روميل. و«عرفوا إنك عايز تشوف روميل؟» أيوه وحصل. رجل غريب وشه مدور وعينه خضراء غويطة وشعر رأسه خفيف وما بيتكلمش كثير. بعد ثلاثة أيام أخذوني ليه. ثلاثة أيام

رعب- ونظر دميان إلى مجد الدين قائلا في نفسه ها هوحمزة يعود لأصلـه القديم - وفي غرفة روميل شـفت واحد بدوي واقف جنب روميـل اللي قاعد. حكيـت لهم قصتي من أولها وسـمعت البدوي بيترجمها ألماني وروميل يبتسـم بدهشـة ووشه راح زي وش طفل. أي واللـه. قـال جملة واحدة ترجمها لي البـدوي. قال إني حافضل معاهم شوية وهما بيطاردوا الإنجليز والجيش الثامن حتى إذا وصلوا إسكندرية أدلهم على شوارعها وبعدها يتركوني. ساعتها دعيت ربنا إنهـم يوصلوا إسـكندرية بسـرعة، واسـتغربت إزاي البدوي يعرف ألماني وقلت أكيد إنه جاسـوس لابس بدوي. «طيب يا حمزة كفاية كده النهارده نام». اسـتنى يا دميـان الحكاية قربت تخلص انت أكيد مـش مصدقنـي. «أبـدا يا حمزة دا انت شـكلك تعبان أكتـر من اللي حكيتـه». بعدها يا دميان تقـدم الألمان إلى مرسـى مطروح وأنا في الخلـف مع فـرق الإمداد. حطوني عهدة سـواق جيب مجنون خلع عظامـي مـن المطبـات والسـرعة. يشـوفني بتألـم يضحـك ويقول (إيجبتـر) يعني مصري وأنا أقول يارب كملهـا على خير خايف من الألغام. في مرسـى مطروح شفت المعركة الكبيرة. شفت الدبابات وهـي بتضـرب قذائـف والدبابـات وهـي بتولـع والمدافـع تتنطط مـن القذائـف والطيارات تيجي مـن البحر وتروح وبالليل سـمعت أصـوات الموتى وأنيـن الجرحى والأحياء. الدنيا راحت سـواد في حمـار في غبار وبالليل كنت أقعد وسـط الظلام أتكور وعايز أخش

فـي بعضي مـن الخوف وأقول يـارب خذني بأه. يـارب كفاية كده، لكن الألمان كسـبوا ودخلوا مرسى مطروح والضبعة بعد كده لغاية مـا وصلـوا هنا. إسـكندرية بقـت قريبة ومـا حدش سـأل وأنا قلت لنفسـي معقول روميل يكـون محتاج لواحد زيي يدله على شـوارع إسكندرية وقعدت بالليل أقول مواويل لنفسي.

البيـن عطانـي بـلاوي زود أمراضـي
مرعوب منها قـوي دخلاش في مرادي
القلـب قال لي زمانك سـد مش راضي
تتنـي أبكي لما جفن العين صب منه دم

كل دا وأنا لسـه عهدة العسـكري المجنون سـواق الجيب، وفي ليلـة أخذنـي ومشـي بي أكثر مـن نصف سـاعة بالعربية وشـاور لي علـى النجـوم في السـما ووقف ونـزل ونزلت فشـاور لقـدام بإيده وقال ألكسندريا، وكرر الكلمة أكثر من مرة وبعدين شاور لي أمشي فمشـيت زي المسـحور، بسرعة حددت لنفسـي نجم قدامي وكنت عارف إن البحر على شـمالي وإن الوشـيش اللي باسمعه هوصوت البحر اللي مش شـايفه ومشـيت لكن بعد شـوية ضاع صوت البحر اللي مش شايفه وتشابهت علي النجوم وافتكرت إن الجيوش وهي بتنسـحب دايما تحط فـي الأرض ألغام وأكيـد الإنجليز عملوا كده وهمـا بينسـحبوا قدام روميل وعرفـت إن نهايتي حانـت وإني لازم

حادوس على لغم في الضلمة دي، ولوحتى في النور، رحت قاعد في الأرض زي العيل التايه وبصيت للسما البعيدة وقلت يا ربي أنت شايفني وأنا مش شايفك وسامعني وأنا مش سامعك يارب أشكو لك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس. يا رب إذا كان بيك غضب علي فأجله وكفاية علي كده. يا رب أنا مديت إيدي آخد علبة بسكويت للأطفال دا كل اللي عملته فهل أستحق كل دا العذاب يا كريم يا أرحم الراحمين، يا رب خد بإيدي لمين سايبني؟ مرة لأعداء بهدلوني، ودلوقت للصحراء والألغام والديابة. أيوه إن ما كانش لغم ينسفني ديب يطلع عليّ ياكلني. يارب فين رحمتك اللي وسع الدنيا كلها. يارب إرضى عني وانقذني.. يا سلام.. كنت تعبان أوي يا شيخ مجد فنمت مكاني. نمت كثير؟ دقيقة لاقيت فيها وشه منور ولابس أخضر وقاعد بين أصحابه منورين ولابسين أبيض رميت السلام ورد السلام وسألني إنت مين قلت له أنا حمزة يا رسول الله راح مبتسم لي ووسع لي مكان جنبه وقال لي تعالى أقعد مع أصحابي أبو بكر وعمر يا حمزة دا أنت اسمك غالي رحت قاعد جنبهم ونمت جنبهم وقمت من النوم شبعان كأني نمت ميت سنة واتأكدت إن ربنا حينجيني، وحسيت بإيد دافية حنونة تمسك بإيدي قمت ماشي بثقة وصوته، الرسول، يقول لي يمين أمشي، شمال أمشي، وكل ما رجلي تغوص في الرملة يمسكني الرعب يقول لي ما تخفش ويروح الرعب وأمشي، على كده لحد ما طلع النهار. أول

مرة أشوف النهار شكله جميل وحلو والشمس فرحانة قوي. أيوه أنا شفتها كده. قلت يا رب تم جميلك بصيت لاقيت قدامي عسكري هندي كأن الأرض انشقت عنه هو اللي أخذني لمركز القيادة الإنجليزي وهناك استغربوا إزاي عديت حقول الألغام وشكوا طبعا فيّ لكني افتكرت كل الكلمات الإنجليزي اللي كانت ضاعت مني، وحكيت لهم القصة. حجزوني ثلاثة أيام لغاية ما تأكدوا من صحة كلامي وبعدها جابني الضابط ليكم والحمد لله.. ياه دا أنتم وحشتوني قوي قوي... و.... ي..

وتحشرج صوت حمزة فلم يعد قادرا على الكلام».

***

وعلى نفس الطريقة في طيور العنبر يعيش حمزة يحكي الحكايات الغريبة لكنه هذه المرة يفعل بنفسه فعلا غريبا. فبعد أن تقبض مباحث أمن الدولة على ابنته نوال يرسل خطابا لعبد الناصر. هنا هو:

«من حمزة بن عبد الله إلى جمال عبد الناصر رئيس البلاد. أعرفكم أنه تم القبض على ابنتي الحكيمة نوال من قسم العمليات بالمستشفى الأميري بالإسكندرية بتهمة الشيوعية التي لا نعرفها. ابنتي لا تعرف إلا الغناء لأن صوتها جميل وهي تغني للمرضى في المستشفى، وأنا عامل دريسة في السكة الحديد لكني علّمت ابنتي

فهل يكون جزائي أن تقبضوا عليها وبدلا من أن تزف إلى عريس تزف إلى السجن».

هنا اختلفت لغة حمزة عن لغته القديمة حين حكى حكاية خطفه على يد الإنجليز في الحرب العالمية الثانية. والسبب طبعا أنه يكتب خطابا إلى الرئيس وأن الذي أملى عليه الخطاب كان سليمان المثقف.

يظهر حمزة فقط في الرواية لأنه قد صارت له بين بناته بنتا جميلة هي نوال الممرضة المطربة التي تبحث عن فرصة غناء في الإذاعة. وتكون نوال هي البطلة أكثر من حمزة وأكثر من غيرها. ثم في رواية الإسكندرية في غيمة تظهر نوال فقط من الجزء الثاني من الثلاثية. كل جزء في الحقيقة قائم بذاته. واختياري لشخصيات تظهر مرتين فقط حيلة فنية لأبعث الحنين إلى قلب القارئ، لكن الأحداث تختلف والزمان يختلف وتقوم بذاتها عملا مستقلا. أربعة عشر عاما تفصل بين زمنَي لا أحد ينام في الإسكندرية وطيور العنبر، ومثلها تقريبا تفصل بين طيور العنبر والإسكندرية في غيمة. وأقصد هنا زمن أحداث الرواية وليس زمن كتابتها. نوال تصبح بطلة رئيسية في الإسكندرية في غيمة. صار لها ملهى ليلي يطاردها الخليجيون لشرائه وتحويله إلى صالة أفراح أو مقهى كبير بلا كحول. يتحدثون في ذلك وهم يجلسون يشربون الكحول! ولأنها عرفت طريق فرنسا صارت تسافر إلى هناك بالصيف فالتقت صدفة بشخص

مصري أكبر منها. كانت طفلة حين غادر الإسكندرية. تتكرر اللقاءات لتعرف أنه رشدي الذي أحب كاميليا المسيحية يوما ما في لا أحد ينام في الإسكندرية وصارت قصة حبهما حكاية أسطورية يقولها الكبار أمام الأطفال. وتجد في النهاية في فرنسا ملاذا لها فتبيع الملهى الليلي حزينة وهي ترى الإسكندرية تفقد ما بقي فيها وتدخل عصرا جديدا من التخلف. هنا يظهر رشدي فقط وحده من الجزء الأول لكنه طبعا لم يعد على صلة ولاعلاقة بعالمه القديم. كما كانت فرنسا ملاذه صارت فرنسا ملاذها. هذه هي الأشخاص التي تكررت في الثلاثية، لكن الزمن يتغير والمدينة تتغير وهذا هو الموضوع.

تحدثت من بين أشخاصها الرجال عن الماركسي الذي كان في الحياة أكبر منا فقط ولم أتحدث عن مصادري من الشخصيات الأخرى. الحقيقة أنهم جميعا عاشوا معي وعشت معهم تلك السنوات التي لم تتغير فيها المدينة فقط، لكن كانت عملية الهجوم على اليسار والناصريين وأي تيار مستنير على قدم وساق. فالسادات هو من دبر هذه المسألة كلها وإدخال مصر عصور الظلام. ولقد نجح رغم أن الذي قتله كانوا أصحابه الذين أخرجهم من السجون. ومشى مبارك على نهجه حتى أنه حين ظهر جيل جديد حقق ثورة 25 يناير احتل الإخوان المسلمون والسلفيون المشهد. ليس مهما الأسباب هنا، لكن هذا كان نتيجة هذه السياسة التي امتدت من السادات لمبارك فاستمرت أربعين سنة. الثورة تصحح نفسها الآن لكن هذا

ليس موضوع الكتاب. كيف أمسك بالمدينة التي ضاعت ملامحها المصرية والعالمية. كان عليّ كما تعودت أن أعود إلى الصحف لكن أيضا أن أدرس الإنجاز العالمي في عمارتها على سبيل المثال وأوضح كيف حدث الهجوم على روح المدينة وتطور. شخصية عيسى سلماوي التي مثلت المثقف الماركسي الذي كان أكبر منا جميعا فتحت لي الباب لذلك فصار حديثه عن المدينة التي تضيع ورحلاته مع الأبطال الشباب أو وحده يتطلع إلى ما بقي منها. لم أكتفِ بما حولهم بل كانت المقابر المسيحية والأجنبية بالشاطبي أيضا مثالا – وهي بالفعل كذلك – على روح المدينة العالمي – ولقد زرتها جميعا أكثر من مرة وكتبت عنها أكثر من مقال وأنا أكتب الرواية – ومثالا على تقبل الآخر والتسامح الذي ظهر جليا في (لا أحد ينام في الإسكندرية) و(طيور العنبر) ثم بدأ ينقرض مع هذا الغزو الجديد بعد أن قل شيئا فشيئا مع خروج الأجانب طردا أو بالرضا من المدينة بعد حرب السويس. الشخصيات الأخرى كما قلت هي شخصيات عرفتها لكنها طبعا في الرواية تغيرت كثيرا شأن كل عمل أدبي. وربما لو قرأها أصحابها يندهشون مما فعلت. سيجدون كثيرا مما فعلوه وأكثر مما لم يفعلوه. ولا أستطيع كما فعلت سابقا في حديثي عن بيت الياسمين أن أذكرهم بالاسم وهم أحياء حولي. ذلك أن الحياة السرية في شقق شارع تانيس والملاهي الليلية لا بد ستجرح مشاعرهم. مصر ليست أوربا لنقول الحقيقة رغم أن هناك شيئًا يدعو إلى الفخر. لذلك لا تصل السير الذاتية العربية إلى عمق وصراحة السير الأوربية أو العالمية. وأنا هنا أتحدث

لا عن سير شخصية ولكن عن سيرة كتابة الرواية. ولن تفيد الأسماء فالشخصيات هي ما يبقى للقارئ. في هذه الرواية حلّق الشعر فوق روحها فأحد الأبطال «نادر» بل بطلها الرئيسي، شاعر ومن ثم يفتح شعره آفاقا للتأمل فيما جرى له ولحبيبته وللمدينة أيضا. كان هناك شعر في رواية طيور العنبر ذكر مرة واحدة في سهرة للخلية الشيوعية التي حضرتها نوال مع حبيبها أحمد واستمعت إلى الشاعر عصمت مفتاح. ورددت نوال بعضه في نفسها بعزم بعد أن خرجت من مبنى أمن الدولة ومن انكسارها كأنما تعلن قوتها واستمرارها. هنا في الإسكندرية في غيمة نعرف أنه قتل في المعتقل. ويكون سبب ذكره هو ما سمعته نوال من نادر من شعر. نادر الشاب الشيوعي البرئ يذكرها بعصمت مفتاح. نادر الذي يحب يارا وتهواه نوال صاحبة الملهى هو وأصحابه الشيوعيين لأنهم يذكرونها بزمن جميل. وهنا بعض من شعر نادر.

قال لي:

لولم يكن البحر المتوسط

ما كانت الأوديسا

قلت له:

عاد أوديسوس

وبدأت متاهتنا.

قال لي:

البحر الكبير

البحر الخلفي

البحر الهلليني

البحر الذي هوقريب منا

بحر الروم

البحر الداخلي

The medetranian

أسماء عظيمة على بحرنا

قلت له:

بحر مياهه

من دموع المحبين

قال لي:

الإسكندرية على عهدها

تفتح صدرها للغرباء

قلت له:

لا تدرك الإسكندرية الآن

أن غرباء اليوم

لا يعرفون الأشجار.

قال لي:

إذا أحب الله رجلا

وضعه في تجربة.

قلت له:

إذا أحب الله رجلا

وضع في طريقه امرأة تحبه.

كل ما خلا ذلك

قبض ريح.

قال لي:

تأتي النوارس مع السفن

وتذهب خلفها

النوارس تعشق الحضور

وتفرح بالغياب

قلت له:

لا تترك النوارس خلفها أحدًا.

قال لي:

لماذا لا تترك الشاطئ

لقد حل الظلام؟

قلت له:

هذه السفن المضيئة

متى تكف عن الرحيل؟

قال لي:

لا تبحث عن يارا بعد اليوم

كف عن السعي في الشوارع

وراء ظلها.

قلت له:

أنا في بيتي حزين

هي التي تمشي أمامي في الطرقات.

قال لي:

لك مدينة يهفو دائما إليها البشر.

قلت له:

أولئك الذين لا يعرفون معنى الوطن

يستقرون فيها الآن.

قال لي:

الموسيقى عشقك فلماذا تهجرها؟

قلت له:

صارت بعيدة في الليل تخبو.

قال لي:

يبدأ الحب دائما حاملا نهايته.

قلت له:

لايعرف ذلك أحد إلا عند النهاية.

قال لي:

يرحل الناس وتبقى المدن.

قلت له:

وماذا يبقى للناس

إذا رحلت المدن؟

قال لي:

لا تسمه فراقا

لقد اكتملت القصة.

قلت له:

لا تكتمل قصص الحب

إلا بموت المحبين.

قال لي:

نوال حياتها قصة حب ضائع

في باريس قابلت رشدي

هو أيضا قصة حب ضائع

وضعت السماء النذر في طريقك

لماذا لم ترها؟

قلت له:

هي البشارات

معلقة دائما أمام المحبين

هي الآمال

سحب بيضاء لا يراها غيرهم

لا يدرك المحبون النذر.

***

لا يلُمني أحد على الحزن

الذي يغلف كلماتي

أعرف أن الخريف يأتي بالسمان

لكنه الحزن أيضا

يأتي في موعده

وأن الأرض تدور

ولا تقف من أجل أحد

لكن ذلك لأننا

لا نشعر بدورانها

وأن العالم واسع فسيح الأرجاء

لكنني صرت مثل ماياكوفسكي

غيمة في بنطلون

إنني أترك مكاني كل صباح

لكنني أعود إليه كل مساء

لكن يارا وحدها أيضا

تعطيني الآن الأمل

تشعرني بالقوة

وأعرف أنها

لن تبرح روحي

ما دام طيفها وجه وجسد

ذلك الشيخ الذي يهدد

النساء بالجحيم

لا يعرف أن قصص الحب

تصنعها النيران

ذلك الأحمق الذي يغلق النوافذ والأبواب

لا يعرف أنه أغلقها

علي المحبين

تتسع بها أطيافهم

هؤلاء لا يعرفون سر النوافذ

صنعت للنور والهواء

فاستولت عليها الرغبات من خلفها

مفتوحة ومغلقة

وهذه الملابس المغسولة

المنشورة على الحبال

للشمس والريح

سرعان ما تصبح

حكايات تمشي في الطرقات

لقد امتطى الرجل العجوز المهرة

ليسبق الزمن
ستصل المهرة إلى غايتها
وليس على ظهرها الرجل العجوز
ستظل يارا معي
في الصحو والمنام
فراشة كما عرفتها
فرحانة تحت السماء
لأنها ترف حول وجهي
تبحث عن النوافذ المفتوحة
تدخلها وتخرج
بالقصص الجميلة
تنشرها بسمات أمامي
فوق الأسطح والطرقات
يارا في قلبي
الذي لن يكف عن الخفقان
باسمها

أسمعها الآن تهتف لي
لا تتراجع
امضِ في طريقك
لقد أسعدتني بما يكفي الآلهة
وما ضاع من سعادتي
لا يزال معك
اجعله زادك
كن على يقين أنك معي
هناك لا تزال امرأة
في الكون تحبك
وإن لم تعد بين يديك
امرأة ترسل إليك حنانها
عبر الأثير
محملا برائحة الجنة
امض في طريقك
لأنك وحدك الذي

ستكتب قصة حبنا

لا تكن مثل أبي وأمي

عاشقا للأشياء القديمة

لأنني أيضا

سأكون دائما معك

ولن تبلى قصتنا

لا تنسَ يوم رأيت السمان معك

يأتي مع الخريف

وسألتك من أين يأتي السمان

قلت لي: من أوربا الباردة

يبحث عن صدر دافئ

قلت لك: كم هو مسكين

يموت الكثير منه في رحلته

ماذا لوظل في مكانه

قلت لي: سيموت كله

إذن اترك هذه المدينة

حتى إذا كتبت قصتنا

كتبت قصتها معنا

لن تكتب قصة المدينة

وأنت فيها

وإذا وجدتني

لن تكتب قصتنا

أبدا أبدا.

وبالطبع تذكرك «قال لي» بالمواقف والمخاطبات للنفري. والحقيقة أنني قرأت هذا الكتاب قراءة شعرية أكثر منه قراءة فلسفية. لم أشغل نفسي كثيرا بفهم المعاني العميقة للكتاب. قلت لنفسي لا يعرف أسرار الصوفيين أحد. وكل ما يحدث هو محاولات للفهم. هذه كتب كتبت بعد تجارب روحية فردانية عميقة جدا أوصلت أصحابها إلى هذه المعاني المجنحة والتي هي مغلفة أيضا بالأسرار. ومثل هذه الكتب أقرأها أكثر من مرة حتى أشعر بإيقاع الكلمات قد نفذ إلى روحي. ليس مهما قدر ما فهمت من الكلمات. لذلك قفزت هنا مقدمة عباراته التي استخدمت بعضها – العبارات أقصد – في مقدمات فصول لا أحد ينام في الإسكندرية – قفزت مقدمة العبارات فقط. ولأن نادر أيضا في حالة روحية أثيريه، ليس من الفرح، لكن من الحزن، فلقد فقد حبيبته وصار في برزخ

لا يعرف لنفسه مستقرا، فتح له الشعر طريقَ الاستقرار. وعلى طريقة الموسيقى صارت «قال لي» قرار وأضفت «قلت له» جوابا، وساعدتني كلاهما على الإيجاز. لكن الشعر لم يكن هو الجديد لي فقط. هنا الأغاني أيضا تحتل مساحة كبيرة جدا. ولها دورها الروحي. ففي الرواية ملهى «نوال بوط» لصاحبته نوال ومقهى ومطعم أتينيوس الشهير الذي كانت فيه ذلك الوقت قاعة للسهر اسمها كريزي هورس. هنا بأتينيوس الأغاني الأوربية والأمريكية وفي نوال بوط الأغاني العربية والشخصيات تتحرك بينها. ولا أنسى أنني أثناء كتابة الرواية كنت بعد أن أنتهي وقبل أن أنام عند الفجر أدخل صفحتي التي أنشأتها حديثا على تويتر ذلك الوقت بعد أن انشغلت كثيرا بالفيس بوك. لا أنسى شابة اسمها عبير أحمد كانت إلى جانب مشاركتها في أحداث الثورة مغرمة أيضا بتشيير الأغاني الأوربية والأفلام العالمية قديمة وحديثة، كيف فتحت لي باب أغاني السبعينيات التي كانت شبه غائبة عن ذاكرتي رغم أني من عشاقها. يخرب بيت السن!! أغاني البوني إم وفريق الآبا وتينا تشارلز وغيرهم. قلت لها في تويتة صغيرة أشكرك جدا لأنك فتحت بابا كنت أشعر أنه ينقصني. وبالفعل كنت أفكر ماذا ينقص هذه الرواية. وأدركت أنه أغاني السبعينيات الأجنبية فانفتحت لها الصفحات وانسكبت فيها مثل ماء زلال أشاع في روحي البهجة والفرح. والحقيقة أن للغناء والموسيقى في حياتي مكانًا كبيرًا.

ربما في عام 1968 أو 1969، استمعت في الإذاعة المصرية لحوار مع المرحوم أنيس منصور تحدث فيه عن أشياء كثيرة ومنها الموسيقى. قال إنه من هواة البرنامج الموسيقي. ولم أكن أعرف أنه يوجد في الإذاعة محطة خاصة تحمل اسم البرنامج الموسيقي. وأنيس منصور - بعيدا عن السياسة التي جعلت الكثيرين يهاجمونه لمواقفه وبالذات في عصر السادات - هو أفضل كاتب عرفته تقرأه في سن مبكرة. يقدم إليك كل معارف الدنيا بأسلوب سهل جدا. أسهل الكتاب. وأذكر مرة في ندوة بقصر ثقافة الحرية في الإسكندرية، صار اسمه الآن مركز الإبداع، وكان ذلك أيضا في تلك الأعوام أن سأله أحد الجالسين لماذا وأنت أحد تلاميذ العقاد والذين حضروا دائما صالونه في بيته تكتب بأسلوب سهل بينما أسلوب العقاد كما نعرف صعب جدا. لا أنسى إجابته المرحة المعبرة إذ قال: علاقتي مع العقاد ينطبق عليها المثل الشعبي «إزاي يا فلان اتعلمت الأدب قال له من واحد قليل الأدب كل ما يعمل حاجة ماعملهاش!» طبعا ضحكنا وفهمنا أن الرجل هنا لا يتكلم عن أخلاق العقاد وسلوكه لكن يبسّط العلاقة بين الكاتب وأساتذته. فالكاتب الحقيقي هو من يعرف كيف وهو يستفيد من أساتذته يحفر له طريقا مستقلا. وكلنا نذكر المقولة العربية القديمة عن الشاعر الذي أنفق عاما كاملا في الصحراء يحفظ أشعار السابقين ثم عاد إلى أستاذه بعد هذا العام فقال له انسَ ما حفظت. وهكذا كي تكون شاعرا اعرف ما قبلك ثم انسه لتكون نفسك، والأمر ينطبق على كل تجليات الإبداع. وبعد ذلك قال أنيس منصور فأضحكنا: «أنا أسلوبي زي الميكروجيب

قصير بس يبيّن كتير» رحم الله أنيس منصور الذي بعد أن سمعته يتحدث عن البرنامج الموسيقي ذلك اليوم بحثت عن البرنامج الموسيقي وضبطت عليه مؤشر الراديو حتى الآن! يتغير الجهاز مع الزمن وتتغير الأماكن التي عشت فيها بين الإسكندرية والقاهرة. لكن يظل الراديو على البرنامج الموسيقي. كنت ذلك الوقت مغرما بمحطة أم كلثوم في الإذاعة التي تقريبا اختفت وكانت تبدأ في الرابعة عصرًا. وكنت أقرأ عليها، فصرت بالليل أنقل إلى البرنامج الموسيقي. ثم صار البرنامج الموسيقي وحده ثم صرت أحيانا بعد ظهور محطة الأغاني أستمع إليها أيضا. صار البرنامج الموسيقي هو الخلفية التي أقرأ عليها وأكتب ليلا. أعجبني أنه تقريبا بعد الساعة الثانية عشر لا يظهر صوت المذيع حتى الصباح. تتهادى الموسيقى الخفيفة حتى الصباح. الموسيقى الخفيفة كنت قد صادفتها في بعض الأفلام التي رأيتها وصرت أصادفها في أفلام جديدة. كما أن السوناتات والكونشيرتات صرت أعرفها أو أتعرف عليها، ذلك أن اهتمامي الجديد بالموسيقى جعلني مواظبا على برنامج الموسيقى الكلاسيك الذي كان يقدمه المرحوم حسين فوزي بالبرنامج الثاني الذي صار اسمه البرنامج الثقافي، كل يوم خميس. من العظيم حسين فوزي عرفت الكثير عن الموسيقى الكلاسيك وأعلامها العظام وسيمفونياتهم وهكذا صرت عاشقا للاستماع للموسيقى الكلاسيك والموسيقى الأوربية الخفيفة في البرنامج الموسيقي التي هي في معظمها موسيقى تصويرية لأفلام، كانت توسع من الغرفة وتنقلني إلى عالم من السحر. صار نظام الكتابة بسيط جدا.

بالليل أستمع إلى طرب عربي لمدة ساعة غالبا يكون من محطة البرنامج الموسيقي نفسه، ثم ساعة مع الموسيقى الكلاسيك. كل ذلك وأنا لا أكتب، أقرأ كتبا أو أقرأ ما كتبته من الرواية. حتى إذا انتصف الليل بدأت في الكتابة على مهل حتى أول خيوط الصباح. ما أطول ليل الشتاء، لكن ما أقصره وأنا مع الموسيقى والكتابة وضوء الحجرة الأبيض الذي أحرص عليه كذلك من اللمبات النيون فتتسع الحجرة بي وكل من في البيت نام لمدارسهم الصباحية ووحدي تحملني الموسيقى إلى برزخ من أثير ليس فيه إلا من أكتب عنهم، شخصيات رواياتي. الموسيقى والأغاني العربية تبعث على الشجن والموسيقى الأوربية تبعث على التأمل والحركة. شجن ثم تأمل فكتابة. الكتابة هي الحركة. كل ما أنتجته من روايات وقصص أنتجته بين الموسيقى والضوء الأبيض والصمت الجميل. أشعر دائما أن الله خلقني الآن.

كثير من الأغنيات العربية تسللت إلى الروايات من الردايو وأنا أكتب. وكذلك كثير من الأعمال الغربية. وكثير من المعلومات عن الموسيقى والموسيقيين عرفتها من برنامج حسين فوزي وبعدها قرأت كتبا عديدة وأدمنت فترة الذهاب إلى الأوبرا لأرى الباليهات العالمية العظيمة مثل سبارتاكوس وبحيرة البجع ودون كيشوت وغيرها كثير جدا. للأسف انقطعت عن هذه العادة منذ سنوات لا أعرف لماذا. هي هكذا حياتي. أنتقل من فتنة إلى فتنة. لكن فتنة الموسيقى لا تزال معي ويغنيني الآن البيت عن أي مكان آخر

ففيه الراديو وفيه الإنترنت أيضا. ليس هذا هو السبب إنما هو أنا. لا أستقر على مكان. تماما كالسينما التي بعد أن كنت في صباي وشبابي أراها كل يوم تقريبا صارت الآن بعيدة. ربما مرة في العام الواحد أو العامين. كثير من الأغاني كما قلت تسللت لرواياتي وتسللت معها حالتي، شجني، إلى الشخصية التي تغنيها في الرواية أو تسمعها. ازداد تسرب الأغاني لثلاثية الإسكندرية لحميمية الحياة الضائعة التي أكتب عنها ولانتقال الأشخاص بين الراديو والملاهي الليلية. وزادت كثافتها في الأخيرة الإسكندرية في غيمة حيث الاحتفاء بالعالمين الضائعين. ما بقي من العالمية في أتينيوس وما بقي من الطرب العربي في نوال بوط، وكيف صار الاثنان إلى زوال مع الهجوم السلفي والوهابي على المدينة.

لقد بدأت في هذه الرواية عام 2010 ثم حدثت ثورة يناير 2011 فانصرفت عنها للمشاركة في كل فعاليات الثورة. وانشغلت عنها بعشرات المقالات أكتبها ثم في أكتوبر 2011 عدت إليها بتصميم وعزم لأنتهي منها في أكتوبر 2012. قلت لنفسي: «العمر بيجري يا إبراهيم ولا تثق فيه كل الثقة». كان فصل روحي عن الثورة عاما كاملا عملية شديدة الصعوبة لكني فرضت على نفسي نظاما صارما. هو نظام عشت عليه طول عمري أصلا، وهو أن يكون الليل للإبداع والنهار للعمل أو الخروج من البيت. صعوبة العودة إليه الآن أن الثورة تشغلنا النهار والليل. صرت الآن بلا عمل ففعلت نفس

الشيء القديم. أعدت الليل للإبداع والنهار للثورة والمقالات. الفارق بسيط جدا أنني كنت قبل ذلك لا أكتب كل ليلة، لكني ذلك العام صرت أكتب كل ليلة. ربما باستثناء ليلة واحدة كل أسبوع. وهكذا شعرت بالراحة والفرح العميق. لقد أنجزت الجزء الثالث من الثلاثية الذي أعلنت عنه عام 2000، عام ظهور طيور العنبر. لماذا اخترت عنوانها الإسكندرية في غيمة. لافتتان نادر الشاعر بمایاكوفسكي حقا وقصيدته سحابة في سروال، ولأن الثورة أيقظت الروح السكندري والتمرد على السلفية والوهابية عند قطاع كبير من الشباب ومن ثم صرت متفائلا رغم الألم الذي قاساه شخوص الرواية، متفائلا بزوال الغيمة عن المدينة.

أو كما جاء في الرواية نفسها التي نشرت ومحمد مرسي في منتصف عام حكمه، أي في معرض الكتاب بالقاهرة في يناير عام 2013، على لسان أحد أبطالها «عيسى سلماوي» وهو يحدث «نادر» الأصغر سنا قائلا عن الأوضاع في مصر في سبعينيات القرن الماضي، زمن الرواية: إنها أحزاب صورية أنتجها النظام ولن يسمح لها أن تكون غير ذلك. لكن الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية لن يكونوا صوريين. ستدفع مصر ثمنا كبيرا لكنها لن تختفي من الوجود. في اللحظة التي سيبدو فيها أن الثمرة قد أينعت وحان قطافها لتكون مصر ولاية خاضعة للجزيرة العربية سيخلع

المصريون كل ما لبسوه من أزياء وأفكار. ربما لا أرى أنا هذا اليوم لكن مؤكد أنك ستراه وستذكرني.

طبعا الأمر تجاوز التفاؤل هنا إلى التنبؤ بزوال حكم الإخوان. ولو كان كاتبا غيري فعل ذلك لملأ الدنيا حديثا عن النبوءة، وكثير من القراء حدثني في ذلك مندهشا، وأنا الذي فعلت ذلك من قبل أكثر من مرة لا أرى في ذلك إلا استشرافا منبعه الصدق الفني وثقافتي ككاتب واشتعال روحي بعذاب ما تحمل من هموم..

القسم الثالث

-1-

ما وراء برج العذراء..

برج العذراء، عنوان لم يكن في بالي وأنا أكتب هذه الرواية. هي من الروايات التي نبتت فجأة في روحي. عادة تهمس لي الرواية، يهمس لي عالمها، وعادة ما أقرر، أنا في حالة من النشوة، الرضا، البهجة، أن ما هُمس لي به هو روايتي القادمة، ثم أنسى!!

ليس بالضبط، إنما يتأجل كل شيء وحده، يبتعد، لكني أعرف أنه قد ترسب في مكان ما من الشعور، أو اللاشعور، في مكان أقرب إلى البرزخ، ليست له معالم الجنة، ولا حدود النار. يصبح كل شيء بعد ذلك مبتعدا عن هذه الرواية التي بدورها تتمدد أكثر في مستقرها البعيد، وقد يمتد الوقت إلى عام، وقد يمتد إلى عشرين عامًا أو يزيد أو بين ذلك، لكني في كل الأحوال أكون على يقين من أن روايتي التي هُمس لي بها من قبل أن تُكتب هي الآن في مكانها الغامض في الروح حتى يأتي يوم تفيض فيه الروح على الجسد، فأدخل حجرتي منقطعًا عن العالم لوقت يطول أو يقصر. ليس هناك معيار ثابت، يصبح الزمن زمنين. نهار تافه أقضيه فيما هو لا معنى له، عمل أو

شراء أو أحاديث، أو ما إلى ذلك، وليل مضيء بجزل الإبداع يمتد دائمًا من بعد منتصف الليل العادي إلى الصباح، لكني لا أكون داخل التوقيت. يصبح الوقت كله أحيانًا كلمة أضيفها، وأحيانًا جملة، وأحيانًا صفحة أو عدة صفحات، وربما مر الليل وأنا فقط أستمع إلى الموسيقى. وكل ذلك يكون في تلابيب الكتابة.

برج العذراء اختلفت في بدايتها. لم يُهمس لي بها، بل أُمرت، ولم أنسها بل بدأت على الفور.

***

أما الذي أمرني فلم يكن أحد، ولا دار نشر، ولا رغبة في النشر، لكن الذي أمرني كان ميقات ندر حدوثه، فوضى عارمة في الحياة الثقافية المصرية بسبب نشر رواية (وليمة لأعشاب البحر)، موضوع صغير صار كبيرًا، وشغل كل الصحف المصرية والعربية، وأصبحت تقريبًا أشتري كل الصحف كل يوم لأتابع هذه المهزلة التي كادت تصبح مأساة، بل لا شك أنها صارت مأساة لبعض الطلاب الذين تظاهروا وهم لا يعرفون أي شيء، وأصيبوا في مواجهات مع البوليس إصابات بالغة، ولعلها أيضًا كانت مأساة بالنسبة لحزب العمل الذي أغلق. لكن المأساة كانت في إحساسي بالخجل من مجتمع يمتلىء بالكذب إلى هذا الحد. تسعون بالمئة من الذين هاجموا الرواية لم يقرأوها، وإن قرأوها لم يفهموها، وإذا فهموها لووا عباراتها وابتسروها لتخدم أهدافًا قد تكون سياسية أو أقل من

ذلك إلى حد التفاهة كأن يبيع المهاجم مقاله أو كتابه. حكاية صغيرة هزت مجتمعًا عمره سبعة آلاف سنة، هكذا يقال دائمًا بينما كل شيء بعيد عن الرشاد..

على الجانب الآخر، الشخصي، كنت أمضي جل وقتي بجوار زوجتي وهي مريضة بالسرطان اللعين، الذي كان قد أدخلها في غيبوبة طويلة. كانت تجربة قاسية، أقسى تجربة لشخص ما يحب زوجته وتحبه. كنت أعرف أن النهايات قادمة، أو هكذا يقول كل من حولي، وأحاول أن أنسى وأشغل نفسي بالعناية بها إلى حد الهوس، ولم أصدق أبدا أن النهاية قادمة!! وهي بالطبع لا تشعر بي إلا على فترات متباعدة تفتح فيها عينيها وتتأملني وأنا أسال نفسي هل هي حقًّا تراني.. ولا أرى شيئًا بعد ذلك غير العتمة القادمة لحياتي إذ يتأكد لي الفقد يومًا بعد يوم، وأتجلَّد، وأتعامل مع الأمر على أنه هكذا هي حياتي ولا حياة أخرى أعرفها أو عرفتها وزوجتي لا يمكن أن تتركني! وأعود إلى الصحف، ليس الكتب، فأنا أريد أن أخطف القراءة، وليس لدي وقت للكتاب الذي يحتاج كل الوقت فأرى الصحافة نفسها في غيبوبة أقسى من غيبوبة السرطان، انشغلت أقلامها بموضوع لا يستحق ذلك كله، موضوع لن ينتصر فيه أحد غير الرعب.. قلت: «هو سرطان في البيت وفي المجتمع».

***

سرطان في البيت وفي المجتمع، أما في البيت فيخصني وحدي والمجتمع يخصنا جميعًا، وكرهت الصحف ولم أعد أتابع موضوع الرواية هذه التي ظلت رواية واختفت كل المعارك وحدها. ولم أساهم في المعركة إلا بمقالين، بعد أن خطفت زيارة أسبوع لباريس، إثر دعوة بصدور الترجمة الفرنسية لكتابي (بيت الياسمين).. أنظر إلى العنوان الذي كتبته عام 1986 لروايتي في أي ظرف يعود يطل عليَّ حتى ولو بالفرنسية (La Maison Aux Jasmin). فهو بالطبع يعني بيت الياسمين... في تلك الزيارة أرادت الظروف أن تضحك أمامي وتخرج لي لسانها أكثر، فنزلت في فندق (جاردان دي بلانت) الذي خلفه يقع شارع (موفتار) وهو من أجمل وأبسط الشوارع الباريسية، وكان الطريق من الفندق إلى الشارع يتم عبر زقاق على مرتفع من الأرض تصعد إليه بسلم من شارع مونج، وفي هذا الزقاق رأيت بيتًا عليه اسم الفيلسوف (ديكارت). قرأت وعرفت أن ديكارت سكن هذا البيت عدة أعوام خلال إقامته الباريسية، ولما رأيت اسم ديكارت تذكرت معركة طه حسين مع التخلف، وبالذات حول كتابه في الشعر الجاهلي، ورأيت الهواء يخرج لي لسانه. ها هي الحرية أمامي متجسدة في ديكارت، بينما حقيقة حياتنا ابتزاز وإرهاب.. عدت وكتبت المقال الأول عن موضوع (الوليمة) وانقطعت كما قلت عن قراءة الصحف، وشرعت أكتب رواية غاضبة.. سرطان في البيت وسرطان في المجتمع..

***

انطلقت أكتب بكثافة، رحلة مجنونة لشخص لم يعد يعرف نفسه، عائد إلى الوطن ليفقد زوجته وابنته في طريق العودة، وغيبته كانت طويلة، فهو غير قادر على فهم ما يحدث حوله، ثم إنه عائد ليس كما ذهب، عائد شخصين في واحد، وبعد حادث زوجته صار ثلاثة أشخاص في واحد، وكلما مرت به حادثة تتغير شخصيته، وكلما أراد الانتقام خاب سعيه، وكل ذلك قد يزيد أو ينقص بدرجات، فأنا آخر من يفهم ما يكتب على التفصيل، ولدهشتي جرت وقائع الكتابة بسلاسة، حتى انتهيت من الكتابة إلا قليلًا. تعبت، مما أكتب ومما أعيش ومما حولي وسألت نفسي السؤال الصعب: هل من اللائق أن تكتب مشحونًا بكل هذا الغضب؟ يكفي ما كتبته، فلا شك أنه أسهم في علاجك هذه الأيام. الحياة لا تتوقف عند آلام أحد. كانت حياتي موزعة بين الإسكندرية والقاهرة. أربعة أيام في الإسكندرية حيث انتهى الأمر بزوجتي هناك لتكون في رعاية أخواتها البنات وأخواتي حيث لم يعد للمستشفى معنى ولا أمل. وثلاثة أيام في القاهرة أتابع عملي وحياة أولادي طلبة المدارس. وبعد أن عدت من الإسكندرية إلى القاهرة وحيدًا، توقفت تمامًا عن كتابة هذه الرواية..

***

عدت وحيدًا، واكتشفت أنه بعد أن تفقد حبيبًا إليك، حتى أعز الأحباء، لا شيء يتغير حولك.. الناس في أعمالها والطيور في أوكُنها والأشجار في مكانها والشوارع غاصة بالبشر، والصحافة تصدر،

والسياسة تعمل، وإسرائيل تقتل في الفلسطينيين، والطائرات تقلع من المطارات وبعضها يقع.. إنها ملهاة حقيقية. أنت واحد ترى الدنيا على غير حقيقتها، تراها صارت واسعة جدًّا وأنت طفل يتيم بائس، أو تراها مظلمة جدًّا وأنت عجوز يعضه البرد.. وعليك أن تستمر أو تموت، وقررت أن أستمر، وأترك الموت لمن هو أكبر منا جميعًا، مجهود صعب ان تنخلع أظافرك من اللحم، لكنها انخلعت، ولم يبقَ إلا الألم الذي دائمًا هناك أمل في أن يقل يومًا فلماذا لا تزيد الأمل أيها الإنسان؟ وقعت صدفة نادرة إذ التقيت وجهًا لوجه مع امرأة جميلة خفق قلبي لها بشدة مرة منذ عشرين سنة. لا أعرف كيف حدث هذا، لكني لا أذكر إلا أني انبهرت بها وخفت على نفسي من جمالها وفتوتها وفتنتها، وكان الوقت شابًا لنا جميعًا، وكنت حديث العهد بالزواج، وأنا مجبول على الاستقرار لا أحب لدراما من أي نوع أن تزلزل استقرار بيتي خصوصًا وأنا متزوج من التي أحببتها في صباي، وكانت بالفعل أول حب في حياتي.. تاهت المرأة مني منذ عشرين سنة. كانت هناك دورة ثقافية في التلفزيون ذلك الوقت وكنت أحد المشتركين فيها، وكانت تلك الفتاة الجميلة التي كانت أيضا مخطوبة لضابط شاب في الجيش يأتي كل يوم آخر النهار ليصحبها خارجا، الفتاة الصغيرة ذلك الوقت، رأيتها مرات قليلة في الشوارع بعد ذلك. مشيت وراءها صامتًا، زمان، وضحكت من نفسي، زمان، واختفت تمامًا من كل مكان يتوقع أن أجدها فيه، ونسيتها، لا أظن؛ لأني حين رأيتها قام كل شيء جميلًا حولي.. نحن في سن أكبر،

لكني عدت في سن أصغر، تكلمنا والتقينا، إنها وحيدة منذ خمس عشرة سنة. تركت زوجها وكرهت كل رجال الدنيا. هكذا قالت. أو بالضبط كل حتة في جلدي بقت تكره الرجالة! لم أنتبه أبدا لتلك الجملة. وهي اندهشت جدا من شخص يذكرها منذ عشرين سنة ويحدثها عن المرات التي رآها فيها في السنوات التالية للقاء الدورة الثقافية، وكيف كانت تمشي على وجهها ألم وأحيانا معها طفلة صغيرة ترتدي ملابس المدرسة الفرنسية ثم كيف كانت تقف مرة في الشارع تتشاجر مع زوجها وتتركه وتمضي. وصارت الحياة بحق جميلة ويمكن أن تُعاش، وأن تستكمل، ونسيت الرواية تمامًا، كيف حقًّا أنشر رواية فيها كل هذا العنف في ميقات فيه كل هذه العذوبة، أمضينا ثلاثة أشهر فوق السحاب. لكن القصة التي بدأت بسرعة زمان وانتهت، بدأت بسرعة هذه المرة وانتهت، الفارق أني زمان كنت وحدي بطل القصة، والآن نحن البطلان، انتهت لأسباب صحيحة أو غير صحيحة المهم أنها انتهت، فالمرأة التي لا تزال تحتفظ بشبابها لا تريد أن تدخل تجربة زواج أخرى ولا حياة أخرى مع أحد.. لقد رهنت حياتها لبنتها وابنها. أسباب أخرى ربما، لا يعنيني صحتها من عدمه، المهم أن القصة انتهت. واختارت أن تقول لي ذلك وأنا مسافر في اليوم التالي إلى لاروشيل في فرنسا ثلاثة أشهر. قالت لي مؤكد أنك في فرنسا ستنشغل وستنسى كل شيء. إلى هذا الحد كانت رفيقة بي. ورأيت الرواية تقفز أمامي من جديد..

***

لم يعد الغضب عنيفًا كما كان، وإن كان هناك غضب، وكان عليَّ أن أعود أكتب من جديد ليس غضبًا من شيء، ولا انتقامًا من شيء، لكن البطل لا يريد أن يتخلى عن رغبته في الانتقام، ومن ثم حدثت بيني وبينه أعنف معركة خضتها مع أبطالي. إنه يريد أن يفسد الرواية ويحولها إلى صخب، وأنا أريد أن أحتفظ بغضبه وأحوله إلى فن. واستغرق ذلك خمس مرات في الكتابة.. حذفت فصلًا كاملًا، رغم أنفه؛ لأنه كان كفيلًا بأن يحول الرواية إلى منشور سياسي ضد الأمة العربية، وحذفت صفحات كاملة لأنها تشي بشخصية معروفة، وإن كانت معرفتها في دائرة ضيقة، وكان البطل قد سرقني وراح ينتقم لي، وأنا لا أحب ذلك في الأدب، قد يفعل غيري، وينجح فيه، وقد أقرؤه أنا وأعجب به، لكنها ليست طريقتي في الكتابة.. إني أستبعد دائما الشخصيات الشريرة التي أعرفها، رغم أنك قد تجد شخصيات شريرة، لكن لا يمكن أن تقول إنها فلان.. أو فلانة.. وحولت اللعنات اللفظية إلى صور وأحداث، رغم أنف البطل، تركته أحيانًا يلعنني أنا الكاتب. إنه بطل مجنون، يريد تحطيم الدنيا، وأنا خاطبته على مهل، بالكتابة طبعًا، وصرت أقول له على رسلك، سوف أعبِّر عن كل هذه الفوضى، ولكن ليس بالصراخ يا سالم سليمان، أو يا راشد رشاد، أو أيا من كنت، فأسماؤه اختلطت بأسماء الآخرين، وفي النهاية أحس كل منا بالرضا، فالرواية بدأت بجحيم قد شمل كل شيء في مركز علاج السرطان، وبين الجحيمين حيوات بقدر ما فيها من أسى، فيها من عبث وحيرة ودهشة وروح دعابة وجنس

طافح.. حتى ولولم يكن كل شيء في مكانه ولا أوانه، ودخلت بها في منطقة الخيال، وهي المنطقة الوحيدة للفن الحقيقي. ما أدهشني - وهذا اعتراف يندر حدوثه - أن ما كنت أعتبره دعابة مفارقة لما تعودنا رآه بعض القراء سببا للألم الكبير. فمعذرة هكذا كانت حياتي.

برج العذراء رواية لا أفصح فيها عن أسماء الأماكن والشوارع والميادين. لكن القراءة العادية لها تنبئك أنها القاهرة. ما الذي جعلني لا أذكر أسماء الأماكن؟ مؤكد لأن الرواية مفارقة للواقع ولأي واقع، حتى إنني فكرت أن أكتب على غلافها «رواية سيريالية» ثم قلت لماذا أنبه القارئ لشيء يمكن أن يعرفه بنفسه. ثم إن سيريالية يمكن أيضا أن تجعل القارئ يعتبرها منبتة عما حوله بينما ما حوله هو سبب الرواية.

-2-
عتبات البهجة: سعاد حسني؟

قرأت مرة بالصدفة بعد نشر رواية «عتبات البهجة» تعليقا من أحد القراء الشباب العرب عليها في أحد المواقع الإلكترونية، كان يناقش فيه قارئة عربية أخرى، قال فيه: «قابلت الأستاذ إبراهيم عبد المجيد في معرض الكتاب بالقاهرة وبدا لي شاردا تماما. لكن بعد قليل راح يحدثني بشكل جميل وبدا لي متواضعا جدا. اشتريت عتبات البهجة وقرأتها، وأخذت أقارن بينها وبين رواية «برج العذراء». ويبدو لي أنه كتب «برج العذراء» في ظروف نفسية صعبة، انتهت حين بدأ يكتب «عتبات البهجة».

للأسف نسيت اسم هذا القارئ الشاب الجميل، ونسيت اسم الموقع. كتبت له بالموقع ردا أقول فيه: «معك حق. هذا ما كان فعلا».

والحقيقة أن (عتبات البهجة) كانت بنت حياة مرتبكة أيضا، لكنها لم تكن طبعا مؤلمة. كان المؤلم فيها هوآلام الشريان التاجي التي كانت في بدايتها، والتي اقتضت مني حسب تعليمات الطبيب،

أن أنقص وزني وأمشي كل يوم ثلاثة كيلومترات على الأقل. كان يزورني صديقي شاعرالعامية الجميل محمد كشيك وأزوره في الوراق قريبا مني، أنا الذي كنت أسكن في منطقة أرض الجمعية. ومحمد كشيك مولع بمعرفة الأدوية والنباتات والعطارة وغيرها، كثير الدخول على مواقع الإنترنت يتابع هذه الأشياء. قال لي إنه أيضا يحتاج أن يمشي رغم أنه ليس مريضا. وهكذا كان يأتي إليّ فنخرج معا مشيا على الأقدام حتى ميدان الكيت كات. في ميدان الكيت كات حديقة صغيرة لم أفطن لوجودها، رغم مروري على المكان لعشرين عاما أو يزيد. أو فطنت لوجودها طبعا لكنها لم تشكل لي أهمية لصغرها، ومن ثم تعودت أن أمر عليها دون اهتمام سواء كنت أقود سيارتي أو بدونها. المسافة من البيت إلى ميدان الكيت كات ليست قصيرة. فهي تزيد على الثلاثة كيلومترات. ونعود أيضا مشيا. كثيرا ما كنا لا نمشي على الكورنيش، بل ندخل منطقة المنيرة شديدة الزحام، ومنها إلى عزبة سعد حيث باعة السيراميك وسوقه، ومنها إلى الكيت كات ثم الحديقة. المهم أننا نمشي سواء في اتجاه واحد على كورنيش النيل أو خبط عشواء، فنحن نمشي والسلام! نراقب ما يحدث حولنا ونعلق عليه ونضحك. خاصة أن تعليقات محمد كشيك كلها غير متوقعة وخارجة عن حدود العقل العادي. أشار لي أول يوم خرجنا فيه أن نجلس في الحديقة ونرتاح قليلا قبل العودة مشيا أيضا. دخلنا إلى الحديقة الصغيرة الخالية من الناس. ربما ثلاثة يجلسون بعيدا عن بعضهم منسيين أو نسيهم الزمن.

وبائعة للشاى، وقريبا منها بائعة للب والسوداني. بائعة الشاي امرأة ضخمة الجسم سوداء ترتدي جلبابا أسود أيضا. طلبنا منها كويين من الشاي. طلبهما محمد قائلا لي: «ما ينفعش نقعد هنا من غير ما ننفعهم». وبعد لحظات لمحنا فتاة جميلة بيضاء شديدة البياض تأتي إلينا بالشاي. الذين يعرفون الشاعر محمد كشيك يعرفون أنه لا يمكن أن يجلس صامتا. سألها: «إنتي بيضا والست الكبيرة سودا. إنتي بتشتغلي عندها؟» ضحكت الفتاة وقالت أنا ابنتها. أشار محمد للمرأة الكبيرة – في حوالي الخمسين – وقال لها: «البنت دي بتضحك علينا وبتقول إنها بنتك. إزاى؟» كل ذلك وأنا أكتم ضحكي أو أضحك. قالت المرأة إن أباها أبيض. بعد قليل رأينا طفلا أسود يجري في الحديقة وتناديه البنت البيضاء أن يعود إليها فعاد وحذرته هي من الخروج إلى الشارع. قال لها محمد: «إياك تقولي إنه ابنك». ضحكت الفتاة وقالت: «هو ابني فعلا وأبوه أسود!» ضحكنا من هذا التناقض بين البنت وأمها والبنت وابنها. ويوما بعد يوم تعودنا عليهما وعرفنا بعض أسرار حياتهما. كان ذلك كله يمر بي عاديا يثير الضحك لا أكثر ولا أقل. ولأني اتبعت ريجيما في الأكل كان محمد يدخل على المواقع الإلكترونية ويحدثني عما هو مفيد للقلب وما هوغير مفيد. واقترح عليَّ الذهاب إلى محل «حرّاز» بباب الخلق نشتري عسل النحل الجبلي وغيره من الأعشاب المفيدة. وكانت تحدث حوارات مربكة بينه وبين الباعة وبين ابن صاحب المحل الذي يجلس في الدور الثاني. كل ذلك تجده في الرواية التي كتبتها

فيما بعد. مشوارنا اليومي إلى الكيت كات صار جميلا. وأوغلنا في المشي فكنا مرة في ميدان السيدة زينب وعدنا مشيا. قال لي إياك أن تخبر أحدا أننا مشينا هذه المسافة. وبعد يومين وجدت كل زملائنا في العمل في الثقافة الجماهيرية يعرفون أننا عدنا من السيدة زينب للوراق مشيا. هكذا هو محمد كشيك!! كل ذلك ولا تخايلني الرواية ولا كتابتها. أعيش حياتي المرتبكة وأحكي له كل ما أفعل وهو يزيدني من كل ما هومفيد لقلبي. يالها من أيام جميلة افتقدتها بعد أن تركت سكني في أرض الجمعية إلى حدائق الأهرام. لم يعد هناك من أمشي معه. ومرت السنون وازداد الألم في قلبي وتدهورت حالتي وأنا أكتب الآن أسابق الزمن قبل أن يحدد الأطباء ما سيفعلون بي وبقلبي، وأفكر يا ترى في النهاية كيف ستكون الأمور، وأشعر بالرضا في كل الأحوال فالله سيختار لي ما يحبه هو، حياة أو موتا. وما يحبه الله لايكرهه أحد.

في أحد الأيام وأنا جالس وحدي في البيت، رحت أشاهد فيلم «عربة اسمها الرغبة». ليس الفيلم القديم الشهير الذي مثله مارلون براندو وفيفيان لي، والذي رأيته في صبا ي ولازلت أتذكر عنف مارلون براندو وهو يتكلم أو يتحرك. وليس هو الفيلم الثاني عن نفس المسرحية التي مثلته آن مارجريت التي كنت أيضا أحبها جدا في شبابي. لكنه فيلم ثالث لجيسكا لانج وإليك بالدوين. جلست أشاهد الفيلم حتى وصلت إلى نهايته وعربة الإسعاف تأتي لتحمل

جيسيكا لانج إلى مستشفى الأمراض العقلية وهي تقول لطبيب الإسعاف، كنت أنتظرك منذ وقت طويل يا حبيبي! لقد أحاطها كل الأشرار حتى فقدت عقلها «بلانش دي بوا» أو «بيضاء الغابة» كما هو اسمها في الفيلم والمسرحية العظيمة لتنيسي وليامز. وجدت نفسي أبكي. أجل أبكي. أنا الذي استطعت الحفاظ على عقلي في هذا العالم المجنون حولي المليء بالصغائر والمؤامرات. دخلت غرفتي وجلست أستمع إلى الموسيقى كعادتي لأغسل أحزاني. أفلام كثيرة رأيتها في حياتي مشت معي كثيرا من الوقت بالفرح أو بالألم. كان من بينها من قبل فيلم «الساعات» عن حياة فرجينيا وولف الذي مثلته نيكول كيدمان وميرل ستريب وجوليان مور، ووجدت نفسي أبتسم وأضحك من غرابة ما نراه في طريقنا كل يوم، وغرابة حياتي وتشردي وأبكي من أجل بيضاء الغابة جيسيكا لانج التي يسمونها في هوليوود إلهة الجنس، وتقول لهم أطلقوا عليّ أي لقب آخر غير إلهة لأن أحدا لا يمتلك الجرأة لممارسة الجنس مع إلهة! وبدأت أفكر في كتابة الرواية. بل بدأت أكتبها على الفور.

لم ننقطع أنا ومحمد كشيك عن الخروج، لكن لم يعد ذلك كل يوم. لم أخبره بالرواية إلا بعد أن انتهيت من نصفها بعد شهور. لكن ما كدت أصل إلى ذلك حتى وجدت رغبة قوية أن أعيدها بضمير المتكلم وليس الغائب. أعدت الفصل الأول بضمير المتكلم فأضاء أمامي واتسع بنا الفضاء. أنا وهو! إذن هذا هو السرد الأمثل لكتابة

هذه الرواية. لم أحدث صديقي محمد كشيك بكل هذه التفاصيل لأنه دخل في الرواية دون أن يدري بشخصية حسن.

أعجب ما في هذه الرواية أنني بعد أن تقدمت في كتابتها في المرة الثانية وجدت نفسي أقفز على فصلين لا أكتبهما، وأنتقل للفصل التالي لكل منهما. إذن صارت الرواية واضحة أمامي وصرت على يقين أني سأكتبها وتكتبني. لكن لماذا حقا تركت هذين الفصلين. كان فيهما فصل أكثره حديث عن الأعشاب والعلاج بها. المعلومات أمر سهل. والآن أسهل من كل وقت لدخولي على الإنترنت. ولأن محمد كشيك كان دائم الحديث عن هذا الموضوع رغم أنني لا أسأله الآن عنه. منذ اليوم البعيد حين عرف أني مريض وأقوم بعمل ريجيم وأمشي وهو يمشي معي ويتحدث في عالم الأعشاب والعلاج والغذاء. لم يسأل نفسه أنني استمعت إليه كثيرا. وأنا أيضا لم أمل حديثه. كان دائما ما يأتي بجديد غير متوقع. مثل اليوم الذي قال لي فيه إن الإنسان إذا أكل من زراعة المكان الذي ولد فيه طال عمره وعاش، ولذلك لايطول عمر الأجانب في البلاد الغربية. وكان يضحك ويندهش من قصر عمر أجداده ويقول لأنهم في الأصل أتراك وليسوا من مصر!! وهكذا كنا نجد مادة للضحك لكني كنت أشعر بجدية الكلام وأهميته وأختزنه. أرجأت هذا الفصل لأذهب إلى محل «حرّاز». كان هو مندهشا من رغبتي في الزيارة رغم أننا اشترينا من قبل أشياء كثيرة. قلت له هذه الزيارة

تختلف. سأجلس على مقعد وأتأمل المكان وسأكتب أسماء بعض العقاقير العشبية. وبالفعل ذهبنا وجلست على مقعد وتركته يتحدث مع الباعة بينما أراقب أنا الداخلين والطالعين وأسماء بعض العقاقير ثم وقفت لننصرف. لم يطل الوقت. مجرد دقائق. وكان هو مندهشا جدا. أهكذا حصلت على ما تريد؟ أنت غريب جدا. ونضحك. وبالفعل كنت أشعر أني لست في حاجة إلى معرفة شيء بالمكان أكثر من زيارته في صمت. لقد زرناه من قبل أكثر من مرة وطال به الحديث! وكتبت الفصل الذي تركت مكانه خاليا. بقي لي فصل آخر فيه حديث عن الكلاب وأنواعها. من الإنترنت ومن كتاب صغير عرفت الكثير عن الكلاب. لكني كنت في حاجة للذهاب إلى سوق الكلاب لأدخله صامتا وأخرج كما فعلت في محل الأعشاب الشهير. ذهبنا إلى سوق السيدة عائشة. هنا كل أنواع البضائع. من العاديات والتحف إلى الملابس الصينية إلى كل شيء يخطر على بالك. كل ذلك تمر عليه قبل أن تصل إلى سوق الكلا ب الصغير. ياله من يوم؟ مشينا بين المقابر وبين الباعة يوم الجمعة. زحام مرعب. كان محمد لايكف عن الكلام مع الباعة وأنا في صمتي الجليل أتشبع من المكان الصاخب. وحين دخلنا إلى سوق الكلاب لم أمضِ فيه أكثر من عشر دقائق صامتا. كان محمد يتحدث ويسأل وأشعر أنه يسأل أسئلتي دون أن يدري. وعدنا وهومندهش من سرعة العودة متصورا أني سأمضي اليوم كله لأحس بالمكان وأعايشه. في عودتنا

ونحن في نهاية الشارع الذي سنخرج منه إلى شارع صلاح سالم كان هناك مقهى جلسنا عليه. وهنا كانت المفاجأة. لم أكن قد كتبت الفصل الأخير بعد. هنا حدثت نهاية الرواية. أثناء جلستنا نشرب الشاي هلّ علينا رجل ضخم يرتدي الجلباب البلدي وعمة فوق رأسه. ألقى السلام وحدثني مباشرة بعد أن رددنا عليه السلام:

- مش عايز يابيه واحدة ست تشتغل عندك في البيت شغالة أو خفير للعمارة بتاعتك.

كان يحدثني أنا. وعلى الفور رأيت محمد كشيك ينظر إليه نظرة دهشة ويتردد في الكلام. دائما هو يتردد لحظة ثم يندفع في الحديث ولا يتوقف. تحدثت قبله. قلت:

- متأسف لأني ما عنديش عمارة وبالتالي لا أحتاج لحارس كما لا أحتاج لشغالة لأن عندي.

وإذا بمحمد كشيك قبل أن يتكلم الرجل يقول له:

- إنت بتشتغل إيه؟

أجاب الرجل:

- عامل على باب الله.

فرد محمد ضاحكا بسرعة:

- إنت باين عليك شيخ منسر.

اندهشت من إهانته للرجل الذي بدوره أخرج بسرعة بطاقته الشخصية وقدمها لنا يقول:

– دي بطاقتي يابيه. ودا اسمي وعنواني.

لم أمسك بالبطاقة لكن محمد أمسك بها وانطلق يضحك بقوة ويقول:

– اسمك أبو صفيحة؟!

قال الرجل:

– اسم العيلة يابيه. أنا اسمي محمد.

أمسكت بالبطاقة وراعني الاسم الذي ينتهي بأبي صفيحة وابتسمت. طلبت من الرجل أن يجلس يشرب معنا شايا. جلس الرجل على الفور. طلبت له الشاي وكان السكر وحده بعيدا عن الشاي فلاحظت أن الرجل وضع السكر كله في الشاي. أدركت أنه جائع. تركته يشرب الشاي في صمت. ما كاد ينتهي ويشكرنا حتى أخرجت ورقة مالية فئة عشرين جنيهًا من جيبي وأعطيتها له. شكرني الرجل فرحانا وشكر محمد كشيك ودعا لنا دعوات طيبة وانصرف وأنا صامت أفكر في أن هذا الرجل منحني نهاية الرواية التي كنت متحيرا فيها. كنت أفكر أن يشتري كل من أحمد وحسن بطلا الرواية كلبين ويمشيان في الطرقات، وقد وضع كل منهما نظارة على عينيه كأنهما كفيفين تهديهما الكلاب. الآن انتهت الرواية بهما

يشتريان الكلبين ويعطيانهما لأبي صفيحة المسكين الذي قابلاه على المقهى؛ ليربيهما ويبيعهما ويستفيد من ثمنهما ويستمر في تجارة الكلاب! وقفز السؤال الأخير، سؤال الرواية لرجل جاوز الخمسين هو أحمد لصديقه حسن الذي في نفس عمره. لماذا كلما اقتربت منا البهجة ابتعدت عنا. ليرد حسن أن الوقوف على عتبات البهجة خير من الدخول إلى البهجة نفسها لأنك إن دخلت إليها قتلتك وأهلكتك. فيفكر أحمد قائلا: لم أقتنع بكلامه لكني كالعادة صدقته ومشينا صامتين.

كانت الرواية كلها تقريبا مواقف لا يصل البطل إلى نهايتها. تنتهي على عكس ما أراد وبسرعة. كل شيء. الحب والجنس. وغيرها.

كانت مفاجأة صديقي الشاعر كبيرة وهو يقرأ الرواية قبل أن أنشرها، مما كتبت، وخاصة من نهايتها، وأبوصفيحة وما ألهمني. بعد أن صدرت الرواية ذهب محمد وحده إلى الحديقة ولم ير صاحبة الشاي أو ابنتها. قابلني مندهشا. لقد عرف أنها غادرت المكان. ونظر إليّ يقول: معقول. لقد وضعها الله في طريقك لتكتب الرواية ثم تختفي. وكذلك فعل الله حين أقبل علينا أبوصفيحة في المقهى. كان ينظر لي بدهشة شديدة وهو الشاعر الجميل الذي لا شك يعرف أن الكون يعطي الفنان ما يريد إذا صدقت رغبته فيما يريد. أن الإلهام ليس من الأفكار لكنه أحداث وبشر في الطريق. بعد عام من صدور الرواية كان محمد يركب «ميكروباص» متجها

إلى مستشفى دار الفؤاد يزور الصديق الناقد السينمائي علي أبو شادي وعاد إليّ يهتف: تصور في الميكروباص قابلت أبو صفيحة. هو الذي تعرف عليّ. أنا كنت نسيته. وسألني عنك. قال لي: فين البيه المحترم اللي اداني عشرين جنيها وأنا جعان؟ قلت له ضاحكا: لقد كتب عنك رواية، قصة يعني. قال لي: ما دام كده ادفع لي حضرتك أجرة الميكروباص. دفعت له جنيها ونصفا ونزلت أمام المستشفى قبله. يحتاج رواية أخرى أبو صفيحة هذا. ضحكت من الصدف. لا رواية أخرى. انتهت عتبات البهجة. وابتهجت تماما بكتابتها.

لم أتحير في هذه الرواية كثيرا. كتبتها كما قلت مرة بضمير الغائب وأعدت ما كتبته بضمير المتكلم. لكني وضعت لكل فصل عنوانا هو سؤال. ثم فكرت فجعلته سؤالين. كيف كذا وكذا أو لماذا كذا وكذا. وكيف عن شيء ولماذا عن شيء آخر فيصير الفصل كبير الأفق. ورغم ذلك فإن هذه الرواية كانت من أسهل ما كتبت للقراءة. بعض النقاد قال إني أوسع مساحة القراءة. والحقيقة أن رواياتي السابقة ليست صعبة ولا مستغلقة وإن كانت هذه أسهل وأنها هي التي فرضت عليّ لغتها وبناءها. وبعد فترة وأنا أجلس وحدي تذكرت فجاة مقالا كنت كتبته بعد وفاة سعاد حسني كان عنوانه لماذا يا ربي كلما اقتربت منا البهجة ابتعدت عنا؟ كنت وقتها أكتب منتظما في جريدة العربي الناصري. وفوجئت بالصديق

عبد الله السناوي رئيس التحرير يغير العنوان إلى عنوان العروس التي زفت نفسها إلى الموت. عاتبته برقة طبعا وأحسست وقتها بضيق لكن الأعجب كان إحساسي بالحزن! رغم أن ذلك يمكن أن يفعله رؤسا ء التحرير، والعنوان أيضا مستقى من المقال، وفي النهاية من سيقرأ المقال لايعرف بالعنوان الأصلي. كما أن العنوان الجديد ليس سيئا. لكني كنت حزينا بجد وأشعر بالضيق رغم أنه لا أول ولا آخر مقال سأكتبه. ولما قابلت محمد كشيك وحكيت له كيف تذكرت هذا المقال سكت لحظة كعادته ثم قال: «أنت كتبت الرواية دي علشان تحط معنى العنوان اللي شاله عبد الله. أيوه. أنت ممكن مافكرتش في كده بس إنت إسكندراني وأنا عارف الإسكندرانية ما بيسيبوش تارهم! ياسلام! اللاشعور طلع لك رواية بدل العنوان. كده انتقمت من عبد الله السناوي»!

طبعا ضحكنا. لكن في الحقيقة فكرة عدم اكتمال البهجة مشت في روحي منذ موت سعاد حسني فعلا. وهي في النهاية أقل وطأة وحزنا من ضياعها الذي كنت فيه من قبل. أيام برج العذراء. إذن الحياة تمضي. وها أنذا أنشر المقال عن سعاد حسني بالعنوانين عنواني وعنوان عبد الله السناوي! فعلت ذلك في رواية عتبات البهجة إذ صار لكل فصل منها عنوانين على طريقة واحدة، الأول بأداة الاستفهام كيف والثاني بلماذا مثل: «كيف تعرفت على دنيا أو لماذا كانت دنيا تموت مرة كل أسبوع» ومثل: «كيف اكتشفنا أن

هنـاك دائمـا وقتين في كل وقـت أو لماذا يختل ميزان الأمم بسبب نقـص خـل التفاح»، وهكـذا. يا لها مـن مصادفة تحـدث الآن دون ترتيب برغم اختفاء أداة الاستفهام كيف!

لماذا يا ربي كلما اقتربت منا البهجة ابتعدت عنا؟

أو

العروس التي زفت نفسها إلى الموت.

لخمسـة أيام وأنـا أفكر أن أكتب هذا المقال وكلما جلسـت إلى مكتبـي لا أكتب شـيئًا، ذلك الحزن الذي يتمدد فـي صدري منذ نبأ موت سعاد حسني لا بد أن يخرج، لكني كلما جلست أكتب استعصى عليّ خروجه، وازداد ثقلًا وتمددًا، ازددت حزنًا.. إن صورتها وهي تسـقط في الفضـاء ثم وهي ترتطم بـالأرض لا تفارقنـي. أربكتني. مشـيت صامتًا وجلسـت صامتًا وتوترت أعصابي تكاد تمزقني وأنا جالس. صار العالم عليّ رداءً من حديد، ثقيلًا باهظًا سخيفًا.

فـي صباح الثلاثاء، في السـاعة الثامنة والنصف جلسـت أكتب، تركـت الراديو كعادتـي علـى محطـة البرنامـج الموسـيقي، وفجـأة انسـابت منه مقطوعـة (البوليرو) لرافاييل، فتحـرك القلم في يدي. المقطوعة – الجميلة – القصيرة جدًّا أشبه بمرثية، نشيد وداع حزين، ينزل إلينا من فوق تل أو جبل، وكلما تكررت وازداد ارتفاع نغماتها ازداد إحساسـي بالفقد، وفـي خلفية اللحن، يبدو الإيقـاع المتواتر، أشبه بمارش عسكري جنائزي حقيقي.

البوليـرو أشـبه بزفة عـروس (إلى الموت)، كما هـي أقرب إلى مسيرة الجنود إلى حتفهم.

سعاد حسني كانت عروسًا تزف إلى موتها دائمًا. لم تغادر سعاد حسني مرحلة (العروس) في كل مراحل عمرها. هذا هو الإحساس الدائـم الـذي كانت تتركه فينا سـعاد حسـني مع كل فيلـم، حتى في الأفـلام التراجيديـة الكبيرة مثـل (الزوجة الثانيـة) و(على من نطلق الرصاص) و(القاهرة 30) كانت سـعاد حسني هي العروس التي لم يكتمل عُرسـها. في كل هـذا التنوع من الأفـلام، الخفيف والثقيل، الكوميديا والتراجيديا، السـهلة والمركبة، كانت سـعاد حسـني هي العروس السـعيدة أو التعيسـة التي لا نسـتطيع أن نبتهج ونتركها في تعاسـتها، كانـت هي البهجة التي نفتقدها، نجدهـا في الأ فلام حين نجدهـا وتضيع منا حين تضيع منها هي. لقد كتب وسـيكتب الكثير عـن تنوع أفلام سـعاد حسـني، وعن قدرتهـا العجيبة فـي كل أنواع الدرامـا، وعـن خروجهـا بالبطلة – مـن ثوب فاتـن الصامت، ثوب الانكسـار وقلـة الحيلة إلى ثوب القوة والمبـادأة – وكما فعلت هي فـي (خلـي بالك مـن زوزو) بقبضة يدها وهي تقول لحسـين فهمي (تؤخذ الدنيا كدهه). كتب الكثير وسـيكتب عن غناء سـعاد حسني السهل الجميل، الذي انتشر بين الناس، انتشار غناء أشهر المطربات، لكن الذي يُحزنني في موت سعاد حسني، فضلًا عن موتها ذاته هي طريقـة المـوت، واختيار هذه الطريقة، هذه الصفعة نحن مسـؤولون

عنها بلا شك، ربما لم يفعل فينا أحد شيئًا مضادا لسعاد حسني، لكننا نسيناها، رغم عشرات المقالات التي كتبت طوال مرضها، نسيناها تمامًا؛ لأننا تركنا الأقل قيمة يركبون قمة المجتمع، في الفن والثقافة والسياسة وكل شيء، وتحولت فنوننا وثقافتنا إلى البيزنس وتحقق لأول مرة أفضلية الماضي على الحاضر، رغم أنني لست أبدًا من دعاة عبادة الماضي، ولا عبادة الأبطال، لكنني لأول مرة أجد نفسي مُضطرًا لقول ذلك، أجل. الماضي الآن أجمل من الحاضر، وهذا هو المؤسف في بلادنا؛ لذلك فآلام المرض المُضنية جذبت سعاد حسني إلى زمن عبد الحليم حافظ وصلاح جاهين، والاثنان بشكل أو بآخر هربا من الحاضر الذاهب إلى الانكسار، نفذا بجلديهما.. سعاد حسني نفذت بجلدها من مجتمع أصبحت رموزه في الفن والثقافة والإعلام والسياسة كلها تحت أقدام البيزنس، بكل ما يرتبط بهذه الكلمة من معانٍ قذرة، والذين يجاهدون ضد ذلك مهمشون دائمًا، والهامشيون لمن لا يعرف هم صناع الضمير لأي أمة من الأمم، هم الذين يهاجمون المتن، يفضحونه، يُمزقونه، يجبرونه على التخلي عن كلاسيكياته، ونظامه الصارم، ويفتحون الأبواب للهواء، الهامشيون دائمًا هم صُناع الثورات، وسعاد حسني اكتشفها واحد من أكبر الهامشيين في تاريخ الثقافة العربية ألا وهو عبد الرحمن الخميسي، وأحبها مُطرب كان كل غنائه موجهًا للهامشيين رغم أنه كان بطل من قلب المتن، هو

عبد الحليم حافظ، أما الهامشي الثالث الذي لا شك تتذكره الآن بقوة، حين تتحدث عن اكتئاب سعاد حسني وانتحارها، فهو صلاح جاهين، وسعاد مثلهم جميعًا، عاشت في المتن، في قلب المتن بروح الهامشيين؛ لذلك خرجت من الصورة إلى إطارها، حين تلوثت الصورة بانحطاط البيزنس، ثم تركت الإطار كله وطارت كعصفورٍ غريب، حن إلى موطنه الأول. لقد كانت سعاد هي البهجة التي في وجه العروس، وهي الحزن الذي في وجه عروس غاب عريسها، هي البهجة الضائعة والتي كنا نجدها في المعنى الذي تريد أن توصله إلينا، لكن هذه البهجة ما كان لها أن تستمر في مجتمع، يزداد فيه الهامش كل يوم، ويتلوث الهامشيون أيضًا بالادعاء والكذب، ويرضون بالصراعات السخيفة، يقعون فريسة سهلة لها. غابت عنا البهجة التي طالت معنا أربعين سنة أو أكثر، اختتمت قرنًا بالبهجة، وبدأت قرنًا جديدًا بالبؤس، بؤس المشاعر، بؤس الأجسام، بؤس العقول، بؤس الموت الرابض في الأزقة والهواء العفن فوق الرؤوس، والسؤال الذي لا أعرف له إجابة، إن ضياع البهجة أو افتقادها قد يحدث مرة أو مرتين في المجتمع ويمضي، لكننا في بلادنا كلما صادفتنا البهجة، ضاعت منا دائمًا، ويكون علينا أن نبدأ من جديد. أجل بلادنا للأسف لا تتحرك إلى الأمام، تنتصر ثم يخبو كل شيء، وتعود تتمدد على الأرض جثة بلا حركة، ينهشها النمل والغربان وتاريخنا هو هذه البهجة التي كلما تحققت ضاعت،

ويكـون علينـا أن نبدأ من جديـد، تمامًا كما هوحادث في أسـطورة سـيزيف، ذلك الذي حكمت عليه الآلهة أن يصعد بصخرة إلى قمة الجبـل، وكلمـا صعد بها سـقطت، ويكون عليه أن ينـزل من خلفها ويصعـد بهـا من جديد ولا ينتهي أبدًا، تلك الأسـطورة التي اعتبرها الوجوديون علامة على حياة الإنسـان وجوهر العبث فيها، لكني لم أتخيل أن هذا الوضع العبثي يمكن أن يشـمل المجتمعات أيضًا، أنا الآن لا أرى غير ذلك بعد أن ماتت البهجة، سعاد، وأتسا ءل في ألم، لماذا يا ربي كلما اقتربت منا البهجة رحلت عنا؟

***

بعـد ذلـك كتبـت روايـة قصيـرة هي (شـهد القلعة) والـذي يقرأ شـهد القلعـة ويكون قبلها قـد قرأ عتبات البهجة سـيعرف بسـهولة أن هذه بنت تلك. مسـألة الرجال بعد الخمسـين وتشـوقهم للنسـاء الصغيرات، مسألة مطروقة بشدة في الأدب العالمي منذ رواية لوليتا لنابوكـوف. وهـي موجودة فـي عتبات البهجـة في أكثر من مشـهد وأكثـر من علاقة. هـذه المرة أخذت المكانة الأكبـر في الرواية. بل صـارت هي الموضوع الرئيسـي، أحـدا ث الرواية تجـري في قلعة قديمـة فـي عمان، قريبـا من مدينة مسـقط العاصمة التـي زرتها مرة واحـدة حضرت خلالها حفلا فنيا فـي القلعة التاريخية التي صارت مكانا للفنون. وجدت القلعة مكانا جديدا لعلاقة من هذا النوع. فما وراء القـلاع تاريـخ غامض أقل ما فيه القتل. وهكذا يسـتيقظ تاريخ

القلعـة منذرا بإفسـاد العلاقـة أو الرغبـة الجامحة في البطـل الكبير والبطلـة الشـابة الذي يمني نفسـه بهـا وهي بدورها معجبـة به. هي تنويعة جديدة على عتبات البهجة لا تكتمل فيها البهجة رغم الرغبة العارمـة. المكان العجوز مثل العمـر يطارد صاحبه. في هذه الرواية أكثر من غيرها ظهر تأثير كتابة السيناريو عليّ. كنت كتبت للتلفزيون سـيناريو مسلسـل اسـمه «بين شـطين ومية» ومسلسـل عن روايتي «لا أحـد ينـام فـي الإسـكندرية» ولا تسـألني مـاذا جـرى فـي المسلسـل الثاني لأني لا أريد أن أتذكر تلـك الأيام. المهم أن كتابة السـيناريوتركت عليّ أثرهـا بقوة في تقطيع المشـاهد والانتقال في الزمان والمكان بإيقاع سـريع يتناسـب مع رغبة بطل الرواية الكبيرة وبتشـويق سـينمائي أكثـر منـه أدبـي. كيف تجعـل المـكان الصغير الغامض، القلعة، واسـعا وفضـاءً روائيا؟ تتابع الأحـداث والأزمنة والتنقـل بين الأمكنة. تسـلل إلى كتابتـي أثر السـيناريو. هنا تمضي الرواية كلها في ليلة واحدة. وتنتهي وقد نال البطل ما يريد من الفتاة لكـن بعـد أن وقف أمامـه كل تاريخ المكان الغامـض. في الماضي والحاضـر. تكتمـل البهجة لكن هل حقا اكتملـت بعد كل ما رأى؟ هناك روايـات بنت روايات قبلها ولا يدرك الكاتب ذلك إلا متأخرا مثـل حالتي هنا أو يدركها من البدايـة مثل حالتي في الصياد واليمام والمسـافات منـذ سـنوات بعيدة. هنـاك كان المكان سـببا في تتالي الروايـات وهنـا كان الزمان. زماني طبعا والزمن مـن حولنا! اللذان صارا في المكان الأفضل. وصارا زمن الأبطال!!

-3-

في كل أسبوع يوم جمعة رواية الزمان..

لـم أنتبه إلى أني كتبـت رواية تدور أحداثها في القاهرة – عتبات البهجة – إلا بعد أن بدأت أكتب «في كل أسـبوع يوم جمعة». كنت دائما أقول، ولا أزال، أن بيني وبين القاهرة سـتائر من النسيان. رغم أننـي مع الوقت أكتشـف أنـي كتبت قصصـا قصيرة تـدور أحداثها بالقاهرة أو كانت من وحيها، إلا أني لا زلت أقول ذلك.

في هذه السنوات كلها التي وصلت إلى عام 2007 أي قد مضت سـبع سـنوات على نشـر طيور العنبر، لم أنـس أني يوما مـا لابد أن أنقطـع عن كل شـيء وأكتب الجزء الثالث (الإسـكندرية في غيمة) كانـت قصيـدة كفافيـس «الآلهة تتخلى عـن أنطونيو» تمشـي معي. أضع أشـعار كفافيـس على مكتبـي، الكتاب الذي ترجمـه الدكتور نعيم عطية، ولسـبب ما يختفي الكتاب وأشـتري نسـخة أخرى منه. ثم يعود ويختفي. وفي مرة كتبت القصيدة في كراس كبير مما أكتب فيـه رواياتـي وكتبت علـى غلافه «الجزء الثالث مـن لا أحد ينام في

الإسـكندرية» ثـم اختفـى هذا الكـراس أيضـا مثل غيره فـي حركة الكتب التي لا تنقطع في مكتبي. المهم كنت في هذه الفترة أستخدم الإنترنت في الاطلاع على الأحداث والصحف وأتبادل الإيميلات مع الأصدقاء. وذات مرة وجدت نفسـي أسـأل نفسـي: كتبت كثيرا عـن المدن يا إبراهيم. كتبت عن الإسـكندرية وشـوارعها وأحيائها وكتبـت عن إحدى مدن السـعودية – البلدة الأخـرى – وكتبت عن صحـراء سـيناء – قناديـل البحر. والآن فـي الدنيا مـدن جديدة هي المدن الافتراضية على الإنترنت والشـوارع الافتراضية والحوارات والنقاشـات والبيانات السياسـية وحركـة المجتمع والحيـاة فلماذا لا تكتـب عن مدينة افتراضية. عن حياة افتراضية. أحسسـت بالفرح يسري في روحي. سـيكون هذا جديدا. في لحظة فكرت أني قرأت عـن بعض الكتاب اسـتخدموا الإيميلات في رواياتهـم مثل الكاتبة السـعودية رجاء الصانـع، ولكني أعترف أنني لـم أقرأها حتى الآن. ليـس لموقف مـن كاتبتها التي رأى البعض قيمتهـا من معنى الجرأة في السـعودية. الجـرأة التي هي في بلاد أخرى عاديـة. أبدا. لم أقرأ الروايـة لأحكم لهـا أو عليها. لم أقرأ رواية بنات الرياض وأنا أكتب روايتي ولا بعد أن كتبتها. كنت أعرف أن بعض النقاد أو الصحفيين سـيبدأون فـي البحـث عـن الأسـبق. وسـيتركون الرواية ومـا فيها وكيـف كتبـت. لكني عـادة لا أهتم بهـذه المسـائل، المهم هوكيف تكتـب. وبالطبع هنـاك أيضا روايات مصرية اسـتخدمت الإنترنت،

أذكر أني قرأت إحداها فلم تعجبني كثيرا لسبب بسيط جدا وهو أن صاحبها نقل كل مفردات الإنترنت فبدت الرواية «كوبي وبيست» من الموقع. ما الذي جعل قارئا يمسك كمبيوتر ورقيًا بين يديه. الأفضل له أن يمسك باللاب توب نفسه أو بما تطور عنه، الآي باد. الأدب شيء مختلف. كيف تستطيع أن تستخدم أقل تقنيات الإنترنت في الكتابة. صار هذا هو قراري. وليس التقنيات التي هي سهلة جدا. هنا موقع سيدخل عليه الآخرون يشتركون بالعضوية فيه، فليس مهما أن أوضح الطريقة في الدخول والقبول. وليس مهما أن أضع لك هامشا بأصدقائك وطلبات الصداقة ومتابعيك والمناسبات والإعلانات وغير ذلك مما تجده على المواقع. ما أريده هو كيف يعيش المصريون حياتهم في الفضاء الافتراضي وهل تختلف عنها على الأرض. لذلك لم أستخدم إلا تقنيات بسيطة هي الإيميل وآلياته من إرسال أو انتقال بالرسالة أو مسحها. يعني. send – forward- delete.. ويكتب كل مشترك في الموقع على صفحته ما يشاء ليقرأه الآخرون ويكون تعليقهم عليه وارد، أو يكون من خلال غرفة الشات الجماعية. اخترت أبسط عناصر الموقع لأني أكتب أدبا في النهاية ولا أنقل تقنية فنية. التقنية الفنية كان لها دور في الكتابة. بمعنى الإيجاز واللغة العامية التي غلبت على هذه الرواية بشكل كبير ولم أفعل ذلك من قبل إلا نادرا – حالة حمزة مثلا في لا أحد ينام في الإسكندرية – واستخدام لغة الشات ولغة

الشباب العصرية. كذلك كنت أعرف أن البعض سيحتفي بالرواية من باب أن كاتبا قديما يدخل عالم الشباب، والبعض أيضا سيرى أن هذا العالم هولجيله من الشباب فقط ولم يكن لي أن أدخله، وهي الفكرة الخاطئة دائما التي تصنف الأجيال بالعمر، بينما الأدب هو روح الشباب حتى لوكان الكاتب في التسعين من العمر. الإبداع دائما حالة شابة وتمرد.

بالمناسبة لم ينل العواجيز في مصر نقدا ولا شتائم وإهانات مثل ما نالوا من الشباب بعد ثورة يناير وحتى الآن. وهؤلاء الشباب الذين صنعوا الثورة هم أنفسهم للأسف الذين انقسموا بين العواجيز في أول انتخابات برلمانية ورئاسية وظللت «ألطم» في مقالاتي وعلى تويتر والفيس بوك أدعوهم لانتخاب شاب ثائر منهم لكن لم يسمع أحد منهم. وها نحن ندفع الثمن! لكن هذا حديث ليس مكانه هنا.

لماذا اخترت عنوانها في كل أسبوع يوم جمعة؟ ببساطة شديدة ودون ادعاء؛ لأن يوم الجمعة في التراث العربي يوم صعب. هو يوم قتل المسيح. ويقال إنه يوم قتل الحسين ويوم خلق آدم ويوم خروج آدم من الجنة وفيه تقوم الساعة وفقا لأحاديث متواترة عن الرسول عليه الصلاة والسلام ويعتنقها الكثيرون، وهو في الحياة يوم الراحة الأسبوعية للمسلمين تعودنا عليه. هو يوم النهايات والبدايات ويقال في الأدب الشعبي المصري إن به ساعة نحس!

إذن كما قررت صاحبة الموقع أن يكون قبولها لأعضائه يوم الجمعة الـذي صار يوم النهايات أيضا. من يخرج مـن الموقع أو من يتزوج أو من يقتل.

كان التحـدي الكبيـر فـي هـذه الرواية أنهـا وهي تحاكـي موقعا إلكترونيـا لابـد أن تتعـدد عضوية الموقـع. لا يكون اثنـان يتبادلان الرسـائل مثـلا. ومـن هنا تعـدد الأعضاء. رغـم أن صاحبـة الموقع قررت أن يكونوا خمسين، لم يصلوا إلى العشرين. والسبب يفهمُه القارئ بسـهولة، فالروايـة لم تنتهِ. الرواية مفتوحـة والمصائر تنتظر الجميـع. وحين يكون لديك هذا العدد مـن الأبطال فأنت لا تكتب روايـة. الرواية تاريخيا عرفت بالبطـل ونقيضه. وحولهما عدد قليل من الشـخصيات الثانويـة. صحيح كان من أثر المـكان إمكان تعدد الشـخوص والموضوعات في الرواية الواحـدة لكن هذا لايعني أن ليـس لها بطـلا ونقيضـه ولا يعني أنها تغيـرت الآن كثيـرا. ومن ثم كان توزيـع أبطـال هـذه الرواية على الأسـابيع أمرا هامـا لي بحيث لا يتشـتت القـارئ ولا يضيـع منـه شـخص أو شـخصية حتـى لـوكان ظهـوره قليلا جـدا. كذلك دخـول الشـخصيات وخروجها الاضطراري أو الاختياري من الموقع. والأهم لغاتها التي تتحدث بها. وهي شخصيات تتفرق بين الشباب والرجال والفتيات والنساء ومـن مهن عديـدة. مـن المهنـدس والضابـط والصحفيـة والطبيبة

والمحامي والشـيخ إلى فتـاة الكافتيريا والليزبيـان والعاهرة وطالبة الجامعة والمرأة العادية.

وهكـذا أيضا كان تعدد اللغـات بتعدد الشـخصيات ومواضعها الاجتماعيـة وإمكاناتهـا الثقافيـة فـي الوقـت الـذي تكون فيـه لغة الإنترنـت ولغـة الشـباب المعاصـرة، العاميـة طبعـا، ذات القـدرة العجيبـة علـى الإيجـاز أو التعريب شـيئا ضروريا حتـى تظل داخل الموقع الإلكتروني، بينما يكون الشات كله بالعامية الموجزة. ولأن فـي الفضاء الافتراضي حرية لا تجدها حولك فكان من الطبيعي أن تخرج الشـخصيات عما هومتوقع وتخوض في الجنس والسياسـة بصراحـة شـديدة خاصة أنـه يمكن أيضـا أن تكون شـخصيات غير حقيقية. وهكذا كانت النسـاء أكثر جرأة مـن الرجال، كأنما تعكس الروايـة قهـر النسـاء الـذي هوالأرضية التـي تقف عليهـا المرأة في مصر، وليس إلا الفضاء الافتراضي يتيح لها الحرية.

في هذه الرواية شخصية شاب منغولي أو «داون» أجبرت صاحبة الموقـع علـى الزواج منـه لفقرهـا ولغنى أهلـه، ومن ثـم كانت لها حياتها المعقدة التي كانت في النهاية سببا لا تكشف عنه لإنشاء هذا الموقـع الذي تدعو الآخرين للانضمام إليه. موقع للبوح. سـتعرف مـن الرواية كيف صار زوجهـا الداون طوع بنانها. تقتل فيقتل معها. تخفي الجثث فيخفيها معها، على الناحية الأخرى تتهم امرأة أخرى

بعشق شاب من نفس النوع هو أخو زوجها الذي يخفيه أهله فتدور في القاهرة كلها تبحث عنه. رحلة عبثية لأنها لا تستطيع تمييزه فيمن تراهم من هذا النوع المتشابه. ومرة ثالثة يتم قتل شخص من هذا النوع. يقول أحد شخصيات الرواية – مختار كحيل – في رسائله لأعضاء الجروب إن هؤلاء هم الإنسانية في حالتها الغفل، البريئة التي لم تتشوه. ومن ثم يرتكب الإنسان أكبر جريمة في تشويهها. ليس مهما هنا أن أشرح لك أو أحلل الحالة، لكني أريد أن أشير إلى شيء غريب كان يحدث معي. وهوأنني أثناء كتابة الرواية كنت أرى هؤلاء في كل مكان تقريبا أذهب إليه. حتى أنني مرة كنت في سيدي كرير في الساحل الشمالي خارجا إلى الشاطئ الذي كان خاليا تقريبا من الناس في أحد أيام الربيع فوجدت أحدهم يجلس تحت شمسية ينظر إلى الأمام في صمت. إلى البحر. ابتسمت وتذكرت ما قاله لي صديقي محمد كشيك من أن الله يرسل إليّ ما أريد من مواقف وشخصيات. جلست بعيدا لكن لا أبعد كثيرا بنظري عنه.

على أن من شخصيات هذه الرواية التي تماهت معي إلى حد الألم كان شخصية مختار كحيل الذي أشرت إليه. في الرواية وعلى الموقع يكتب وظيفته أرمل. ويسبب ذلك ارتباكا وسخرية أحيانا من الجميع. وهو يحكي لهم كيف يرى العالم المحيط بهم عالما وهميا بينما العالم الحقيقي هوما رسمه الفنانون في لوحاتهم. ومن

ثم هو يمضي ليله يدخل من الإنترنت على المتاحف العالمية يعيش الحياة الحقيقية. ماجرى في حياته وفقده لثلاث زوجات لابد كان وراء هذا الانفصال عن الدنيا. هو لا يحكي حكاية زوجاته إلا متأخرا جدًا. وهو يرى كل ما حوله عبثًا وغير حقيقي حتى أنه يسأل لماذا وهناك ثلاثة أديان سماوية استراح الله في كل منها في اليوم السابع لا نحصل على ثلاثة أيام إجازة في الأسبوع. المسلمون يعتبرون اليوم السابع هوالجمعة واليهود السبت والمسيحيون الأحد والدولة تعترف بالأديان السماوية فلماذا حقا لا يحصل العاملون على ثلاثة أيام إجازة!؟ ليس مهما أفكاره هنا. المهم هو أزمته التي عكست نفسها عليّ أكثر من أي شخصية أخرى. لقد جعلته في الرواية يسكن في عمارة في شارع حسين المعمار المتفرع من شارع محمود بسيوني والمؤدي إلى مقهى التكعيبة. وما أكثر مروري في هذا الشارع حين أكون في نصف البلد، خاصة حين أذهب إلى مقهى التكعيبة أو معرض الداون تاون أو إلى منطقة معروف. كنت كلما عبرت الشارع نظرت إلى الشقة التي أسكنته فيها وركبني هم حقيقي يفصلني عن الدنيا وأشعر بالأسى لأجله فأبحث لأول مرة في حياتي عن حبوب الترامادول. أجل جعلني أتعاطاها لكن طبعا كانت على مسافات متباعدة ولم أدمنها. انتهيت منها مع نهاية الرواية. بالضبط مع نشرها. وأذكر أن آخر حبة كانت

معي أعطيتها لسائق تاكسي فرح بها جدا لأنها مستوردة! كثيرا ما تغلبني شخصيات الرواية. حدث ذلك معي عشرات المرات لكن لا أحد منها جعلني أتعاطى الترامادول غير مختار كحيل منه لله.

حين ذهبت بهذه الرواية إلى الدار المصرية اللبنانية للنشر كان للدار ممثلة في الأستاذة نرمين رشاد رأي وافقتها عليه. وهو أن لا نترك الإيميلات الخاصة بالشخصيات كما هي. بل نضيف إليها علامات أخرى مثل # أو* بين الحروف حتى نتفادى إمكانية تشابه الإيميل مع إيميل حقيقي لشخص ما يمكن أن يقاضينا خاصة أن أفعال الشخصيات فاضحة في أكثرها أو مجنونة. وافقت باعتبار أن أي قارئ سيفهم ذلك وحده. لكن للأسف بعد صدور الرواية ظهر أن هناك من لا يفهم ذلك واعتبره عدم معرفة مني بالإيميل!! أي والله! لم يكتب أحد ذلك ولكنه دار في بعض الأحاديث وسألني البعض عنه!؟

لكن الأهم هوما اقترحته الأستاذة نرمين وكان جميلا بحق وهو أن يكون الفصل الأخير حاملا نهايات الشخصيات مع صورهم أيضا، كانت هذه إضافة طيبة من الدار أسعدتني.

لقد كتبت هذه الرواية ونشرتها قبل ثورة يناير بعامين، وصار عنوانها هو عنوان كل الثورات. صار لكل يوم جمعة عنوانا من عناوين الغضب، ويوما للنهايات، وتردد عنوانها كثيرا على

صفحات الفيس بوك، يبدي البعض سعادته، ويسألني البعض كيف اهتديت إلى العنوان. والحقيقة أن ذلك وإن حدث مع هذه الرواية بشكل كبير فقد حدث أيضا مع لا أحد ينام في الإسكندرية التي صار الكثيرون يذكرونها عند الحديث عن الإسكندرية أيام الثورة، أو يقولون حتى الآن لا أحد ينام في مصر كلها وليس الإسكندرية!

القسم الرابع

القصص القصيرة

هـل يختلف ما وراء القصص القصيرة عـن الرواية؟ من المؤكد أنـه يختلف. فهو من البداية يحدد نفسـه في قالـب القصة القصيرة. إحسـاس عميـق حقا. وربما يكـون أعمق في إلحاحـه على الروح، لكنه كما يأتي يخرج بنفس السـرعة. المسـافة الزمنية بين ميلاده في الـروح وبعثه على الورق أقل مما يحدث في الرواية طبعا. هذه التي تمشي معك حلما وكتابة لسنوات وسنوات.

كتبـت القصة القصيرة لأنشـرها. كانت هـي طريقي إلى الوجود الأدبـي ومن ثم إلـى المسـابقات. وكانت هي ما نتناقـش حوله في نـادي الأدب في السـتينيات في قصر ثقافة الحرية بالإسـكندرية مع أصدقائـي من الكتاب، سـعيد بكر وعبد الله هاشـم وسـعيد سـالم ورجب سـعد السـيد ومصطفى نصر وغيرهم. كنا لا نناقش الكتب النقديـة عن الروايـة لكن نناقش ما نكتبه من قصص. كنا نسـتضيف كتـاب روايـة وقصة من القاهرة ونقرأ لهم أيضا قصصنا. كان الوقت

هو السنوات الأخيرة من الستينيات في القرن الماضي. وكانت القصة القصيرة هي الرائجة وهي الإنجاز الأكبر لما سمي بجيل الستينيات، وهي طريق النشر في المجلات الأدبية الكبرى. كانت أول قصة نشرت لي هي الفائزة في نادي القصة بالإسكندرية وكانت على مستوى الجمهورية. نشرت في أخبار اليوم على صفحة كاملة ومقدمة صغيرة للكاتب الكبير محمود تيمور عنوانها هذا قصاص موهوب. كان يدير النادي الكاتب والصحفي المرحوم فتحي الإبياري ولم يكن له من عمل إلا هذه المسابقة تقريبا. وكانت الجائزة كأسا فضية وثلاثة جنيهات. فقط ثلاثة جنيهات. لكن نشر القصة بالأخبار كان عملا رائعا. كان ذلك عام 1969. كما أن المرحوم فتحي الإبياري حولها إلى سهرة إذاعية بإذاعة صوت العرب. وكانت القصة الثانية عام 1970 بمجلة المجلة التي كان يشرف على تحريرها المرحوم الدكتور عبد القادر القط. كان نادي الأدب بقصر الثقافة قد رتب زيارة له يناقش أعمالنا بواسطة السيدة «عواطف عبود» التي لا أنسى أبدا دورها العظيم في قيادة النادي والإشراف عليه. حضر الدكتور القط وناقش ما وصله من أعمال ونشر قصتي فقط من بينها. إذن القصة القصيرة هي طريقي للقاهرة. نشرت بعد ذلك في مجلة الهلال حين كان يشرف عليها المرحوم العظيم رجاء النقاش، وفي مجلة الطليعة التي كان يشرف على

ملحقها الأدبي الناقد فاروق عبد القادر. بدأت أتردد على القاهرة وأعود إلى الإسكندرية حتى انتقلت إليها نهائيا عام 1974. أصدرت أربع محموعات قصصية هي على الترتيب «مشاهد صغيرة حول سور كبير»، «الشجرة والعصافير»، «إغلاق النوافذ»، «سفن قديمة» وبينها مجموعتان هما مختارات مما كتبت في هذه المجموعات. «فضاءات»، و«ليلة أنجيلا» وإن كان في الأخيرة أكثر من قصة جديدة. ثم انتهيت إلى طباعة كل القصص في مجلد واحد بعنوان «أشجار السراب» فما كانت القصص إلا أشجارا عند الأفق كلما اقتربت منها ابتعدت كالسراب.

أستطيع أن أقول إن كل القصص كان لها أصل في الحياة. لكن هذا الأصل لم يكن لينمو هذا النمو ولا ينتهي هذه النهاية. الحياة التي عشتها بين السكة الحديد وفي الإسكندرية والبحيرة والبحر وترعة المحمودية والصحراء والاتساع الرائع للدنيا والغرباء الذين يملأون حياتي وما وقع لي شخصيا من نجاحات وإخفاقات في السياسة والحب والحياة وكل ما ارتكبته من صبوات ومن مر عليّ من بشر اختفوا مع الزمن وليالي السهر في الإسكندرية والقاهرة وجنون الشباب وزيارات الأماكن التي يقال عنها ضالة أو مضلة التي هي في الحقيقة جميلة في وقتها وأماكن العبادة أيضا وغير ذلك مما يجد الكاتب نفسه فيه بحكم اندفاعه وانجذابه لغير المألوف.

وطبعا لم يكن ذلك كله يكتب كأحداث أو أفكار لكن رؤيتي للحياة ودراساتي الفلسفية والسياسية وغيرها صبغت كل هذا بصبغتها.

لم تكن القصة القصيرة ترهقني كثيرا في البحث عن لغة أو بناء لها. كانت تعجبني قصص كتاب الستينيات المجيدين فيها مثل بهاء طاهر والبساطي ويحيى الطاهر عبد الله. لخصتها كلها في كلمتي التجريب والإيجاز. كنت أصل إلى ذلك بسهولة. الوحيد الذي كاد ينفرد بي تماما كان يوسف إدريس الذي قرأته متأخرا بعد أن نشرت أول قصصي عام 1969. أوقفني عن الكتابة لأني كلما كتبت قصة وجدته فيها. توقفت عاما تقريبا حتى انتهى تأثيره عليّ ككاتب لكن بقي انفجاره المجنون بما لا نتوقعه جميلا. حلمت مرة به يمليني قصة كاملة. نهضت من النوم بعد الحلم غير مصدق. لكني نمت وأرجأت كتابة هذ القصة العجيبة حتى الصباح. حين نهضت في الصباح وجدت نفسي نسيتها كلها. رحمك الله يا يوسف إدريس. كتبت ذلك مرة في مجلة أدب ونقد وأحبني جدا والتقينا كثيرا لقاءات جميلة لكن ذلك لم يطل لوفاته على غير توقع.

كانت القصة ولازالت رغم الإقلال من كتابة القصة القصيرة تأتي دفعة واحدة، بقضها وقضيضها كما يقال. كان يشغلني الإيحاء أكثر من الوضوح والإيجاز فيما أريد. شغلتني الوجودية والاغتراب وكادت تقتلني هياما روايات دستويفسكي وكافكا

والغريب لكامي وصحراء التتار لدينو بوتزاتي. هذه الأخيرة بالذات وتيمة الزمن الذي يمر سارقا أعمارنا بلا جدوى شغلت كثيرا من قصصي وشخصياتي. الشجرة والعصافير مثلا وكل يوم يتقابلان. قراءاتي في المسرح ودراساتي لتاريخ الحب والمحبين والجنون وطبعا السينما الحديثة والكاميرا الخاطفة وقصص إدجار آلان بو وتشيكوف وبيرانديللو وهيمنجواي وجونتر جراس وغيرهم وكل ما ترك أثره عليّ في الرواية ترك أثره هنا في القصة بشكل أكثر تركيزا. الوقت والليل والشتاء والخلاء والسفر صنعوا اغتراب شخصياتي واغتراب حياتي والأحلام أيضا. صارت عيني على هؤلاء الغرباء أكثر من غيرهم. امرأة تمشي في ليل الشتاء وحدها عند الفجر. فراغ حولك وأنت تقف في شباك فوق كوبري قصر النيل بعد أن ينتصف الليل ولا أحد فتظهر لك شخصيات كالأحلام تصنع حكايات غريبة. يوم للصيد لا ينتهي بالصيد. سجن تزور فيه أحد أصدقائك السياسيين ثم تدخله سياسيا أيضا. القصص كثيرة لكني أستطيع أن أجد لكل منها سببا أشعلها. سيأخذ هذا وقتا طويلا بلا شك. ولكن من زيارة السجن كتبت مشاهد صغيرة حول سور كبير ومن السجن نفسه كتبت الليل نام وإغلاق النوافذ. من عملي في السعودية كتبت اليوم الأول. ومن زيارة لي إلى الصديق سعيد الكفراوي بالرياض في السعودية وصلت فيها إلى بيته قبل حضوره من الخارج فانتظرته قليلا في الشارع وفجأة وجدت مصريا يسألني عن عنوان في المنطقة أنا الغريب القادم من تبوك في الشمال. من هذا السؤال والانتظار

في الفراغ والبيوت الصامتة وتحت الشمس كتبت الغريبان. ومن جاكت شتوي شمواه اشتريته من بورسعيد واكتشفت في القاهرة أنه غير مناسب فهو يحتاج إلى بلد شتوي حقيقي وكنت أسكن مع صديقي المرحوم المخرج المسرحي وأستاذ المسرح سامي صلاح وكانت لنا أيام أشبه بأيام أبطال تورتيلا فلات لهيمنجواي حيث اقترح عليّ سامي أن أخرج بالليل لأنه لا يجب أن يظل الجاكت بلا استعمال وصار يخرج معي رغم أنه لا يرتدي «جاكت» ثقيلًا وكنا نضحك. من هذه الحادثة جاءت قصة «في الليل» ومن ليلة قضيتها في ملهى ليلي في الإسكندرية جاءت صديقي الوحيد في المدينة، ومن ليلة نمت فيها في محل المصوراتي في الإسكندرية في شارع طيبة خائفا ومعي منشورات الحزب الشيوعي كتبت «الرغبة في الاختفاء»، ومن زيارة غير متوقعة لشارع تانيس لأركن سيارتي في الصباح الباكر لأبدأ في صيد السمك بالبحر ووجدت نفسي أمام البيت الذي سكنته مع أصدقائي أيام الدراسة كتبت «سماء زرقاء وبحر من لازورد» ومن جلسة في كافتيريا كالتيا بالإسكندرية ولوحة صغيرة عن السفن معلقة أمامي وشاب يجلس وحيدا ثم تأتي امرأة معها طفل تناديه فيخرج ويعود في ضيق كتبت «سفن قديمة» ومن شخص قابلني في شارع طلعت حرب ذكرني بنفسه وكان في يده كتابا عن السحر كتبت «حامل كتاب السحر»، ومن ضلال الطريق في العودة من حي الزيتون كتبت «الطريق والنهر»، ومن صيد السمك أيام الصبا في بحيرة مريوط كتبت

«العجوز والصبي فوق الجسر»، ومن مئات المرات التي خرجت فيها إلى الشاطئ كتبت «رؤى البحر»، ومن تجربة صديق مع إحليل التمساح الذي ذهب يشتريه من أسوان كتبت «مسحوق التمساح» ومن منزل كانت تسكنه أسرة غريبة خلفي في حدائق القبة كتبت «بيت وحيد»، ومن مشوار المدرسة الابتدائية مع أصحابي كتبت «الأسرار»، ومن صديقة جميلة في باريس كتبت «ليلة أنجيلا»، ومن رجل فرنسي قابلته في مستشفى بلاروشيل بفرنسا كتبت «حكاية تيري»، ومن زهقي من الدنيا كتبت «الضربة القوية»، وهكذا. لكن أغرب القصص كانت تحت المظلة 2000. حلمت بها كاملة واستيقظت فزعا. ولأني أعرف أنني لو نمت مرة أخرى ستضيع من الذاكرة - ولقد حدث ذلك معي من قبل - جلست وكتبتها كما حلمت بها. حالة سيريالية حقيقية. وذهبت بها دون أي تدخل إلى صحيفة الأهرام قبل الظهر وأعطيتها لهم بخط يدي لتنشر بعد ذلك في ملحق الجمعة. الأحلام تشكل الكثير من بنيات قصصي. ولقد فكرت مرة أن أكتب أحلامي قصصا لكن نجيب محفوظ كان قد سبقني فنشرت منها ثلاث قصص صغيرة فقط بعنوان «ماتبقي من الأحلام»، ومن المجاذيب الذين ألقاهم كثيرا في الطريق وبعضهم غالبا يتأملني ويتقدم ليصافحني أو يكلمني بكلام غير مفهوم حتى جاء يوم وكنت أقف في محل بقالة في رمضان قبل مدفع الإفطار بحوالي نصف ساعة وإذا بواحد من هؤلاء يمر في الشارع وينظر إلى المحل ويقف. كان يأكل في حزمة خص. نظر لي وتقدم داخلا

المحل وقطع ورقة من أوراق الخصاية وأعطاها لي فأخذتها باسما وانصرف وأنا أهز رأسي مبتسما في دهشة. بعد هذه الحادثة الطريفة كتبت «صائد المجانين»، ومن شارع مشيت فيه في بلد عربي يحكمه نظام قمعي ووجدته خاليا وكان معي أحد الأصدقاء قد دعاني إلى عشاء في بيته سألته لماذا يبدو هذا الشارع خاليا فقال لي إن رئيس المدينة قرر أن يكون للمشاة فقط. وضحك وهو يقول أراحنا كثيرا رئيس المدينة، لكني بعد ذلك كتبت قصة أخرى كعادتي هي «الطريق إلى العشاء»، ومن أغرب القصص قصة كان وراءها يوم جلست فيه في مقهى جديد. يقوم سقفه على أعمدة كلها محاطة بالسيراميك الملون تشيع فيه الزهور وأشكال بشرية جميلة راقصة. في لحظة رأيت كأن من في الصور يخرجون من السيراميك. ضحكت وأنا أقول لنفسي لم يبقَ لك إلا أن يخرج السيراميك من مكانه وتنهار الأعمدة وراءه ثم المقهى. لا أذكر كم مر من الوقت ثم كتبت قصة «مشكلات الجلوس»، وكل القصص كانت تكتب بعد وقت يطول أو تقصر من الحادثة أو الموقف الذي سكن روحي.

حكايات كثيرة كانت وراء القصص ومشاعر يغلب عليها عدم الاستقرار أو العبث أو الحيرة. وطبعا قصص الحب الضائع. أنا أو الآخرين. كان لها تأثير مع غيرها من خبرات الحياة.

في كل القصص التي كتبتها لم أكن بحاجة لإعادة كتابتها كما يحدث مع رواياتي - كل رواياتي كُتبت أكثر من مرة باستثناء الصياد

واليمام- فقط كنت أحذف كلمة أو أضيف كلمة لا أكثر. وفي كل القصص كانت تأخذ منحى آخر غير ما حدث سواء خبرتها أنا أو فكرت فيها أو سمعتها أو رأيتها. منحى لم أفكر فيه لكن وراءه كل ما كتبت من قبل من قراءة في الفلسفة أو موقف من الحياة يمشي مع روحي.

في النهاية تجد الوقت والفراغ والعدم خلفية لأكثر ما كتبت من قصص إن لم يكن كلها. وتجد شخصياتها كلها بشكل أو بآخر يتحركون وسط عالم لا يدري بهم أو تجدهم غير قادرين على التوافق معه. هل كنت أنتصر على العالم من حولي أم كنت أكتب حيرتي الكونية أم كنت أبحث عن طريق في التوافق معه أم كنت أرى الزوال هي النهاية دائما.. أم كل ذلك معا؟

من ساعة واحدة في اليوم مشت معي بالألم والشجن وهي ساعة الإفطار التي كنت في شبابي بعيدا عن أهلي وأعيش في القاهرة أشعر فيها بالعزلة عن الدنيا كلها وأفكر في الغرباء أمثالي كيف حقا تكون هذه الساعة التي هي ساعة البهجة والعائلة؟ طبعا لم يكن ذلك يحدث كل يوم. كنت دائما أجد أصدقاء. لكن هذه الساعة تمكنت من روحي حتى جاء اليوم الذي خصصت لها ثلاثين حكاية تحدث ساعة الإفطار.

كان الأستاذ خالد صلاح رئيس تحرير جريدة «اليوم السابع» قد طلب مني أن أكتب شيئامن التراث كل يوم في رمضان. كان هناك

أسبوع واحد باق على بداية رمضان. اعتذرت فهذا أمر يحتاج إلى استعداد ووقت أطول واقترحت عليه أن أكتب حكايات تحدث كلها ساعة الإفطار.

وافق وكتبت ثلاثين حكاية منها على الأقل عشرون حكاية رأيتها أو عشتها والباقي من خيالي ومما أعرفه عن أحوال الدنيا. وهنا لا تجد من فن القصة إلا عنصر الحكاية البسيط. كانت تجربة غريبة لي أن أكتب كل يوم حكاية أنا الذي لا أكتب إلا بالمزاج كما يقال. لكني فعلتها واستجابت روحي لنداء الرغبة وكتبت الثلاثين حكاية في عشرين يوما فقط إذ كان لابد أن تكون موجودة لديهم قبل الطبع بوقت كاف. ساعدني هنا أن لغة الحكي ليست مثل لغة القص، فهي أبسط ولا تحتاج لتوقف أو تجريب ما. وفي هذه الحكايات الثلاثين لم أبتعد كثيرا عن الغربة والاغتراب أيضا لكثير من الشخصيات. اغتراب في الحياة واغتراب في الكتابة لكن كيف يكون ذلك فنا. كان هذا هو الموضوع. ولعلي استطعت. وأخيرا بعيدًا عن الحياة التي تقدم للكاتب مادة وافرة، وبعيدا عن الفلسفة التي حدثتك عنها والتربية السياسية والدراسات بكل أنواعها والسفر في البلاد العربية والأجنبية وكل ما حدثتك عنه، وكون حياة الكاتب الحقيقية هناك. ففي تاريخ الفلسفة فيلسوف غير مشهور، كان يعد أحد الحكماء قبل سقراط. وهو زينون الإيلي من إيليا المدينة اليونانية على الساحل

الإيطالي ذلك الوقت، كان له رأي في عدم وجود الحركة استقر في روحي تماما رغم معرفتي بشكلية البرهان لا واقعيته. كان يقول إنك إذا أطلقت السهم لم يصل أبدا إلى هدفه. لماذا؟ يقدم لك البرهان المنطقي الشكلاني العجيب وهوأنه حتى يبلغ السهم هدفه لابد أن يقطع نصف المسافة وكي يقطع نصف المسافة لابد أن يقطع نصف نصف المسافة وهكذا دائما وحيث إن لكل نصف نصف إلى ما لا نهاية فالسهم لن يتحرك من مكانه. أنت ترى السهم أمامك يصل إلى هدفه لكن البرهان المنطقي الشكلاني لزينون صحيح. إذن كل شيء يتحرك هو في الحقيقة ساكن، ومن ثم كل شيء موجود هو في الحقيقة غير موجود. وهكذا. كنت أعتبر زينون أديبا لا فيلسوفا ومع الزمن اكتشفت أنه لم يتركني في حالي شأنه شأن سارتر وكيركجارد وشوبنهاور ونيتشه وغيرهم.

فكرت قبل أن أنهي هذا الفصل أن أختار إحدى القصص لترى كيف صارت شيئايخرج محملا بمشاعري أنا تجاه العالم ووجدت أنها كلها تقريبا كذلك. وطبعا لن أستطيع أن أنقل لك كل القصص وأختار لك «الطريق إلى العشاء»، التي كان وراءها كما قلت لك شارع هادئ مخصص للمشاة فقط في بلد يحكمه نظام قمعي. ولقد كتبت عام 1991.

الطريق إلى العشاء

لنقف، قال ذلك وتوقف بالسيارة. ولأني غريب لم أعلق. هو أيضا صاحب الدعوة إلى العشاء.

كان الوقت غروبا، وبقايا أشعة واهنة لا زالت تتيح لنا الرؤية. والمصابيح لم توقد على جانبي الطريق الذي كان قصيرا. فطوله لا يتجاوز مئتي متر، لكنه كان واسعا يزيد عرضه على ثلاثين مترا.

كان طريقا مسفلتا بسلاسة بحيث لا تلمح فيه ارتفاعا أو انخفاضا، لكنه كان قديما حال سواده إلى الرمادي القاتم فلا تلمح فيه انعكاسا لأي ضوء. وكانت هناك في بدايته القريبة منا علامات عبور المشاة البيضاء التي بين الرصيفين، وعلى جانبي الطريق بيوت منخفضة محاطة بحدائق، ولكنها بيوت مغلقة في الغالب والمفتوح منها لا يطل منه وجه أحد. قلت:

- اسمح لي أن أحسد سكان هذا الشارع على هذا الهدوء.

ابتسم وقال:

- لايوجد هنا سكان. معظم هذه البيوت ورش صغيرة.

- عجيب.

هتفت هكذا على طريقة أهل هذه البلدة التي زرتها من قبل منذ ثلاث سنوات. وقال هو:

- الأعجب أن مسؤول الحي قرر سد هذا الشارع من الناحية المقابلة، ومنع مرور أي سيارات أو مركبات فيه.

ضحكت وقلت:

- ربما ليوفر الراحة لأصحاب الورش والعمال.

قال:

- هذا ما حدث. لكن لماذا نسيت حكاية هذا الشارع؟

باغتني بالسؤال، وكان يضحك ويهتز صدره، وكنا نزلنا من السيارة ووقفنا فوق أول الرصيف القريب عند علامات المشاة البيضاء وعاد يسألني:

- ألم أحدثك عنه في خطاباتي؟

وقفت مندهشا أحاول أن أتذكر.

- هل تنسى بهذه السرعة؟ لقد كتبت لك أيضا عن ذلك في خطابي الأخير.

قلت:

- لقد تذكرت. لكن..

- انظر قليلا إلى حركة الناس، وستتأكد مما كتبته لك.

ورحت أنظر إلى شابين يأتيان من نهاية الشارع يمشيان على الرصيف المقابل لنا حتى إذا وصلا إلى نهايته أمامنا عبرا الشارع فوق علامات عبور المشاة ووصلا إلينا ثم تجاوزانا دون أن يلقيا بسلام.

- أرأيت؟

سألني صديقي من جديد، وكنت أنا لا أزال أتابع النظر إلى القادمين من عند نهاية الشارع أو الخارجين إليه من أزقة جانبية بين البيوت الهادئة. كانوا كثيرين يمشون على الرصيف المقابل لنا حتى إذا وصلوا إلى نهاية الرصيفين من ناحيتنا عبروا فوق خطوط المشاة البيضاء وواصلوا مشيهم بعيدا عنا. قلت مرة أخرى:

- عجيب!

والحقيقة أنني في هذا الوقت لم أكن أفهم أي معنى لأي شيء يحدث أمامي. لكن هكذا قلت مدعيا الدهشة حتى يتأكد أني لا زلت أذكر ما كتبه لي في رسالته التي لا أذكر منها أي شيء. وربما قلت له ذلك أيضا خلاصا من الأمر كله حتى نلحق بالعشاء. ولكني رأيته يضحك ويهتز ثم قال:

- ها هي مجموعة تأتي من خلفنا، تابعها.

كان عدد منها يعبر خطوط المشاة إلى الرصيف الآخر، وعدد استمر يمشي فوق الرصيف الذي نقف عليه. قال:

- سترى أن هؤلاء أيضا لن يعبروا الطريق من أي نقطة إلا عند النهاية.

- لماذا؟

نظر إليّ بدهشة غير مصدق وقال:

- لأنه عند النهاية توجد خطوط عبور المشاة.

قلت حتى أخلصه من أي فكرة تكون قفزت إلى ذهنه عني ككاذب أو مستخف بالمسألة:

- لكن الشارع مسدود عند نهايته.

- لقد وضعوا الأحجار بعد خطوط عبور المشاة القديمة. هناك في النهاية زقاقان يدخل إليهما أو يأتي منهما الناس.

تابعت النظر إلى الذين يمشون فوق رصيفنا باعتبار أن الذين عبروا من أمامنا إلى الرصيف الآخر لايمكن أن يعودوا ويعبروا الشارع مرة أخرى.

رأيتهم حين بلغوا نهاية الشارع يعبرونه فوق خطوط عبور المشاة، ولا أعرف لماذا نظرت إلى الرصيف الآخر. رأيت واحدا سبق له العبور من أمامنا يقف ثم يلتفت ليمشي بضع خطوات على نفس الرصيف ثم يعود ويعبر فوق الخطوط إلى رصيفنا ويختفي في الزقاق الذي حدثني عنه صديقي.

أغمضت عيني غير مصدق ثم فتحتهما وتذكرت كل ما كتبه لي وسمعته يسألني:

– هل تريد أن تظل واقفا؟

سألته:

– منذ متى صدر قرار مسؤول الحي؟

– منذ عام.

– عام كامل؟

– عام كامل، ولا أحد يريد أن يصدق أن هذا الشارع لا تمشي فيه المركبات، كل أنواع المركبات يا أخي، لا أحد يريد أن يصدق أن الشارع بعد قرار مسؤول الحي صار كله للمشاة، يمكن أن يلعب فيه الناس أيضا. انظر. حتى النساء، حتى الأطفال، لا يصدقون.

كانت هناك مجموعات تمشي على الرصيفين بينها نساء وحولها وأمامها أطفال، ولم يشأ أن أنتظر لأرى. فمشى ومشيت خطوتين فقط، وتوقفت وقلت:

– انتظر قليلا.

– إيه. لا تريد أن تلحق بالعشاء؟

– ما رأيك لومشينا أنا وأنت في الشارع؟

لصديقي هذا وجه يحمل عينين مندهشتين دائما، لكن شاربه الكث يعطيه بعض جهامة، إلا أن فيه روحا طفولية تنبثق فجأة إذا أعجبته فكرة ما، وحين تنبثق هذه الروح الطفولية تتسع مساحة الوجه للدهشة وتتراجع الجهامة المكتسبة بالشارب. وهوالآن يصفق طربا ويشيع في وجهه الفرح ويقول كأنه داخل إلى معركة حربية:

– هيا. تقدم وسأتبعك.

وتقدمت أنزل الرصيف إلى أرض الشارع. كانت المصابيح قد أضيئت فبانت لي الأرض الرمادية كالحة تماما. مشينا وسط الشارع وحاولنا ألا ننظر مباشرة إلى الناس فوق الرصيفين. مشينا ببطء. وإمعانا في أن نبدو متسكعين حقيقيين رحنا نقترب ونبتعد من بعضنا كأننا لا يشغلنا شيء ولا وقت. لكني كنت ألاحظ ازدياد أعداد الناس على الرصيفين. رجال ونساء وأطفال حقيقيون لا أعرف فيم يفكرون بالضبط لكن أحس بنظراتهم إلينا. أحسها تخترق جسمي. وحين وصلنا إلى نهاية الشارع عدنا نقطعه بنفس الطريقة إلى أوله، والناس تتغير، تظهر منهم جماعات جديدة توالي النظر إلينا ويزداد إحساسي بنظراتهم وهي تخترق جسمي، لكن أيضا بدأت أفهم شيئامن خلال نظراتهم. غيظ ودهشة ممزوجة بغضب وسخرية. وحين وصلنا إلى أول الشارع عدنا من جديد، حتى إذا ما وصلنا

إلـى منتصفه وبدأنـا ندرك أنه لم يشاركنا أحد في النـزول من فوق الرصيـف ولو خطوة واحدة، رأيت النـاس ينصرفون عنا بنظراتهم، لكـن تزداد سـرعتهم قليـلا، وخيّل إليّ - وربمـا كان ذلك حقيقة - أنـي رأيـت بعضهم يجري، وتوقفنا، ولا أعـرف هل توقف صديقي لأنـي توقفـت أو توقفنا معا فـي لحظة واحدة. الحقيقـة أني توقفت لأني أدركت أننا منذ نزلنا إلى الشارع توقفنا عن الكلام. كانت ثلاثة أعوام قد مرت منذ زرت هذا البلد أول مرة. وبالطبع كانت هذه أول مرة أراه بعد لقائنا البعيد. ولا أظن أن الإنسان يحتاج لأكثر من ثلاثة أعـوام حتـى يجد شيئايقوله. لكن هـذا ما حـدث، ورأيت صديقي يرتعـش قليـلا وترتعش أصابعـه وهو يخرج من جيـب قميصه علبة سـجائره وولاعـة مذهبة، ورأيت ازدياد ارتعـاش أصابعه وهو يقدم لي سيجارة، وارتعاش أصابعي وأنا آخذها. وقال بصوت خفيض:

- يا أخي أشعر كأني لا أرى أحدا فوق الرصيفين.

كان ذلـك يحـدث لي أيضـا، لكني كنت غير قـادر على الكلام، وسمعته يقول بصوت مخنوق:

- ألا زالت القمة بعيدة؟

كان يعنـي قمـة الجبـل الـذي نصعـده، وكان يخـاف مثلـي من السـقوط إلـى السـفح العميق. هكـذا كان إحساسـنا ونحـن نعاود المشي بحثا عن الرصيف الجميل.

1991

للمؤلف

الروايات:

1- في الصيف السـابع والستين - عام 1979م -الطبعة الثالثة - دار الشروق 2008م.

2- ليلـة العشـق والـدم - الطبعـة الأولـى عـام 1982م-الطبعة الخامسة - دار الشروق 2005م.

3- المسـافات- الطبعة الأولى عام 1982م - الطبعة السادسة - دار الشروق عام 2005م.

4- الصيـاد واليمـام - الطبعـة الأولـى عـام 1984م - الطبعـة السابعة- دار الشروق عام 2005م.

5- بيـت الياسـمين - الطبعـة الأولـى عـام 1986م - الطبعـة الخامسة- دار الشروق عام 2005م.

6- البلـدة الأخـرى - الطبعـة الأولـى عـام 1991م - الطبعـة الخامسة - دار الشروق عام 2006م.

7- قناديل البحر - الطبعة الأولى عام 1992م - الطبعة الرابعة- دار الشروق عام 2006م.

(حولت إلى مسلسل تلفزيوني بطولة آثار الحكيم ومحمود قابيل).

8- لا أحد ينام في الإسكندرية - الطبعة الأولى عام 1996م - الطبعة العاشرة - دار الشروق عام 2009م.

(حولت إلى مسلسل تلفزيوني بطولة ماجد المصري ومادلين طبر وسهير المرشدي).

9- طيور العنبر - الطبعة الثالثة - دار الشروق.

10- برج العذراء- الطبعة الأولى - دار الآداب اللبنانية - نفدت.

11- عتبات البهجة - الطبعة الثانية - دار الشروق -عام 2007م.

12- شهد القلعة -الطبعة الأولى - الدار للنشر - القاهرة 2007م.

13- في كل أسبوع يوم جمعة - الدار المصرية اللبنانية - الطبعة الرابعة2012م.

14- الإسكندرية في غيمة - دار الشروق - الطبعة الثانية - 2013م.

المجموعات القصصية:

1- مشاهد صغيرة حول سور كبير، 1982م.

2- الشجرة والعصافير، 1985م.

3- إغلاق النوافذ، 1992م.

4- فضاءات، 1992م.

5- سفن قديمة، 2001م.

6- ليلة أنجيلا، 2003م.

كلها نفدت وهي الآن في مجلد واحد بدار الشروق بعنوان «أشجار السراب».

كتب متنوعة:

1- مذكرات عبد أميركي -ترجمة عن الإنجليزيه- تأليف فريدريك دوجلاس، 1988م.

2- 24 ساعة قبل الحرب - مسرحية، 2001م.

3- أين تذهب طيور المحيط - أدب رحلات، 2003م.

4- غواية الإسكندرية: ما وراء الكتابة، 2005م.

الطبعة الثانية منقحة ومزيدة 2013م.

5- ما وراء الخراب - مقالات في الدين والآخر والهوية والنهضه والتراث، 2008م.

6- السبت فات والحد فات - مقالات - بيت الياسمين للنشر والتوزيع، 2010م.

7- لكل أرض ميعاد: أيام التحرير - كتاب الأخبار - أخبار اليوم، 2011م.

8- من الذي يصنع الأزمات في مصر - مقالات - بيت الياسمين للنشر والتوزيع، 2012م.

9- حكايات ساعة الإفطار - حكايات قصيرة - بيت الياسمين للنشر والتوزيع، 2012م.

الجوائز:

1- الجائزة الأولى في القصة القصيرة -نادي القصة بالإسكندرية، 1969م.

2-جائزة نجيب محفوظ في الرواية عن البلدة الأخرى -الجامعة الأمريكية، 1996م.

3- جائزة الدولة للتفوق في الآداب عام 2004م.

4- جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 2007م.

5- جائزة ساويرس في الرواية لكبار الكتاب عن روايته «في كل أسبوع يوم جمعة».

الترجمات للغات أجنبية:

1- البلدة الأخرى - للإنجليزية والفرنسية والألمانية.

2- لا أحد ينام في الإسكندرية- للإنجليزية والفرنسية.

3- بيت الياسمين - للفرنسية والإيطالية والإنجليزية.

4- عتبات البهجة - للفرنسية واليونانية.

5- المسافات - للإنجليزية.

6- طيور العنبر - للإنجليزية.

* صفحة الكاتب على الفيس بوك:

ibrahimabdelmeguid

twitter:

@ibmeguid

E. mail: ibrahimabdelmeguid@hotmail. com

المحتويات

القسم الرابع

قليلٌ جدًا من الكُتَّاب مَن قدَّم لنا شيئًا في هذا الموضوع، ربما لأن ذلك من الأسرار التي يصعب الكشف عنها لما تحمله من معانٍ صوفية أو سحرية، وربما لأن الكُتَّاب بعد أن يكتبوا أعمالهم تنقطع صلتهم بها تمامًا، وقد تصل المسألة بالكاتب إلى أنه لا يريد أن يعود إلى عمل انتهى منه . لكن للموضوع قيمته و أهميته الكبرى . وهو موجود في الأدب العالمي بكثافة . هنا ما هو خفي وراء الكتابة والأجواء الروحية لكتابة العمل والقضايا الجمالية التي شغلت صاحبه . أجواء الحياة الاجتماعية والسياسية وقت الكتابة التي امتدت رحلتها لأكثر من خمس وثلاثين سنة . الكاتب الكبير إبراهيم عبد المجيد الذي دأب على التجديد في كتاباته يقدم لنا اليوم أيضًا موضوعًا جديدًا في الأدب العربي، ويجعلنا نعيش معه ليالي الكتابة التي أنفقها من عمره ليمتعنا .

■■■■■

إبراهيم عبد المجيد صاحب الروايات الكبيرة مثل "ثلاثية الإسكندرية- لا أحد ينام في الإسكندرية .. طيور العنبر .. الإسكندرية في غيمة " و "البلدة الأخرى" و " في كل أسبوع يوم جمعة " وغيرها . فاز بجوائز عديدة منها الجائزة التقديرية في الآداب وترجمت له للفرنسية أربع روايات وللإنجليزية خمس روايات وللغات أخرى .

الدار المصرية اللبنانية